الجامعة الأمريكية العالمية
كلية الحديث الشريف

حجية السنة وتاريخها

الأستاذ الدكتور/الحسين شواط
رئيس الجامعة الأمريكية العالمية

الطبعة الأولى

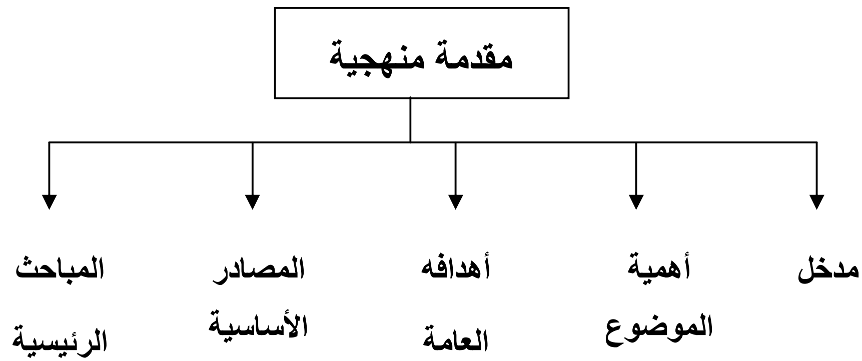
1425هـ / 2004م

بسم الله الرحمن الرحيم

{وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى}

[النجم : 3 ، 4]

الوحدة الأولى



حجية السنة وتاريخها
مقدمة منهجية

1- مدخل :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، شهادة ينالُ من اعتقدها وقالها وعمل بها ودعا إليها وصبر على تبعاتها الفوزَ الأعظم والفلاح الأكبر.

الحمد لله ذي النعم الجزيلة التي أعيت المحصين ، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء ، والمرسلين ، الذي بعثه الله بدين الإسلام رحمة للعالمين ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، ولم يرض لعباده دينا سواه ، وقصر الفلاح والفوز برضاه على من اتبع سنة محمد صلى الله عليه وسلم وما سار عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم .

وقد تكفل الله عز وجل بحفظ هذا الدين فصان كتابه العزيز عن التحريف ، وعصمه من التبديل ، وهيأ للسنة المطهرة رجالا أفذاذا تفانوا في طلبها وخدمتها ، وتمسكوا بها ، وقاموا بحفظها وتدوينها ونشرها ، ووضعوا القواعد والضوابط العلمية الدقيقة لحمايتها من الدخيل وتمييزها من الشوائب ، والقيام عليها رواية ودراية وتصنيفها في ذلك ، والمنافحة عنها في مشارق الأرض ومغاربها جيلا بعد جيل ، على مر الزمان وتعاقب الشهور والأعوام ، أولئك هم أهل الطائفة المنصورة ، الذين لايزالون قائمين على الحق ، مستمسكين بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ذابّين عنها ، عاملين لإحياء ما أمات الناس منها ، لايضرهم المخالف ، ولا يفل في عزيمتهم المراوح المتخاذل ، ولا يضعف من همتهم المتخلف الخانع ، يبذلون في سبيل ذلك كل غال حتى يأتي أمر الله وهم على هذا المنهج القويم ، فيفوزون برضوان الله عز وجل ، وما ذاك إلا لعظم أمر السنة ووجوب التزامها ، فهي شطر الدين وثاني الأصلين ، وهي

شقيقة القرآن ومثيلته في الحجية والاعتبار وهي المبينة للقرآن الكريم ، تفصيلا لمجمله ، وتوضيحا لمبهمه ، وشرحا لغامضه ، وتخصيصا لعامّه وتقييدا لمطلقه ، وردا لما تشابه منه إلى مُحْكَمِهِ بالإضافة إلى ما تفردت به من التشريعات الكثيرة التي لم ينص عليها القرآن الكريم ولا غرابة في ذلك فهي مثله وحي من الله تعالى .

2- أهمية الموضوع :

إن تلك المكانة العظيمة للسنة في هذا الدين جعلت أهل العلم يجمعون انطلاقا من الأدلة على أن الاشتغال بطلبها من أعظم القربات ، وأفضل ما صرفت فيه الأموال والأوقات ، لارتباط أمر السنة بأصول الاعتقاد وعدم اعتباره من الفروع الفقهيات ، ولذلك فإن الزلل في شأنها خطير ، والعمل لتصحيح الاعتقاد حولها واجب ، ومن هنا لزم طالب العلم تبين تلك المكانة بالأدلة ، للقطع بأن السنة وحي من عند الله وأنها حجة شرعية يجب اتباعها ، وأنها مصدر للعقيدة والشريعة والأخلاق والآداب والفضائل والمعارف ، كما عليه أن يعلم المراحل التي مرت بها السنة وتفاني أهل العلم في خدمتها ووضع الضوابط لحمايتها منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف تم نقلها في غاية الدقة والحيطة محفوظة في الصدور ومكتوبة في السطور .

وتعتبر هذه المادة (حجية السنة وتاريخها) مدخلا ضروريا ومقررا تأسيسيا يبنى عليه ما يأتي بعده من مقررات محور السنة وعلومها،ويحتاج إليه كل مسلم لتصحيح معتقده ، وتقوية يقينه ، والتزامه بدينه ، ومقدرته على المنافحة عنه في المعترك الفكري الخطير في هذا العصر ، حيث جعلت السنة وكثير من ثوابت الدين غرضاً يحرص على النيل منه كثير من الجهلة والمغرضين {يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون}[1] ، ولن يعدم هذا العصر بإذن الله – كما لم يعدم ما سبقه بفضل الله – من علماء مخلصين أكفاء أمناء يذودون عن حمى الشريعة الغراء ، ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، وقد اشتكى أحد تلاميذ عبد الله ابن المبارك جهود الزنادقة في وضع الحديث وإفساد السنة ، فقال له ابن المبارك : يعيش لها الجهابذة ، ثم قرأ قول الله تعالى : {إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون}[2]، ومما يزيد

(1) الصف : (8) .
(2) الحجر : (9) .

الموضوع أهمية هذه الجفوة الأليمة التي توجد في واقعنا المعاصر بين هدي السنة المطهـــرة وبين حياة المسلمين العلمية والعملية فأنى لقوم تركوا هدي نبـــيهم وراء ظهـــورهم أن يفلحوا؟ ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها ، وإنما هي التوبـــة النصـــوح والعود الحميد إلى السنة المطهرة واستدعاؤها لتحكم حياتنا من جديد ، فهنالك نفلح ، وننتصر ونسعد في الدارين .

3- أهداف تدريس هذا المقرر :

يتوقع من الطالب بعد دراسة جادة وشاملة لهذه المادة أن يحقق جملة من الأهداف العلمية والعملية ، من أهمها مايلي :

أ- الأهداف العلمية :

1- معرفة المعنى العام للسنة الذي يلتقي عليه علماء الشريعة ، ومعرفـــة معناهـــا الخاص لدى أهل كل علم .

2- إدراك أن السنة وحي من عند الله تعالى وأنها مصـــدر للعقيـــدة والشـــريعة والأخلاق والمعارف .

3- تَبَيُّن وظيفة السنة ومكانتها في الإسلام ومنزلتها من القرآن الكريم .

4- الاطلاع على أطوار خدمة السنة منذ العهد النبوي إلى العصر الذهبي للسنة ، وإدراك خصائص كل طور ومميزاته من حيث تحمل السنة وأداؤها وكتابتـــها وتدوينـــها والتصنيف فيها .

5- تقرير حجية السنة واستقلالها بالتشريع مع الاستدلال .

6- تبين حجية أخبار الآحاد في العقيدة .

7- رد الشبهات المثارة حول تدوين السنة وحجيتها .

ب- الأهداف العملية

1- اعتقاد مرجعيّة السنة وحجيتها في أصول الدين وفروعه وتَبَنّيهـــا منـــهجا في الحياة ، والتخلص من النظرة الجزئية إلى وظيفة السنة .

2- حصول الثقة بصحة مناهج الصحابة ومن بعدهم من المحدثين في نقل الســـنة ووضع الضوابط لحمايتها من الدخيل وتمييز صحيحها من السقيم .

3- الدفاع العلمي المتزن عن السنة ضد شبهات وأباطيل المستشرقين ومن شايعهم من العصرانيين .

4- التعامل المباشر مع أمهات كتب السنة ، والمشاركة الجادة في خدمة السنة وإعادة الاعتبار إليها .

5- الحرص على العمل بالحديث المقبول ورد ما لم تثبت نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

6- تصحيح المعتقدات والعبادات (بمفهوميها العام والخاص) بعرضها على صحيح السنة .

7- مساعدة الآخرين على تصحيح حياتهم بالرجوع إلى السنة ، والدعوة إلى التزام ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

4- المصادر الأساسية :

1- السنة قبل التدوين ، د.محمد عجاج الخطيب .
2- الحديث والمحدثون ، د.محمد أبو زهو .
3- السنة ومكانتها في التشريع ، د . مصطفى السباعي .
4- دفاع عن السنة ، د . محمد أبو شهبة .
5- الرحلة في طلب الحديث ، الخطيب البغدادي .
6- تقييد العلم ، الخطيب البغدادي .
7- جامع بيان العلم ، ابن عبد البر .
8- الأنوار الكاشفة ، اليماني .
9- دلائل التوثيق المبكر للسنة ، د.امتياز أحمد .
10- بحوث في تاريخ السنة المشرفة ، د.أكرم ضياء العمري .
11- لمحات في تاريخ السنة ، الشيخ عبد الفتاح أبو غدة .
12- حجية السنة ، د . عبد الغني عبد الخالق .
13- الحديث النبوي ، د . محمد لطفي الصباغ .

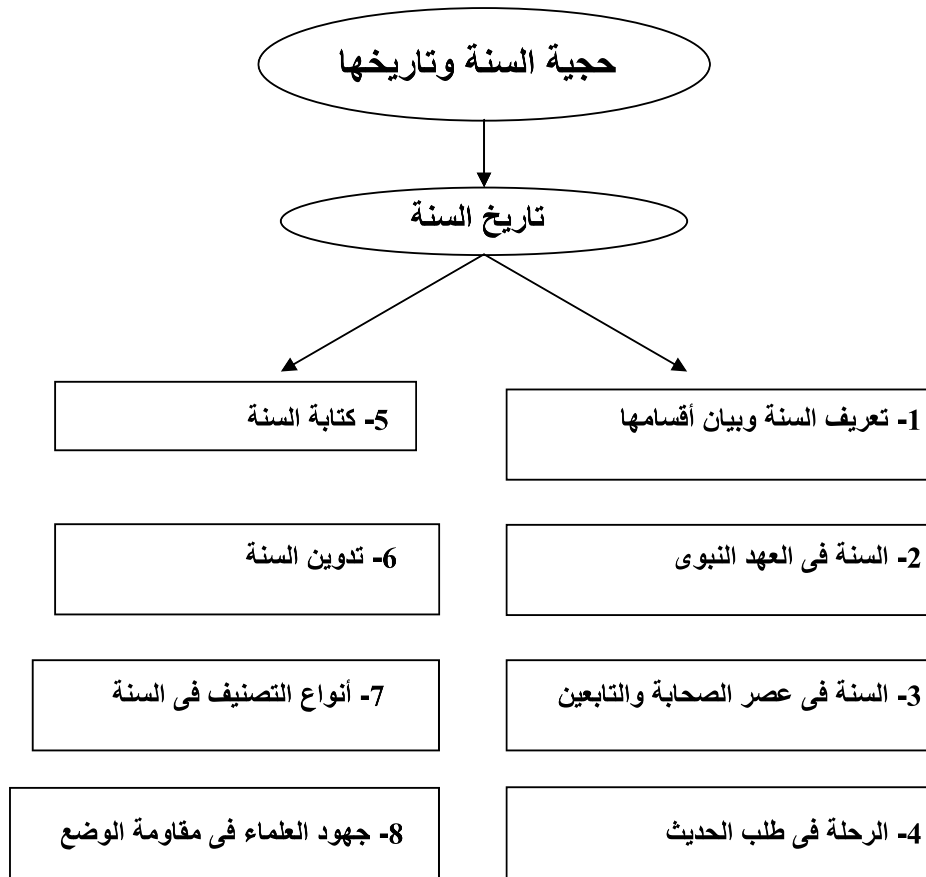
14- معالم السنة النبوية ، د . عبد الرحمن عتر .
15- منهج النقد في علوم الحديث ، د . نور الدين عتر .
16- دراسات في السنة النبوية ، د . صديق عبد العظيم .
17- السنة المفترى عليها ، د . سالم البهنساوي .
18- السنة : حجيتها ومكانتها في الإسلام ، د . محمد لقمان السلفي .
19- الحطة في ذكر الصحاح الستة . محمد صديق القنوجي .
20- مدرسة الحديث في القيروان ، د . الحسين بن محمد شواط .
21- مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة للسيوطي .
22- السنة مفتاح الجنة ، خالد الحاج .

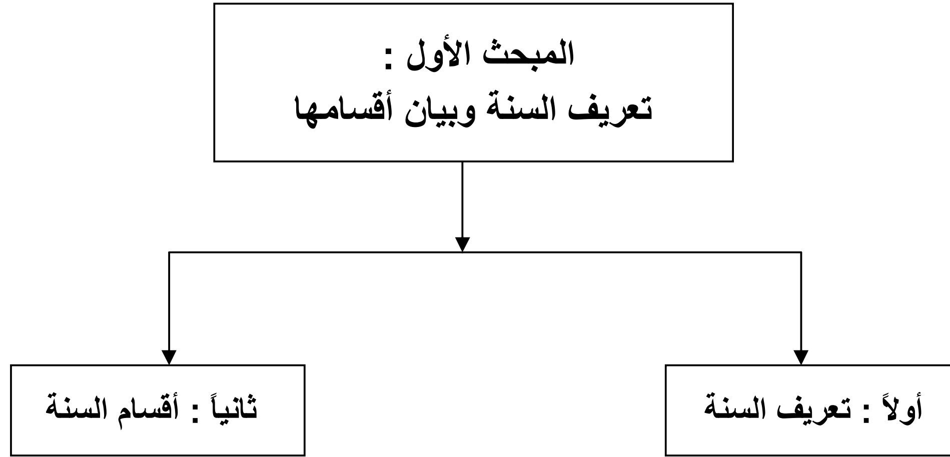
5- المباحث الرئيسة :



القسم الأول

تاريخ السنة


حجية السنة وتاريخها
تاريخ السنة
1- تعريف السنة وبيان أقسامها
2- السنة فى العهد النبوى
3- السنة فى عصر الصحابة والتابعين
4- الرحلة فى طلب الحديث
5- كتابة السنة
6- تدوين السنة
7- أنواع التصنيف فى السنة
8- جهود العلماء فى مقاومة الوضع



1- السنة فى اللغة

2- السنة فى الاصطلاح :

أ- الاصطلاح العام للسنة

ب- الاصطلاحات الخاصة :

- السنة عند المحدثين

- السنة عند الأصوليين

- السنة عند الفقهاء

- السنة عند علماء العقيدة

1- أقسام السنة من حيث الوحى بها:

- سنة هى وحى غير مقترن بلفظ دال عليه

- سنة بمنزلة الوحى

2- أقسام السنة من حيث صدورها عن النبى صلى الله عليه وسلم :

- القول - الفعل

- التقرير - الصفة

* خَلقية

* خُلقية

أولاً : تعريف السنة



1- السنة فى اللغة

2- السنة فى الاصطلاح :

أ- الاصطلاح العام للسنة

ب- الاصطلاحات الخاصة :

- السنة عند المحدثين
- السنة عند الأصوليين
- السنة عند الفقهاء
- السنة عند علماء العقيدة

المبحث الأول
تعريف السنة وبيان أقسامها

الأهداف الخاصة

1- معرفة معانى السنة فى اللغة والاصطلاح ، مع الاستشهاد .

2- التمكن من الربط بين المعانى اللغوية والمعانى الاصطلاحية للسنة .

3- إدراك المعنى العام الذى اتفق عليه علماء الشريعة فى مفهوم السنة ، مع الاستدلال .

4- معرفة مجالات بحث كل من المحدثين والأصوليين والفقهاء وعلماء العقيدة، وربط ذلك بتعريفاتهم للسنة المطهرة ، وأن الاختلاف بينهم فى تعريف السنة هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

5- العلم بالأقسام الأساسية للسنة بالاعتبارات التى ذكرها أهل العلم .

6- اعتقاد أن السنة وحى من الله تعالى ومعرفة أدلة ذلك .

7- معرفة أقسام السنة من حيث صدورها عن النبى صلى الله عليه وسلم ، مع الأمثلة لكل منها .

القسم الأول : تاريخ السنة

المبحث الأول : تعريف السنة وبيان أقسامها[3]

أولا : تعريف السنة

1- السنة في اللغة[4] :

السنة في لغة العرب اسم مشتق من فعل (سَنّ) يَسِنُّ ويَسُنُّ ، والمصدر: السَّنُّ ، والجمع : السُنَنُ ، بضم السين ، ويجوز فتحها وكسرها . وهي تطلق على معان أشهرها مايلي :

أ- السيرة المتبعة والطريقة المسلوكة والمنهج والمذهب حسنًا كان ذلك أم قبيحا غير أن استعمالها في الممدوح أكثر ، وإذا استعملت في المذموم قيدت غالباً ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : ((من سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء))[5] ، ومنه قول خالد بن عتبة الهندلي[6] :

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها وأول راض سنة من يسيرها

ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

إنّ الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سننا للناس تتبع

---

(3) أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائى 71/1 ، الشرح والإبانة لابن بطة 120 ، الحديث والمحدثون لأبي زهو 9 ، الموافقات للشاطبى 3/4 ، دراسات فى السنة النبوية 21 ، البدع لابن وضاح 38 ، الحديث النبوى للصباغ 120 ، جامع العلوم والحكم لابن رجب 23 ، معالم السنة النبوية للعتر 17-27 ، إرشاد الفحول للشوكانى 312 ، دلائل التوثيق المبكر للسنة ، امتياز أحمد 13 ، حجية السنة 51 ، مفهوم أهل السنة والجماعة للعقل 13-47 .

(4) راجع مادة "سنن" فى معاجم اللغة ، ولاسيما : لسان العرب 220/13 ، القاموس المحيط 238/4 .

(5) صحيح مسلم 2059/4 – 2060ح15 .

(6) ديوان حسان بن ثابت 304 .

وقد ورد إطلاق السنة في القرآن الكريم على معاني متعددة ، منها هذا المعنى ، وهو: الطريقة والسيرة والنهج الذي كان عليه الأسلاف ، ومنه قوله تعالى: {يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم}(7)

ب- الأنموذج الذي يُحتذى والمثال الذي يقتدى به والصورة التي يتمثل بحسنها والإمام الذي يُؤتم به،

ومنه قول ذي الرمة :(8)

تريك سنة وجه غير مقرفة		ملساء ليس بها خالٌ ولا ندب

أي صورة وجه حسنة يتمثل بجمالها . ومن هذا المعنى قول لبيد :

من معشر سنت لهم آباؤهم		ولكل قوم سنة وإمامها(9)

ج- البيان: يقال سن الأمر بينه ، وسن الله سنة بين طريقا قويما.

د- ابتداء الأمر:كل من ابتدأ أمرا عمل به قوم من بعده فهو الذي سنه ، قال نصيب: (10)

كأني سننت الحب أول عاشق		من الناس إذ أحببت من بينهم وحدي

هذه أشهر الإطلاقات للسنة في لغة العرب ، ولجميعها صلة بمعنى السنة في الاصطلاح فهي الطريقة القويمة المحمودة ، والأنموذج الذي يحتذى به ، وهي البيان الشافي الكافي للرسالة الخاتمة ، وقد ابتدأها النبي صلى الله عليه وسلم – بوحي من ربه عز وجل – وعمل بها الصحابة الكرام وسائر المسلمين من بعده تطبيقا لأمر الله عز وجل بوجوب الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم.

2- السنة في الاصطلاح :

للسنة اصطلاح عام أجمع عليه علماء الإسلام ، ولها اصطلاحات خاصة بحسب

(7) النساء : (26) .
(8) الصحاح للجوهرى 2139/5 .
(9) شرح المعلقات العشر 227 .
(10) الحديث والمحدثون 9 .

أغراض العلوم الشرعية وذلك على النحو التالي :

أ- الاصطلاح العام للسنة[11] :

إن علماء الشريعة جميعهم متفقون على أنّ السنة مصدر للدين عقيدة وشريعة وأخلاقا وآدابا وفضائل وعلوما ومعارف ، وأنها يستمد منها الأحكام التكليفية الخمسة ، فهي تأمر بالواجب ، وتحضّ على المندوب ، وترشد إلى المباح ، وتحذّر من المكروه ، وتنهى عن الحرام ، وهذا واضح في مصنفاتهم وتقريرهم لعلومهم المتنوعة التي استنبطوها من السنة وأسسوا أحكامهم عليها ، وبنوا فقههم استنادا إليها.

قال مكحول[12]: "السنة سنتان: سنة الأخذ بها فريضة وتركها كفر ، وسنة الأخذ بها فضيلة وتركها إلى غيرها حرج ".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[13]: "إن السنة التي يجب اتباعها ويحمد أهلها ويذم من خالفها هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمور الاعتقادات وأمور العبادات وسائر أمور الديانات ، وذلك إنما يعرف بمعرفة أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه في أقواله وأفعاله ، وما تركه من قول وعمل ".

ويستند هذا الاصطلاح العام إلى الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة الدالة على أن السنة وحي يجب اتباعه ، وأنها شقيقة القرآن ومثيلته في الحجية والاعتبار ، وأنها مصدر للدين مع القرآن الكريم تبعا له واستقلالا ، وسيأتي حشد هذه الأدلة في مواضع متعددة بحسب الحاجة ، ولا سيما في مبحث أقسام السنة من حيث الوحي بها[14]، ومبحث حجية السنة .

(11) راجع : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة 71/1 ، تفسير ابن كثير 411/1، 49/3 ، الشرح والإبانة لابن بطة 120 ، الموافقات للشاطبى 3/4 ، البدع لابن وضاح 38 ، جامع العلوم والحكم لابن رجب 230 ، الجرح والتعديل لابن أبى حاتم 118/1 ، إرشاد الفحول للشوكانى 312 ، الحديث والمحدثون لأبى زهو 9 ، دراسات فى السنة النبوية 21 ، الحديث النبوى 120 ، معالم السنة النبوية 18 ، دلائل التوثيق المبكر للسنة 13-74 ، حجية السنة 51 .

(12) سنن الدارمى 145/1 .

(13) مجموع الفتاوى 378/3 .

(14) انظر ما يأتى ص 24 .

وبعد هذا المعنى العام الذي أجمع عليه أهل العلم بخصوص السنة ، نجد لها جملة من الاصطلاحات بحسب تنوع أغراض علوم الشريعة وتعدد مقاصدها التي تتكامل وتصب في إطار واحد هو خدمة هذا الدين خدمة شاملة ، ولهذا فإن الاختلاف في اصطلاحاتهم حول السنة هو اختلاف تنوع وتكامل وليس اختلاف تضاد وتعارض ، وهذا واضح من اتفاقهم على القاعدة والأساس واللباب ، ثم انطلاق كل منهم للبناء على ذلك الأصل وخدمة دينه من خلال تخصصه والوقوف على تلك الثغرة حرصا على ألا يؤتى الإسلام من قبله ولئلا يكون قصور أو تقصير من جهته ، وبفضل الله ثم بجهود هؤلاء الجهابذة نمت علوم الشريعة وازدهرت بما لا يعرف لغير أمة الإسلام ، ولله الحمد والمنة.

وفيما يلي ذكر تعريف السنة لدى كل من المحدثين والأصوليين والفقهاء وعلماء العقيدة ، وبيان صلة تلك التعريفات بأغراض هذه العلوم:

ب- الاصطلاحات الخاصة للسنة

1- السنة عند المحدثين :

يُعْنَى المحدثون بجميع جوانب شخصية النبي صلى الله عليه وسلم وينقلون كامل سنته قولا وفعلا وتقريرا وصفة ، سواء كان ذلك قبل الرسالة أو بعدها وسواء أثبت حكما شرعيا أم لم يثبت ، فقد عنوا به رسولا أمينا ونبيا كريما وإماما هاديا وقدوة وبشيرا ونذيرا ومبلغا عن ربه عز وجل ، كما نقلوا كل ما يتصل بنسبه وطفولته وشبابه وكهولته ودوّنوا جميع تفاصيل حياته بعد البعثة خاصّها وعامّها ، ورووا شمائله الكريمة وصفاته النبيلة ، كل ذلك بدقة وشمول لم يحصل لنبي سواه ، ولهذا يعتبر تعريف المحدثين للسنة هو أشمل التعريفات على الإطلاق لما فيه من الوفاء بجوانب شخصية النبي صلى الله عليه وسلم جميعها ، حتى إنه لا يشذ عنه شيء مما يتصل بحياة النبي صلى الله عليه وسلم وشرعه ، فالسنة في اصطلاح المحدثين هي : "كل ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو سيرة أو صفة خَلْقية أو خُلُقية ، سواء أكان ذلك قبل البعثة أم بعدها" ، وسيأتي التمثيل لذلك في مبحث أقسام السنة[15].

2- السنة عند الأصوليين :

عني علماء أصول الفقه بالجانب التشريعي في ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم ،

---

(15) انظر ما يأتى ص 34 .

فهو المشرع الذي يقرر القواعد للمجتهدين من علماء الأمة ، ويبين لهم أصول الاستدلال وكيفية استنباطها من الأدلة الكلية ، فهم يبحثون في السنة من حيث هي مصدر للتشريع تستمد منها الأحكام الكلية التي تبنى عليها الفروع الفقهية ، فالأصولي يهتم بالكليات والأحكام العامة وليس بالجزئيات مثل "الأمر يدل الوجوب" ، "والنهي يقتضي الفساد أو التحريم" ، وهذه الأحكام العامة هي التي يستعملها الفقيه في استنباط الأحكام الفرعية من أدلتها التفصيلية.

ولهذا قصروا عنايتهم على القول والفعل والتقرير ، وعرفوا السنة بأنها: "ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير".

3- السنة عند الفقهاء:

يعنى الفقيه بأمرين أساسيين : أولهما: بيان الحكم الشرعي الذي خاطب الله به المكلفين ، ومن هنا بحثوا في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا تخرج أقواله وأفعاله وتقريراته في مجال تبليغ الشريعة عن الدلالة على حكم شرعي من حيث الوجوب أو الندب أو الإباحة أو الكراهة أو التحريم . وهم بهذا المعنى يوافقون سائر العلماء في الاصطلاح العام للسنة من حيث هي مصدر للدين ، وهذا بيّن في كتب الفقه ، حيث نجدهم يقولون مثلا : هذه مسألة واجبة بالكتاب والسنة ، أو يقولون: دلت السنة على ندب هذا الأمر أو إباحته أو كراهته أو تحريمه.

وبالإضافة إلى دلالة صنيعهم في مصادر الفقه عند الاستدلال للأحكام فإننا نجد لهم تنصيصات بذلك في مواضع متعددة[16]. والسنة المرادة هنا هي شطر الوحي ومصدر الاستدلال على العقائد والأحكام.

ومن هنا ينبغي التنبيه إلى أن ما يرد في كثير من المصادر من نسبة تعريف الفقهاء للسنة بأنها النافلة أو ما يقابل الفريضة هو قول غير محرر وتعميم يحتاج إلى تفصيل وتحديد ، اعتُمد فيه نقل اللاحق عن السابق بلا بحث أو إعمال نظر ، والمفترض التنصيص على أن من عرف السنة من الفقهاء بأنها "ما دل عليه الشرع من غير افتراض

---

(16) انظر مثلا شرح المنهاج للسبكى 36/1 ، كشاف اصطلاحات الفنون 777/1 ، حاشية الرهاوى 587/1 .

ولا وجوب" إنما قصدوا اصطلاحا خاصا يميز بين الفرض والنفل ، ولم يقصدوا إلى تعريف السنة التي هي مصدر للدين ، فيجب التنبه إلى الموضع الذي تبحث فيه المسألة للتفريق بين الأمرين(17).

أما الجانب الثاني الذي يعنى به الفقيه فهو البحث عن حكم الشرع على أفعال العباد ، وأعظم ذلك ما كان متعلقاً بطلب الفعل وهو الوجوب والندب ، وهنا نجد أكثر الفقهاء قد عبروا بالسنة عما ندب إليه الشرع ورغب فيه ، للتمييز بينه وبين ما أوجبه ، فالسنة المرادة هنا هي أحد الأحكام التكليفية الخمسة ، وليس المراد بها السنة التي هي مصدر تلك الأحكام ، ويمكن الاستئناس لاستخدام السنة حكما شرعيا مقابل الفرض بنحو قوله صلى الله عليه وسلم "إن الله عز وجل فرض عليكم صيام رمضان وسننت لكم قيامه" (18)، ويؤيده فهم التابعي مكحول الشامي الذي قال: "السنة سنتان: سنة الأخذ بها فريضة وتركها كفر ، وسنة الأخذ بها فضيلة وتركها إلى غيرها حرج" (19)، ومن أشهر تعريفات السنة الواردة للفقهاء في هذا الباب أنها:

– " ما دل عليه الشرع من غير افتراض ولا وجوب" . وهذا التعريف استخدمه أكثر من مذهب.

– " ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه" . أو " ما يحمد فاعله ولا يذم تاركه" ، وهذا من تعريفات الحنابلة والمغاربة من المالكية.

– " الفعل المطلوب طلبا غير جازم" ، وهذا من تعريفات الشافعية ، والمشارقة من المالكية.

– " ما واظب النبي صلى الله عليه وسلم على فعله مع ترك ما بلا عذر" ، وهذا من تعريفات الحنفية.

4- السنة عند علماء العقيدة :

تطلق السنة عند علماء العقيدة على هدي النبي صلى الله عليه وسلم في أصول

(17) وانظر حجية السنة 59 ، 60.
(18) مسند الإمام أحمد 191/1 .
(19) سنن الدارمى 145/1 .

الدين ، وما كان عليه من العلم والعمل والهدي ، وما شرعه أو أقره مقابل البدع والمحدثات في الدين ، وما كان عليه الصدر الأول من المتابعة لذلك الهدي ، ومن هنا يقال: "فلان على سنة" إذا كان متبعا لهدي النبي صلى الله عليه وسلم في أصول الاعتقاد ومنهج الفهم والتلقي والعمل ، ويقال: "فلان على بدعة" ، إذا اعتقد أو عمل على خلاف ذلك ، ولذلك فعندما حدثت البدع وظهرت الأهواء والفرق بعد مقتل عثمان رضي الله عنه احتاط السلف للدين وميزوا بين المتسنن المقتدي وبين صاحب الهوى والبدعة المتردي ، قال محمد بن سيرين: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم"(20).

وهذا المعنى واضح في نحو قوله صلى الله عليه وسلم: "فمن رغب عن سنتي فليس مني"(21) ، وقوله : "إنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين عضوا عليها بالنواجذ"(22) ، وقوله: "وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة"(23) .

كما أن هذا المعنى بيّن في كلام السلف ، نحو قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة"(24) ، وقول محمد بن شهاب الزهري: "كان من مضي من علمائنا يقول: الاعتصام بالسنة نجاة"(25) ، وقول الفضيل ابن عياض : "أدركت خيار الناس كلهم أصحاب سنة ينهون عن أصحاب البدع(26) .

ولهذا فإن علماء القرن الثالث فما بعده قد ألّفوا كتبا عنونوا لها بمصطلح "السنة" وضمنوها مسائل العقيدة وأصول الدين والرد على المبتدعة ، منها :

– السنة للإمام أحمد بن حنبل

---

(20) مقدمة صحيح مسلم 151/1 .
(21) صحيح البخارى مع فتح البارى 104/9، رقم 5063 .
(22) راجع سنن أبي داود 200/4 ، وسنن الترمذى الحديث رقم 2678، ومسند أحمد 126/4 ، وهو صحيح الإسناد .
(23) صحيح البخارى مع الفتح 149/3 ، صحيح مسلم 592/2 .
(24) سنن الدارمى 72/1 .
(25) الزهد لابن المبارك 281/1 .
(26) الشرح والإبانة لابن بطة 135 .

- السنة لأبي بكر بن الأثرم
- السنة لابن أبي عاصم
- السنة لمحمد بن نصر المروزي
- السنة لأحمد بن محمد الخلال
- صريح السنة لأبي جعفر الطبري .

ومن إطلاقات السنة التي لها صلة بهذا المعنى أن يراد بها الدين كله ، وقد نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: "إن السنة هي الشريعة ، وهي ما شرعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من الدين"[27]، وقال الحسن البصري وسفيان الثوري في تفسير قوله تعالى: {ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها}[28]قالا: "على السنة"[29].

والمراد بالسنة في هذا المقرر هو اصطلاح المحدثين لشموله جميع ما أُثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية سواء كان ذلك قبل البعثة أم بعدها ، وسواء أثبت ذلك حكما شرعيا أو لم يثبت ، وذلك يمثل كل مادة السنة المطهرة المنقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم والتي عني المحدثون بخدمتها رواية ودراية وتصنيفا .

---

(27) مجموع الفتاوى 436/4 .

(28) الجاثية : (18) .

(29) شرح أصول اعتقاد أهل السنة 69/1 .

ثانيا : أقسام السنة

- **أقسام السنة من حيث الوحى بها :**
  - * **سنة هى وحى غير مقترن بلفظ دال عليه .**
  - * **سنة بمنـزلة الوحى**
- **أقسام السنة من حيث صدورها عن النبى صلى الله عليه وسلم :**
  - **القول**
  - **الفعل**
  - **التقرير**
  - **الصفة**
    - * **خَلْقية**
    - * **خُلُقية**

ما صدر عن النبى صلى الله عليه وسلم

* بقصد التبليغ عن الله عز وجل

1- وحى باللفظ : وهو القرآن .

2- وحى بالمعنى : وهو السنة .

* بغير قصد التبليغ

1- إما أن يوافقه عليه الوحى فيلحق بالقسم الثانى ويأخذ حكمه ويكون بمنزلة الوحى

2- وإما أن لا يقره عليه الوحى فنعمل بالبديل الموحى به

ثانيا : أقسام السنة[30] :

تنقسم السنة عند المحدثين باعتبارات متعددة ، منها ما كان بالنظر إلى الوحي بها ، ومنها ما كان بالنظر إلى صدورها من النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما يتعلق بطريقة دلالتها على الأحكام ، ومنها ما كان بالنظر إلى القبول والرد ، ومنها ما يتعلق بعدد الطرق التي يرد بها الحديث .

وسيفرد هذا المبحث للكلام على القسمين الأولين ، أما القسم الثالث فموضع بحثه عند الكلام على منزلة السنة من القرآن الكريم ، وأما القسمان الرابع والخامس فهما من مباحث مادة مصطلح الحديث .

1- أقسام السنة من حيث الوحي بها :

تنقسم السنة بهذا الاعتبار إلى قسمين مؤداهما واحد ، وهو أن السنة وحي من الله تعالى ، يجب اتباعها كما يجب اتباع القرآن ، ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في دين الإسلام ، وهذه مسألة غفل عنها كثير من المسلمين اليوم بينما كانت لدى المتقدمين من المسلَّمات كما سيأتي النقل عنهم بعد الاستدلال للمسألة من القرآن والسنة ، حيث قرر أهل العلم أن ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم إما أن يكون بقصد تبليغ الأحكام عن الله تعالى أو يكون غير قاصد به التبليغ عن الله تعالى.

أما ما قصد به التبليغ عن الله فهو وحي قطعا معصوم عن الخطأ والسهو فيه ، وهو نوعان:

– إما أن يكون قد أوحي إليه مصحوبا بلفظ معجز دال عليه ، فذلك هو القرآن الكريم .

---

(30) راجع : حجية السنة 334 ، قواعد التحديث للقاسمى 33 ، 255 ، نهاية السول للأسنوى 357/4 ، أصول السرخسى 59/2 ، أصول البزدوى 135 ، السنة المفترى عليها 21-26 ، السنة مفتاح الجنة 31 ، مفتاح الجنة للسيوطى 8 ، 16 ، معارج الوصول لابن تيمية 22 ، الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم 88/1 ، 97 ، 109 ، 124 ، الرسالة للإمام الشافعى 52 ، منزلة السنة فى التشريع ، د. محمد الجامى 11 ، دراسات فى السنة 22 ، 36 ، معالم السنة النبوية 19 ، 23 ، الحديث والمحدثون 11 .

– وإما أن يكون قد أوحي إليه غير مصحوب بلفظ دال عليه فتلك هي السنة ، وهي القسم الأول من السنة باعتبار الوحي بها ، أما القسم الثاني من السنة فهو ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم بغير قصد التبليغ عن الله تعالى وهو بمنزلة الـوحي بعـد إقراره من الله تعالى ، كما سيأتي بيانه.

أ- القسم الأول من السنة بهذا الاعتبار:

سنة هي وحي من الله تعالى غير مقترن بلفظ دال عليه ، لأن الوحي المقترن بلفظ دال عليه هو القرآن الكريم ، وهذا القسم هو معظم السنة ، وهو الذي صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم بقصد تبليغ الدين عن ربه عز وجل ، وقد نزل به الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم كما نزل القرآن ، إلا أن القرآن نزل بلفظ معجز متعبد بتلاوته ، وأما السنة فهي وحي بالمعنى دون اللفظ . والأدلة على أن السنة وحي كالقرآن الكريم كثيرة ، منها:

* الأدلة من القرآن الكريم :

– قال تعالى: {وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى}(31) وقد نص أهـل العلم على أن ذلك يشمل السنة أيضا.(32)

– وقوله: {إن أتبع إلا ما يوحى إلي}(33) أي قرآنا وسنة .

– وقوله : {لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه ثم إن علينا بيانه}(34)وبيان القرآن هو السنة ، وهو من عند الله تعالى .

وقوله تعالى : {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما}(35)، قال الإمام الشافعي: "سمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم"(36) وبه قال الحسن

(31) النجم : (3-4) .
(32) انظر مثلا : كليات أبي البقاء 288 ، قواعد التحديث للقاسمي 59 .
(33) يونس : (15) .
(34) القيامة : (16-19) .
(35) النساء : (113) .
(36) الرسالة 78 .

وقتادة ومقاتل وغيرهم من التابعين ، وهو قول عامة المفسرين مثل الطبري وابن كثير والشوكاني ، وعزاه ابن تيمية إلى السلف[37].

– وقوله تعالى : {من يطع الرسول فقد أطاع الله} [38] ، فقد قرر أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هي طاعة لله ، وما ذلك إلا لأن سنته وحي من الله.

* الأدلة من السنة :

وردت أحاديث كثيرة تؤكد هذا المعنى من أن السنة وحي من الله تعالى ، من ذلك:

– قوله صلى الله عليه وسلم : ((ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني ، وهو متكيء على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدناه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله))[39] ، وفي رواية: " ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ..."[40] ، وفي رواية: " لا أعرفن الرجل منكم يأتيه الأمر: إما أمرت به أو نهيت عنه ، وهو متكيء على أريكته فيقول: ما ندري ما هذا؟ عندنا كتاب الله وليس هذا فيه .."[41]. فالنبي صلى الله عليه وسلم يحذر من ذلك ويتبرأ من فاعله .

– حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أريد حفظه فنهتني قريش ، وقالوا : تكتب كل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب

(37) انظر : تفسير الطبرى 86/3 ، تفسير ابن كثير 184/1 ، فتح القدير 124/1 ، معارج الوصول لابن تيمية 22 .
(38) النساء : (80) .
(39) سنن الترمذى ، كتاب العلم ، 38/5 .
(40) سنن أبي داود ، باب لزوم السنة 11/5 .
(41) سنن أبي داود ، 12/5، سنن الترمذى 38/5 ،مسند أحمد 8/6 ، مستدرك الحاكم 108/1.

والرضا ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأومأ بأصبعه إلى فمه وقال: "اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا الحق"(42).

– قوله صلى الله عليه وسلم : ((ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه))(43) ، قال الإمام الخطابي في معالم السنن : وهذا يحتمل وجهين :

أحدهما : أن معناه أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أعطي من الظاهر المتلو . والثاني : أنه أوتي الكتاب وحيا يتلى وأوتي من البيان مثله".

– قوله صلى الله عليه وسلم: " فرض الله على أمتى ليلة الإسراء خمسين صلاة فلم أزل أراجعه حتى جعلها خمسا "(44).

– انتظاره صلى الله عليه وسلم الوحي في كثير مما يسأل عنه فينزل عليه وحي ليس بقرآن وهو السنة ، ومنه : قوله صلى الله عليه وسلم : " أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا ، قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: بركات الأرض ، قالوا: يا رسول الله وهل يأتي الخير بالشر؟ قال الراوي: فصمت حتى ظننت أنه سينزل عليه ، ثم جعل يمسح عن جبينه ، وقال: أين السائل؟ قال: أنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الخير لا يأتي إلا بالخير))(45).

– ومنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بالجعرانة(46) ومعه نفر من أصحابه فسأله رجل : كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو متضمخ بطيب؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ساعته ، فجاءه الوحي ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم محمرّ الوجه وهو يغط ، ثم سُرّي عنه ، فقال: أين الذي يسأل عن العمرة؟ فأتي بالرجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اغسل الطيب الذي بك ثلاث مرات ، وانزع عنك الجبة ، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجك"(47).

---

(42) سنن الدارمى 125/1 .
(43) سنن أبي داود 11/5 ، سنن الدارمى 140/1 ، مسند أحمد 131/4 .
(44) البخارى مع الفتح 4/2/ح 349 .
(45) البخارى مع الفتح 21/13 ح 6427 .
(46) موضع قريب من مكة .
(47) البخارى مع الفتح 4/ 171 ح 1536 .

– ورود التصريح بالوحي في أحاديث كثيرة ، منها :

* قوله صلى الله عليه وسلم : ((إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد))[48].

* قوله صلى الله عليه وسلم : ((أوحي إليّ أنكم تفتنون في قبوركم))[49].

* قوله صلى الله عليه وسلم : ((إن روح القدس نفث في روعي أن لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، خذوا ما حل ودعوا ما حرم))[50].

* نزول جبريل عليه السلام في صورة بشر معلما بالوحي ، كما في حديث الإيمان والإسلام والإحسان ، وفي آخره: ((فإنه جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم))[51].

* تنصيص السلف على أن السنة وحي من الله تعالى :

لقد تعددت النقول عن السلف بهذا المعنى ، ومن ذلك :

–كتاب أبي بكر إلى أنس رضي الله عنه عندما كان عاملا على البحرين ، وفيه : "هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي أمر الله بها رسوله"[52].

– وقال عمر رضي الله عنه: " يا أيها الناس ، إن الرأي إنما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيبا لأن الله تعالى كان يريه"[53].

– وقال التابعي حسان بن عطية: "كان جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن"[54].

– واشتكى بعض تلاميذ عبد الله بن المبارك إليه جهود الزنادقة في وضع الحديث

---

(48) صحيح مسلم رقم 2865 .
(49) صحيح البخارى مع الفتح 13/ 251 .
(50) أخرجه البغوى فى شرح السنة 305/14 ح 4112 .
(51) البخارى مع الفتح 157/1 ح 50 .
(52) البخارى مع الفتح 74/4 ح 1454 .
(53) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى 117/10 .
(54) انظر مجموعة الفتاوى 3/ 366 ، الشرح والإبانة 128 .

فقال له عبد الله : "يعيش لها الجهابذة" ، ثم قرأ : {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} [55] ، فالذكر هنا يشمل القرآن والسنة ، وقد تكفل الله بحفظهما على السواء ، كما هو واضح من إجابة ابن المبارك واستدلاله .

-وقال الإمام ابن حزم: " القرآن والخبر الصحيح بعضها مضاف إلى بعض ، وهما شيء واحد في أنهما من عند الله".

- وقال : " إن الوحي ينقسم من الله عز وجل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم إلى قسمين : أحدهما وحي متلو مؤلف تأليفا معجز النظام وهو القرآن ، والثاني وحي مروي منقول غير مؤلف ولا معجز النظام ولا متلو ، لكنه مقروء ، وهو الخبر الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم" . وقال في قوله تعالى: {قل إنما أنذركم بالوحي} : " فأخبر تعالى -كما قدمنا- أن كلام نبيه صلى الله عليه وسلم كله وحي" . وقال: " فصح أن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كله في الدين وحي من عند الله عز وجل ، لا شك في ذلك ولا خلاف بين أحد من أهل اللغة والشريعة في أن كل وحي نزل من عند الله تعالى فهو ذكر منزل ، فالوحي كله محفوظ بحفظ الله له بيقين ، وكل ما تكفل الله بحفظه فمضمون أن لا يضيع منه وأن لا يحرف منه شيء أبدا تحريفا لا يأتي البيان ببطلانه"[56].

- وقال أبو البقاء : " والحاصل أن القرآن والحديث يتحدان في كونهما وحيا منزلا من عند الله"[57].

- وقال الإمام البيهقي : " ما أوحي إليه صلى الله عليه وسلم نوعان: أحدهما وحي يتلى ، والآخر وحي لا يتلى"[58].

- وقال الشيخ الزرقاني : " إن الكتاب والسنة كلاهما وحي من الله نزل به الروح القدس"[59].

---

(55) الحجر : (9) .

(56) انظر هذه النقول عن ابن حزم في الإحكام في أصول الأحكام 88/1 ، 90 ، 96 ، 97 ، 109 ، 124 .

(57) كليات أبي البقاء 288 .

(58) انظر مفتاح الجنة 16 ، 17 .

(59) مناهل العرفان 239/2 .

بهذه الأدلة الكافية الوافية الشافية من الكتاب والسنة وفهم الصحابة وسائر السلف وأقوال أهل العلم يتبين بما لا يدع مجالا للالتباس أن السنة النبوية المطهرة وحي من الله عز وجل ، وأنها شقيقة القرآن ومثيلته في الحجية والاعتبار ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس إلا مبلغا عن ربه عز وجل فيما شرعه لعباده من الدين القويم ، وأن الله تعالى تعبدنا باتباع السنة كما تعبدنا باتباع القرآن ، عرف ذلك من شرح الله صدره للحق فآمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، وأنكر ذلك أهل الشبهات والشهوات الذين لا حظ لهم في دين الإسلام ، إذ أجمع أهل العلم على ردة من أنكر حجية السنة.ومن أعظم مهام طلبة العلم أن يبينوا هذه الحقيقة العظمى للمسلمين خاصة وللناس عامة حتى يسعدوا بنعمة الإسلام العظمى عقيدة وشريعة ومنهج حياة .

ب-القسم الثاني من السنة بهذا الاعتبار:

وهو ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم بغير قصد التبليغ ، ومن ذلك اجتهاده صلى الله عليه وسلم وما صدر عنه ابتداء من غير سابق وحي ، وهذا القسم على نوعين :

1- النوع الأول : أن يوافقه عليه الوحي ويقره عليه فيصبح حينئذ بمنزلة الوحي وفي حكمه من حيث الحجية والاعتبار ووجوب العمل به ، وتعرف الموافقة والإقرار له بعدم التعقيب عليه بالمخالفة وعدم الإنكار عليه وعدم نزول حكم يناقضه ، لأن الوحي لا يتركه بلا تعقيب إذا كان ما صدر عنه خلاف مراد الله ، وقد علمنا ذلك بتعقيبه عليه فيما صار فيه إلى خلاف الأولى كما سيأتي في النوع الثاني ، كما علمناه بيقيننا أنه لا يقر على ما لم يرضه الله دينا لعباده ، قال تعالى: {ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين}[60].

فهذا التقرير المصاحب لهذا النوع الأول يدلنا على صحته وحقيقته ومطابقته لمراد الله ، بل لم يقتصر الأمر على هذا التقرير فحسب ، فإن الله تعالى قد أمرنا باتباعه في جميع مايصدر عنه وما يهدي إليه وأنه القدوة المطلقة والمثل الأعلى والهادي المسدد

(60) الحاقة : (44 – 47) .

بالوحي . قال الإمام الشافعي : "وما لم يكن فيه وحي فقد فرض الله في الوحي اتباع سنته صلى الله عليه وسلم فمن قبل عنه فإنما قبل بفرض الله ، قال الله تعالى: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}[61]. واحتج عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بالآية نفسها ، وقال : "إن من قبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكتاب الله قبل ، فإن حكمه في وجوب اتباعه حكم ما ورد به الكتاب"[62]. وخلاصة الأمر في هذا النوع أن له منزلة الوحي وحكمه لإقرار الوحي له ، فيجب العمل به والتزامه ، ولن يتخلى الوحي أبدا عن تسديد الرسول صلى الله عليه سلم .

2- النوع الثاني من هذا القسم : أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد صار في اجتهاده أو ما صدر عنه ابتداء إلى خلاف الأولى فيرشده المولى وينبهه إلى الأولى ويأمره باتباعه ، وحينئذ يجب العمل بالبديل الموحي به وترك خلاف الأولى ، فيكون الاحتجاج في هذه الحال بعدم التقرير عليه وبالتنبيه الذي جاء عقبه ، والأمثلة على ذلك قليلة منها :

- اجتهاده صلى الله عليه وسلم في قبول الفداء من أسرى بدر بعد استشارته لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأنزل الله تعالى: {وما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم}[63].

- صلاته صلى الله عليه وسلم على المنافق عبد الله بن أبي سلول إكراما لابنه عبد الله بن عبد الله الذي أبلى في الإسلام بلاء حسنا ودرءا للفتنة وتأليفا لأتباعه على الإيمان فأنزل الله تعالى : {ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون}[64].

- إعراضه صلى الله عليه وسلم عن ابن أم مكتوم الصحابي الضرير الذي

---

(61) الحشر : (7) .

(62) مفتاح الجنة للسيوطى 19 .

(63) الأنفال : (67 ، 68) ، سنن الترمذى 185/4 - 186 ح1714 .

(64) التوبة : (84) .

جاءه وهو مشغول بعرض الإسلام على زعماء قريش راجيا إيمانهم ، فأنزل الله تعـالى : {عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعـه الـذكرى أمـا من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى} (65).

بهذا المبحث يتبين لك أن جميع ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من السنة بقصد التبليغ عن ربه عز وجل هو وحي من عند الله تعالى ، وأن ما صدر عنه بغير قصد التبليغ عن الله وأقره الوحي عليه كان بمنزلة الوحي وله حكمه ، وجميع ذلـك حجـة على العباد يلزمهم العمل بمقتضاه ، أما ما لم يقره الوحي عليه فإن الاحتجـاج يكـون بالتنبيه الذي جاء به الوحي عقبه فتوجب العمل بالجميع لأن الوحي لا يتخلى عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يتركه بلا تسديد.

2- أقسام السنة من حيث صدورها عن النبي صلى الله عليه سلم :

تنقسم السنة بهذا الاعتبار إلى أربعة أنواع: قولية ، وفعلية ، وتقريرية ، ووصفية ، وذلك على النحو التالي :

أ- السنة القولية :

وهي كل كلام صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من لفظه ، مثـل حـديث: ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى)) ، وحديث : ((من أحدث في أمرنـا هذا ما ليس منه فهو رد)) ، وحديث : ((الدين النصيحة)) وحديث : ((بني الإسـلام على خمس)) (66).

ومن السنة القولية الحديث القدسي ، وهو ما أسنده الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ربه عز وجل ، وموضع الكلام عليه وعلى الفروق بينه وبين القرآن الكريم والحديث في مادة مصطلح الحديث (67) ، ومثاله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله

(65) سورة عبس 1–12 ، والحديث أخرجه الترمذى والحاكم وابن حبان .

(66) البخارى مع الفتح 15/1 ح1 –ب– 640/5 ح 2697 –ج– 71/1 ح8 .

(67) لمزيد من الفائدة راجع : السنة مفتاح الجنة 39 ، السنة قبل التدوين 22 ، منهج النقد فى علوم الحديث 323 قواعد التحديث 66 .

تبارك وتعالى : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معي غـــيري تركته وشركه" [68] .

ب- السنة الفعلية :

وهي تشمل جميع ما نقل إلينا من أفعال النبي صلى الله عليـــه وســـلم في كـــل أحواله ، ومن أمثلة ذلك [69] :

– حديث عائشة رضي الله عنها في تطوع النبي صلى الله عليه وسلم بالصيام: " كان يصوم حتى نقول لا يفطر ، ويفطر حتى نقول لا يصوم".

– حديث حذيفة رضي الله عنه: " كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام مـــن الليل يشوص فاه بالسواك".

– حديث ابن عمر رضي الله عنهما: " كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين المغرب والعشاء إذا جدّ به السير" .

وقد أمرنا الله عز وجل بالاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم واتباعـــه في جميـــع أحواله: في الســـلم والحـــرب ، والســـفر والإقامـــة ، وفي معاملـــة الأزواج والأولاد والأصحاب وفي الرحمة بالضعيف ، وفي العـــدل في الحكـــم ، وفي الشـــورى ، وفي رد الحقوق لأصحابها ، وفي موالاة المؤمنين والبراء من الكافرين ، والرغبة في هداية الآخرين وحب الخير لهم ، وبذل المعروف وكف الأذى ، وكفالة اليتيم وسد حاجـــة الأرمـــل ، وغير ذلك من خصاله الكريمة وأفعاله السامية النبيلة ، قال تعالى:{ لقد كـــان لكـــم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً} [70] ، وقـــال تعالى : {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم} [71]. وقد أدى النبي صلى الله عليه وسلم الشعائر الإسلامية ، وأمرنا أن نلتزم هديه ونحـــذو حـــذوه ، فقال في شأن الصلاة : " صلوا كما رأيتموني أصلي" [72] ، وقال في شأن الحج: " خذوا

---

(68) صحيح مسلم 2289/4 ح46 .
(69) البخاري مع الفتح 734/4 ح1972 ، 473/1 ح245 ، 291/3 ح1106 .
(70) الأحزاب : (21) .
(71) آل عمران : (31) .
(72) البخاري مع الفتح 321/2 ح 631 .

عني مناسككم" (73) ، ومن السنن الفعلية التي يغفل عنها كثير من الناس عمل القلب من محبة الله وأوليائه ، وخشية الله ، ورجاء ثوابه ، وترك الكبر والجبن والشح والهلع....

جـ السنة التقريرية :

وهي أن يحدث أمر أو يقال قول في زمن النبي صلى الله عليه وسلم في حضرته ومشاهدته أو في غيبته ثم ينقل إليه فيقره النبي صلى الله عليه وسلم إما بالسكوت وعدم الإنكار أو بالموافقة والاستحسان ، ومن ذلك:

– حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه سلم لنا لما رجع من الأحزاب : " لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة ، فأدرك بعضهم العصر في الطريق ، فقال بعضهم : " لا نصلي حتى نأتيها" ، وقال بعضهم: " بل نصلي ، لم يرد منا ذلك" ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يعنف واحدا منهم"(74).

– حديث أنس رضي الله عنه: "كان يلبي الملبي لا ينكر عليه ، ويكبر المكبر فلا ينكر عليه"(75).

– حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه خرج رجلان في سفر وليس معهما ماء فحضرت الصلاة فتيمما صعيدا طيبا ، فصليا ثم وجدا الماء في الوقت ، فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ولم يعد الآخر ، ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له ، فقال للذي لم يعد : " أصبت السنة" ، وقال للآخر: " لك الأجر مرتين"(76).

د- السنة الوصفية :

وهي نوعان :

* الصفات الخُلُقيّة : وهي ما جبله الله عليه من الأخلاق الحميدة ومافطره عليه من الشمائل العالية المجيدة وما حباه به من الشيم النبيلة ، ومن ذلك :

– حديث ابن عباس رضي الله عنهما : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(73) صحيح مسلم 943/2 ح310 .
(74) البخارى مع الفتح 109/3 ح946 .
(75) البخارى مع الفتح 140/3 ح970 .
(76) سنن أبي داود 241/1 .

أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة"(77).

– حديث عائشة في وصف أخلاقه صلى الله عليه سلم حيث قالت: " كان خُلُقه القرآن".

– حديث أنس رضي الله عنه قال: " خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط ، ولا لشيء صنعته: لم صنعته؟ ولا لشيء تركته لم تركته؟"(78).

* الصفات الخَلقية : وهي تشمل هيأته التي خلقه الله عليها وأوصافه الجسمية ، من ذلك:

– حديث " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير"(79).

– حديث أم معبد بعد أن مر عليها النبي صلى الله عليه وسلم في طريق هجرته المباركة ، فوصفته لزوجها قائلة : " رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، حسن الخلق ، مليح الوجه ، قسيم وسيم ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء"(80).

بهذا تكون قد تعرفت على أقسام السنة من حيث صدورها عن النبي صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا وتقريرا وصفة ، وهي محفوظة مدونة في أمهات كتب السنة ومصادر السيرة النبوية الشريفة .

(77) البخارى مع الفتح 610/4 ح 1902 .
(78) البخارى مع الفتح 52/6 ح 2768 .
(79) البخارى مع الفتح 258/7 ح 3548 .
(80) انظر الروض الأنف للسهيلى 8/2 .

المراجع المساعدة

1- أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائى 71/1 .

2- الشرح والإبانة لابن بطة 120 .

3- الموافقات للشاطبى 3/4 .

4- البدع لابن وضاح 38 .

5- جامع العلوم والحكم لابن رجب 23 .

6- إرشاد الفحول للشوكانى 312 .

7- الحديث والمحدثون لأبى زهو 9 .

8- دراسات فى السنة النبوية لصديق عبد العظيم 21

9- الحديث النبوى للصباغ 120 .

10- معالم السنة النبوية للعتر 17-27 .

11- دلائل التوثيق المبكر للسنة ، امتيــاز أحمــد 13

12- حجية السنة 51 .

13- مفهوم أهل السنة والجماعة للعقــل 13-47

أسئلة التقويم الذاتي

1- عرف السنة لغة وفي اصطلاحات علماء الحديث والفقه والأصول والعقيدة .

2- اربط بين المعاني اللغوية والمعاني الاصطلاحية للسنة .

3- هل تكون السنة في لغة العرب محمودة دائما؟ بين ذلك مع الاستدلال

4- اذكر معنى لغويا للسنة لا يوجد في كتابك المقرر.

5- وضح المعنى الاصطلاحي العام للسنة

6- اربط بين تعريف الفقهاء للسنة اصطلاحا وبين موافقتهم لسائر أهل العلم في المعنى العام

7- اذكر بعض المصنفات التي تحمل عنوان "السنة" ومحتواها في العقيدة

8- قد يراد بالسنة الدين كله ، بين ذلك

9- ماهي الاعتبارات التي قسم المحدثون السنة استنادا إليها؟

10- دلّل على أن السنة وحي ، وكيف تجمع بين هذا وبين اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم؟

11- كيف نعرف إقرار الله تعالى لما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم ابتــداء بحيــث يــدخل في حكــم الموحى به

12- ورد التصريح بالوحي في أحاديث كثيرة ، اذكر ثلاثة منها

13- ماهي أقسام ماصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم بغير قصد التبليغ عن الله ، وماحكم كل قسم؟

14- ماهي أقسام السنة من حيث صدورها عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مع التمثيل

15- اكتب ثلاث صفحات بتعبيرك تضمنها عصارة ما خرجت به من هذا المبحث.

المبحث الثانى : السنة فى العهد النبوى

- مدخل
- 1- شخصية النبى صلى الله عليه وسلم
- 2- مادة السنة
- 3- منهج الصحابة فى تلقى السنة
- 4- عوامل انتشار السنة فى العهد النبوى

المبحث الثانى
السنة في العهد النبوي

الأهداف الخاصة

1- معرفة أركان مدرسة الإسلام في عهد النبوة .

2- إدراك أبعاد شخصية النبي صلى الله عليه وسلم من حيث التربية والتعليم .

3- التعرف على أساسيات منهج النبي صلى الله عليه وسلم في نشر سنته .

4- معرفة المضمون العام لمادة السنة المطهرة وأثره في إقبال الصحابة عليها .

5- إدراك عظم محبة الصحابة للسنة ومنهجهم في تلقيها عن النبي صلى الله عليه وسلم .

6- معرفة أهم العوامل التي أدت إلى انتشار السنة في العهد النبوي .

7- تركيز هذه المعلومات بحفظ أدلتها ، وتعميقها بالاطلاع على ما يتيسر من المراجع المساعدة .

8- الاستفادة من المنهج النبوي في التعليم ونشر السنة .

المبحث الثاني [81]
السنة في العهد النبوي

مدخل :

لم يكن للدين عقيدة وشريعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من مصدر سوى القرآن والسنة ، ففي كتاب الله تعالى الأصول العامة والأحكام الأساسية ، وفي السنة ما يؤكد تلك الأصول ويبينها بالإضافة إلى ما استقلت السنة به من التشريع مضافا إلى الكتاب العزيز ، ولا عجب في ذلك فهما من مصدر واحد هو الوحي ، وقد اقتضت حكمة الله أن يفرق بين الوحي المتعبد بتلاوته واعتقاد ما جاء فيه والعمل به ، وبين الوحي غير المتعبد بتلاوته مع وجوب اعتقاد ما جاء فيه والعمل به ، والأول هو القرآن ، والثاني هو السنة.

وقد قبل الصحابة الكرام جميع ذلك على السواء وتنافسوا في حفظه وفهمه والتزامه والدعوة إليه والصبر على تبعاته.

وإذا تأملنا تلك الحقبة الزمنية الفريدة ، وهي حياة النبي صلى الله عليه وسلم حين كان الوحي يوجه حياة المسلمين توجيها مباشرا ويتدرج معهم في التشريع ألفينا أنفسنا أمام مدرسة هائلة ، المعلم فيها هو محمد صلى الله عليه وسلم المسدَّدُ بالوحي ، ومادتها الوحي من الكتاب والسنة ، وطلابها الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، وسنلقي الضوء على أركان المدرسة: المعلم ، والمادة العلمية ، والطلاب ثم نختم بالحديث على عوامل انتشار السنة في ذلك العهد الشريف .

(81) راجع : الحديث والمحدثون لأبى زهو 46-62 ، السنة قبل التدوين للخطيب 29-74 ، السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى للسباعى 49-61 معالم السنة النبوية 38-46 ، السنة للسلفى 165 ، دراسات فى السنة النبوية الشريفة 61-98 .

أولا- شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم :

1- الأنموذج الأعلى في التربية والتعليم :

إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد علمه ربه عز وجل فأحسن تعليمه ، وأدبه فأحسن تأديبه ، وأعده إعداد كاملاً لحمل الرسالة وتبليغها ، وحباه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ونبيل الخصال وطيب المعشر ما هيأه ليكون الأنموذج البشري الأعلى في التربية والتعليم ، وجعله قدوتنا الحسنى حيث قال : {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا}(82) وشهد له بالسمو الخلقي فقال : {وإنك لعلى خلق عظيم}(83) ، وكان صلى الله عليه وسلم يعلم بالرفق واللين ويبتعد عن الشدة والتعنيف ، ويقول: "ما دخل الرفق في شيء إلا زانه ولانزع عنه إلا شانه"(84) ويقول: "من يحرم الرفق يحرم الخير"(85) ، ويقول: "إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله"(86) .

كما كان يعلم بالتيسير والتبشير ويتجنب التنفير والتعسير ويقول: "بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا"(87) وعلمه ربه عز وجل أن الشدة والغلظة والفظاظة لا تأتي بخير ، وأن الرحمة والعفو ولين الجانب هو المنهج الصحيح في التعليم والتربية ، قال تعالى : {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر}(88) .

وكان صلى الله عليه وسلم يقدم الصفح والعفو مستجيبا لأمر الله تعالى :

---

(82) الأحزاب : (21) .
(83) القلم : (4) .
(84) صحيح مسلم 2004/4 ح78 .
(85) صحيح مسلم 2003/4 ح77 .
(86) البخارى مع الفتح 464/12 ح6024 .
(87) البخارى مع الفتح 220/1 ح69 .
(88) آل عمران : (159) .

{وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل}(89)، {فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره}(90).

وكان يؤثر الحسنى فتزداد محبة المحب وتنقلب عداوة العدو إلى ولاء ومودة {ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم} (91).

بهذا المنهج السامي علم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ورباهم فازدادت محبتهم له وحرصهم على تلقي سنته والعمل بها وفدوه بأرواحهم وأولادهم وجميع ما يملكون ، فكان بحق الرحمة المهداة والمعلم الرحيم والمربي الودود والمرشد الصادق الأمين إلى صراط الله المستقيم ، وكان الصحابة جيلا فريدا ومفخرة للبشرية إلى قيام الساعة.

2- تجاوبه الكامل مع دعوته صلى الله عليه وسلم:

كان صلى الله عليه وسلم يعيش لدعوته ومعها لا يشغله شاغل غيرها ، ينام ويصحو عليها ويقضي كل وقته في خدمتها ، مندفعا بكل قلبه ومسخراً جميع قواه الذهنية والبدنية من أجل تبليغ رسالة ربه ، متحملا كل صروف الأذى وأنواع المعاناة بكل صبر وشموخ وعزة من أجل تدعيم أركان الإسلام لا يصده عن ذلك شيء ، داعيا لقومه بالهداية ، متمنيا دخول جميعهم في دين الله ونجاتهم من النار ، ويشتد أمر عدم استجابتهم عليه فيسليه ربه عز وجل ويخفف عنه بقوله تعالى : {فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا} (92)، وقوله: "إنك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء" (93).

ولما جاء نصر الله والفتح وأرسى الله دعائم الإسلام وقامت دولته كان النبي صلى الله عليه وسلم هو الرئيس الأمين ، والقائد الشجاع الرحيم ، والفقيه المعلم ، والمربي الناصح والمفتي الصادق ، والمخطط الواعي ، والزاهد الورع ، يمارس كل ذلك

---

(89) الحجر : (85) .
(90) البقرة : (109) .
(91) فصلت : (34) .
(92) الكهف : (6) .
(93) القصص : (56) .

بروح عالية ونفس صافية وحماسة صادقة.

فكان لهذا التجاوب الكبير مع دعوته والتضحية في سبيلها أبلغ الأثر في نفوس أصحابه وإقبالهم على كل جليل ودقيق من أمره متعلمين مقتدين ومهتدين ، وشاركوه في حمل الأمانة ، ونقلوا إلينا جميع ما صدر عنه بإخلاص وتحر ودقة.

3- حضه صلى الله عليه وسلم على طلب العلم:

إن التعلم هو الطريق إلى معرفة العقيدة الصحيحة وصفة العبادة الشرعية والتفقه في دين الله ، وهو سبب النجاة وسبيل الهداية ، ولهذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر به وحض عليه قولا وعملاً وتصريحا وتلميحا ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:"طلب العلم فريضة على كل مسلم" (94) ، وقوله: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين" (95).

وأرشد إلى أن العلم من مجالات التنافس المعتبرة لدى الشارع فقال: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق وآخر آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها"(96).

ونبه إلى ضرورة الانتفاع بالعلم والاستقامة عليه ، فكان كثيراً ما يدعو ويعلم ذلك أصحابه فيقول: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع" (97).

وبين النبي صلى الله عليه وسلم أن العلم أحد أسباب استمرار أجر ابن آدم بعد موته ، فقال: " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء: من صدقة جارية أو علم ينتفع به بعده أو ولد صالح يدعو له" (98).

وقد استجاب الصحابة الكرام لهذه التوجيهات النبوية ، وتسابقوا في طلب العلم وحفظ السنة والعمل بها.

4- بيانه صلى الله عليه وسلم لمنزلة المعلمين والمتعلمين:

(94) أخرجه ابن ماجه 80/1 ح 244 .
(95) البخارى مع الفتح 221/1 ح 71 .
(96) البخارى مع الفتح 223/1 ح 73 .
(97) سنن ابن ماجه 92/1 ح 250 .
(98) أخرجه أحمد فى المسند 372/2 .

دل الكتاب والسنة على عظيم فضل العالم والمتعلم وما لهما من الأجر والمكانة العالية ، قال تعالى : {إنما يخشى اللّهَ من عباده العلماءُ}(99) ، وقال : {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط}(100)، وقال : {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب}(101) ، وقال صلى الله عليه وسلم : " العلماء ورثة الأنبياء"(102) ، وكفاهم بذلك فضلا ، وأمر بتقدير أهل العلم ومعرفة حقوقهم ومنزلتهم فقال : "ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه"(103).

وأبلغ النبي صلى الله عليه وسلم في بيان منزلة طالب العلم ، ذلك أن العلم يحيي الله به القلوب كما يحيي النبات بالماء ، والعلم لا يقاس بشيء نفاسة إذ به تحصل الهداية والنجاة في الدنيا والآخرة ، والعلم يحرسك ويحميك بإذن الله ، أما ما سواه من أمور فأنت تقوم عليه وتحرسه ، وقد اشتملت السنة على ثروة هائلة في هذا الباب نقتبس منها ما يلي :

– قال صلى الله عليه وسلم : " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله عز وجل فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه" (104).

– وقال : "من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان بمنزلة المجاهد في سبيل الله" (105).

– وقال : " مرحبا بطالب العلم ، إن طالب العلم لتحفه الملائكة بأجنحتها ثم

---

(99) فاطر : (28) .
(100) آل عمران : (18) .
(101) الزمر : (9) .
(102) سنن أبي داود 57/4 – 58 ح 3641 .
(103) رواه الطبراني فى الكبير 196/8 ح7703 .
(104) رواه مسلم 2074/4 ح38 .
(105) رواه الحاكم 91/1 كتاب العلم وقال الذهبي على شرطهما .

يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب "(106).

5- وصية النبي صلى الله عليه وسلم بطالب العلم :

أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بطالب العلم خيرا ، وأمر بمساعدته على ما هو بصدده من الرغبة في التفقه في الدين ، فعن أبي هارون العبدي قال: كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدري قال : مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلنا: وما وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنه سيأتي بعدي قوم يسألونكم الحديث عني فإذا جاءوكم فألطفوا بهم وحدثوهم " ، وفي رواية: " أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نوسع لكم في المجلس وأن نفقهكم فإنكم خلوفنا وأهل الحديث بعدنا"(107) .

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم أن يرحبوا بطلاب العلم فيقول: " سيأتيكم أقوام يطلبون العلم فإذا رأيتموهم فقولوا لهم مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفتوهم " ، وفي رواية " وإنهم سيأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا جاءوكم فاستوصوا بهم خيرا "(108).

بهذا ندرك طرفا من منزلة العلم وأهله وطلابه في دين الله فمن أخذ بذلك أخذ بحظ وافر ، وكان مقتديا مهتديا وترك أثراً طيبا حيث حل ، وعَبَدَ الله على علم ولم تحيّره الفتن المدلهمة ، ونال جزيل المثوبة في الآخرة.

6- منهجه صلى الله عليه وسلم في نشر سنته :

لقد سلك النبي صلى الله عليه وسلم أبلغ الطرق وأنجح الوسائل وأنجع الأساليب في تعليم الصحابة بما حباه الله تعالى من الأدب الجم والشمائل العالية والعلم الغزير والأسلوب التربوي المتميز ، فكان لمنهجه الفذ أبلغ الأثر في إقبال الصحابة على سنته وحفظها والعمل بها ونشرها وحمايتها ، ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي :

أ- اتخاذ مقر للدعوة والتعليم :

---

(106) رواه الطبراني 64/8 ح 7347 ورجاله رجال الصحيح .
(107) رواه الخطيب في شرف أصحاب الحديث ص 22 ح 35 ، ص20 ح 33 .
(108) سنن ابن ماجه 55/1 ، 56 .

إن الموقع الذي يجتمع فيه المعلم بالطلاب في غاية الأهمية لحسن سير العملية التعليمية ، ولهذا فقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم منذ فجر الدعوة مقرا يجتمع فيه بالصحابة الكرام ، ويعلمهم أسس العقيدة ، ويحفّظهم ما يتنزل عليه من الوحي قرآنا وسنة ، ففي عهد سرية الدعوة كان النبي صلى الله عليه وسلم يلتقي بالمسلمين الأوائل في دار الأرقم بعيدا عن أعين المشركين وأذاهم ، ثم أضحى منزله بمكة ندوة للمسلمين ومعهدهم الذي ينهلون فيه من القرآن والحديث ، ولما انتقل إلى المدينة المنورة أصبح المسجد هو المكان المعهود للتربية والتعليم والتوجيه والقضاء والفتوى وتعلم صفة العبادة الشرعية والأخلاق والآداب الإسلامية.

ولم يقتصر الأمر على ذلك عندما قويت شوكة الإسلام وأضحى للمسلمين دولتهم ، فلم يكن التعليم مقصورا على مكان معين أو مناسبة محددة بل كان النبي صلى الله عليه وسلم يفقه أصحابه ويوجههم في كل حين وآن ، في الطريق وفي المنازل وفي الأسواق ، وحال إقامته وسفره ، وحال السلم والحرب.

وكان الصحابة الكرام يتسابقون لحضور مجالس النبي صلى الله عليه وسلم ينهلون بنهم من معينه الصافي ، ولا يكادون يفارقونه ، فكانوا إذا صلوا الغداة قعدوا حوله يقرءون القرآن ويتعلمون الفرائض والسنن (109)، فكان حفظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم متمشيا جنبا إلى جنب مع حفظ القرآن الكريم ويزيده رسوخا مسارعة الصحابة إلى العمل والتطبيق ، فكان حرصهم على الاستقامة على دين الله مثل حرصهم على حفظ ما يصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حامدين الله تعالى أن أنقذهم به من ظلمات الكفر وضلالات الجهالة.

ب- التدرج في الدعوة وتبليغ الشرع :

لقد تدرج الوحي قرآنا وسنّة في تعليم الصحابة من حيث انتزاع العقائد الفاسدة والعادات الضارة ومحاربة المنكرات التي كان عليها الناس في الجاهلية ، ليحل محلها بالتدريج العقائد الصحيحة والعبادات المشروعة وأحكام المعاملات وفضائل الأخلاق

(109) انظر : مجمع الزوائد 132/1 .

والآداب ، فكان لذلك أبعد الأثر في حسن تربية الصحابة واستقامتهم على الدين الجديد وسهولة حفظه وتطبيقه ، وكان منهج " التخلية قبل التحلية " قد استمر ثلاثة وعشرين عاما بُني خلالها هذا الدين واكتمل متمشيا مع أحوال المسلمين ، ملامسا قلوبهم ونفوسهم برحمة وحرص على نفعهم ودفع الضرر عنهم ، فازدادوا تمسكا به وحرصا عليه ، ولو كان الأمر دفعة واحدة لشق عليهم فهمه وحفظه والاستقامة عليه.

جـ- عدم المداومة على التعليم خشية الملل:

راعى النبي صلى الله عليه وسلم ما تحتاج إليه النفس البشرية من الاسترواح بين الحين والآخر ، وكان يدرك بما علمه ربه عز وجل أن النفوس تمل والقلوب تكل بالمداومة على التعليم الجاد فتقل الفائدة ، ويكد الذهن عن التحصيل ، وقد يحصل نوع من الرغبة عن الخير ، فكان يجمع في تعليمه بين الجدية والترويح ، وبين الموعظة وتعليم الأحكام ، كما كان ينقطع بعض الأيام عن تعليمهم ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: " كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوّلنا بالموعظة مع الأيام كراهة السآمة علينا "[110] ، وهذا أنجع الأساليب في تثبيت المعلومة والتشجيع على تحصيلها برغبة نفس وانشراح صدر .

د- مخاطبة الناس على قدر عقولهم :

إن الكلام الذي لا يبلغ عقل السامع ولا يستطيع فهمه قد يسبب في فتنته وربما أتى بنقيض المقصود منه ، ولهذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخاطب سامعيه على قدر عقولهم وبحسب مستويات إدراكهم فيُفهّم البدوي الجافي بما يناسب طبعه ، ويُفَهّم الحضري بما يلائم بيئته ، ويكتفي بالإشارة إلى الألمعي الذكي ، ويوجه بالعبارة من دونه ، ويركز على الإقناع بالحوار المناسب للمدارك المتفاوتة ، من ذلك ما رواه أبوهريرة قال: " جاء رجل من بني فزارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن امرأتي ولدت غلاما أسود وإني أنكرته فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: هل لك من إبل؟ قال: نعم ، قال: فما ألوانها؟ قال: حمر ، قال: هل فيها من أورق؟ قال: نعم ، قال ، فأنى أتاها ذلك ؟

(110) مسند أحمد 202/5 .

قال: عسى أن يكون نزعه عرق ، قال: وهذا عسى أن يكـــون نزعـــه عـــرق "[111]، فاستراح الأعرابي لهذا الإقناع المناسب لفهمه ، وزال من نفسه ما كان يجده تجاه أهله.

هـ- مخاطبة الناس بلهجاتهم :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب الناس بلغاتهم ليتأكد من تبليغ شــــرع الله إليهم بما لا يدع مجالا للشك ، من ذلك قوله لأحد الأشعريين (وهم يقلبون اللام ميما): " ليس من امبر امصيام في امسفر " ، أي " ليس من البر الصيام في السفر " [112].

و- تكرار الحديث ليتأكد من بلوغه للسامع وفهمه له :

إن بلوغ الشرع للناس وفهمهم له هو مقصد النبي صلى الله عليه وســـلم مـــن مخاطبتهم ، ولهذا فإنه كان إذا تكلم تكلّم ثلاثا ليعيه السامع ويحفظه ، ويفصّل الكـــلام ليتبينه المخاطب ، فعن عائشة رضي الله عنها " أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يســـرد الكلام كسردكم ، ولكن كان إذا تكلّم تكلّم بكلام فصل يحفظه من سمعه" وفي رواية: " إنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو عدّه العادّ لأحصاه "[113]، وعـــن أنس رضي الله عنه قال: " إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تكلم بكلمة أعادهـــا ثلاثا حتى تفهم عنه ، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثا "[114].

ز- استخدام جواب الحكيم :

كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على النفع والإفادة وبيان حكم الله للناس حتى لا يبقى لسامع استفسار ولا لسائل مشكل يحيره ، ولهذا فإنه كثيرا ما يجيب السائل بأكثر من مرمى سؤاله حرصا على تعليمه وتنبيها له على ما قد يجهل السؤال عنه ، من ذلك جوابه للذي سأله عن الوضوء من ماء البحر فقال: " هو الطهـــور مـــاؤه الحـــل ميتته "[115] ، فأضاف فائدة يحتاج إليها السائل هي حل الأكل من ميتـــة البحـــر وأن حكمها مخالف للميتة من الحيوانات غير البحرية ، وقد ترجمه البخاري لذلك بباب: " من

---

(111) صحيح مسلم 1137/2 .

(112) البخارى مع الفتح 693/4 ح 1946 .

(113) انظر : البخارى مع فتح البارى 389/7 .

(114) انظر : فتح البارى 198/1 ، والمقصود بتكرار السلام هنا عند الاستئذان للدخول .

(115) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان 272/2 ح 1241 .

أجاب السائل بأكثر مما سأله "[116] ، وهذا يسمى جواب الحكيم ، لما فيه من الحكمة وبعد النظر.

ح- توخي منهج التيسير والرحمة والبعد عن التعسير والشدة :

كان صلى الله عليه وسلم يميل إلى التيسير في كل أموره ، وينأى عن التشديد والتكلف ، ويرغّب المسلمين في إتيان الرخص مثل إتيانهم العزائم ، وينهى عن التنطع في العبادة ، وكان يقول: " علموا ويسروا ولا تعسروا ، وإذا غضب أحدكم فليسكت "[117]، وعندما بال الأعرابي في المسجد ونهره الصحابة قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: " دعوه ، إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين ، أهريقوا عليه دلواً من ماء "[118] ، ثم بين للأعرابي الواجب في حق بيوت الله.

ط- الرحمة والتواضع:

كان صلى الله عليه وسلم للمسلمين معلما حليما وأبا رحيما ، فكان يتوخّى ألين أساليب الخطاب لتعليم أصحابه ، من ذلك قوله: " إنما أنا لكم مثل الوالد ، إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها "[119].

وقد بلغ صلى الله عليه وسلم القمة في التواضع ، وكان يمنع أصحابه من مدحه ، ويقول: " لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا: عبده ورسوله ".

ي- الحض على سماع حديثه:

لقد تقدم الكلام على ترغيب النبي صلى الله عليه وسلم في طلب العلم وبيانه لمنزلة المعلمين والمتعلمين ، وقد خص حديثه بمزيد من الحض على سماعه وحفظه وتبليغه على الوجه الذي سمع عليه ، من ذلك قوله: " نضر الله امرءاً سمع منا حديثا فبلغه كما سمعه فرب حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه "[120]، ممّا جعل

---

(116) البخارى مع الفتح 241/1 .

(117) مسند أحمد 150/5 .

(118) مسند أحمد 244/12 ، وأصل الحديث فى صحيح البخارى .

(119) مسند أحمد 100/13 .

(120) سنن الترمذى 33/5 ح 2656 .

الصحابة يتنافسون في ذلك رغبة في الأجر وحرصاً على التفقه في الدين .

ك- تخصيص دروس للنساء :

كان الصحابيات يستفدن من التوجيه العام للنبي صلى الله عليه وسلم في المسجد وفي المناسبات المختلفة ، وما غبن عنه يبلغهن عن طريق أزواجهن وأبنائهن وإخوانهن أو عن طريق أمهات المؤمنين أو عن طريق السؤال المباشر للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومع هذا فقد خصهن النبي صلى الله عليه وسلم بدرس يتناسب مع خصوصياتهن ، كما كان يخصهن بموعظة بعد صلاة العيد [121].

بهذا المنهج التربوي المتميز كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه وسائر المسلمين من بعدهم مما أسهم في حفظ دين الله وحمايته والاستقامة عليه ونشره برغبة وحماسة وإتقان.

ثانيا: مادة السنة المطهرة:

لقد كان الصحابة قبل إسلامهم يعيشون في ظلمة ظلماء وجاهلية جهلاء قاسوا منها المتاعب والويلات على مختلف الأصعدة ، ولهذا فعندما أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام وما فيه من الحق والعدل والإحسان أدركوا حقيقة هذه النعمة ، وقدروها حق قدرها ، فتسابقوا في تعلم هذا الدين في جليل الأمور ودقيقها ، حتى يصوغوا حياتهم الجديدة عليه . وقد لبّت السنة المطهرة هذا الشغف لدى الصحابة بمادتها الشاملة لكل جوانب الحياة ، فشملت تصحيح العقيدة وإحلال التوحيد محل الشرك ، فحررت بذلك قلوب الصحابة ونفوسهم وشخصياتهم ، وشملت بيان صفة العبادة الشرعية من مناسك وغيرها فأصبحت العبادة موجهة للإله الحق وفق الصفة التي شرعها لعبادة ، وشملت أنواع المعاملات المتعددة من بيوع وإيجار وسلف ورهن وإعارة وغيرها ، وشملت أنظمة الأسرة من خطبة ونكاح وطلاق وتربية للأولاد وحسن العشرة بين الزوجين ، وطاعة الوالدين وتوقير الصغير للكبير ، وشملت أنظمة المجتمع من تراحم وتكافل وتواد وتعاون على أوجه البر والتقوى ، وشملت أنظمة الدعوة والجهاد وأحكام التعامل مع غير

(121) انظر : صحيح البخارى مع فتح البارى 206/1 ، 239 ، مسند أحمد 85/13 .

المسلمين في الداخل والخارج ، وشملت التوجيه إلى أسمى الفضائل وأرقى الآداب وأنبل الشمائل.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: " إن الله عز وجل بعث إلينا محمدا صلى الله عليه وسلم ولا نعلم شيئا ، فإنما نفعل كما رأينا محمدا صلى الله عليه وسلم يفعل" ، وفي رواية : "كنا ضُلاَّلاً فهدانا الله بمحمد صلى الله عليه وسلم فبه نقتدي"(122).

وعن أنس رضي الله عنه قال : " توفي رسول الله صلى عليه وسلم وما من شيء إلا ذكر لنا خبره حتى الطائر يطير في السماء".

بهذا الشمول والتنوع والكمال كانت السنة بديلا حقيقيا للصحابة في كل أمور حياتهم ، فأقبلوا عليها بكل شغف ينهلون من معينها الصافي ويستقيمون عليها ويدعون إليها ويصبرون على تبعاتها ، رجاء ثواب الله فنالوا السعادة في الدارين إن شاء الله.

ثالثا: منهج الصحابة في تلقي السنة :

إن الصحابة رضوان الله عليهم كلهم عدول ثقات أمناء بتعديل الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لهم ، وكفى بالله شهيدا {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة} (123) ، {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود}(124).

وهم الذين اختارهم الله تعالى لمؤازرة نبيه ونصرته وحمل الأمانة معه ومن بعده ، وهم الذين شاهدوا ملابسات نزول الوحي وعلموا تفاصيل حياة النبي صلى الله عليه وسلم وما صدر عنه ، وتربوا على يد أكرم الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ، ولقد أقبلوا على هذا الدين بكل صدق وإخلاص ، متيقنين أن الله أنقذهم به من الضلالة ونجاهم به من الجهالة ، فضحوا في سبيله بأنفسهم وأولادهم فضلا عن أموالهم ، فكان حرصهم شديدا على سماع الحديث من النبي صلى الله عليه وسلم وفهمه وحفظه

(122) مسند الإمام أحمد 209/7 ، 68/8 ، 77 .
(123) الفتح : (18) .
(124) الفتح : (29) .

ومذاكرته والعمل به وتبليغه للآخرين.ومن أهم ملامح منهجهم في تلقي السنة ما يلي:

1- اعتقادهم أن السنة هي سبيل النجاة :

ما كاد الإيمان يخالط قلوب الصحابة الكرام حتى عرفوا عظمة الإســـلام وأن الله أنقذهم بهذا النبي الأمين من الضلال والجهالة ، فأحبوا النبي صلى الله عليه وسلم وفدوه بأرواحهم ، وانكبوا على سنته معتقدين أنها سبيل النجاة ، يرصدون جميع ما يصدر عنه من قول أو فعل أو تقرير أو صفة ، ويبذلون الوسع لحفظه والتزامه ونشره ، ويجتهدون للاقتداء به في جميع أموره ، فهو الهادي البشير المبلغ عن العزيز الكبير ، وقد تقدم معنـــا قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهم: "كنا ضلالا فهدانا الله بمحمد صـــلى الله عليـــه وسلم فبه نقتدي" ، وكان لهذا الاعتقاد أثره الكبير في حسن تلقيهم للسنة والحرص على حفظها والعمل بها وحمايتها.

2- ملازمة النبي صلى الله عليه وسلم في مجالسه العلمية وسائر أحواله:

كان حرص الصحابة شديدا على حضور مجالس النبي صلى الله عليه وســـلم في المسجد وفي بيوته وبيوت أصحابه حتى لا يفوتهم شيء من هديـــه المبـــارك ، وكـــانوا يلازمونه في كل أحواله في السفر والحضر وسائر المناسبات ، متلهفين للســـماع منـــه ، ملاحظين لما يقوم به ، فكل ذلك عندهم دين يرغبون ألا يفوتهم منه شيء ، فقد ذكـــر الزبير بن العوام أنه لم يفارق النبي صلى الله عليه وسلم منذ أسلم ، ونحوه عن عثمـــان ، وكذا غيرها من الصحابة [125].

3- التكافل العلمي بين الصحابة:

كان للصحابة مسؤولياتهم المعاشية ، وقد يعسر على بعضهم حضور بعض المجالس والمناسبات ، فابتكروا منهجا بديعا يحصّل الغائب من خلاله ما فاته ، وكان ذلك المنهج ذا شقين هما:

– التناوب على حضور مجالس النبي صلى الله عليه وسلم ثم يحـــدث الحاضـــرُ الغائبَ بما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم وشاهده من أمره ، من ذلك قـــول عمـــر رضي الله عنه: "كنت أنا وجار لي من الأنصار نتناوب النزول على رسول الله صلى الله

(125) انظر سنن ابن ماجه 10/1 ، مسند أحمد 363/1 ، قبول الأخبار 29 .

عليه وسلم ، ينزل يوما وأنزل يوما ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك"(126).

– السؤال عما فاتهم من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم :

كان أولئك النجباء لا يرتاح لهم بال حتى يستكملوا ما فاتهم سماعه أو مشاهدته من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك بسؤال من حضر ، والتأكد من دقة النقل ، ليس اتهاما لمن يحدثهم فإن الصحابة كلهم عدول ولم يكونوا يعرفون الكذب ، وإنما خشية الخطأ والنسيان ، قال البراء بن عازب رضي الله عنه: "ما كل الحديث سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يحدثنا أصحابنا ، وكنا مشتغلين في رعاية الإبل ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا يطلبون ما يفوتهم سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسمعونه من أقرانهم وممن هو أحفظ منهم ، وكانوا يشددون على من يسمعون منه"(127)، وقال أنس رضي الله عنه: " ما كنا نكذب (في الحديث) ولا كنا ندري ما الكذب "(128).

بل كان الحاضر منهم يحرص على تبليغ الغائب ، قال البراء: " ليس كلنا كان يسمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانت لنا ضيعة وأشغال ، ولكن الناس لم يكونوا يكذبون يومئذ ، فيحدث الشاهدُ الغائبَ"(129).

4- مذاكرة الحديث لتثبيت حفظه:

كانت المذاكرة أحد آداب الصحابة الكرام لحفظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يسمعون الحديث من النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يتذكرونه فور قيامهم من مجلسه حتى لا يتفلت ، قال أنس رضي الله عنه: "كنا نكون عند النبي صلى الله عليه وسلم فنسمع منه الحديث ، فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى

(126) انظر البخارى مع الفتح 195/1 .
(127) معرفة علوم الحديث (14) .
(128) انظر الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع .
(129) المحدث الفاصل بين الراوى والواعى 32 .

نحفظه"[130].

5- الوفود على النبي صلى الله عليه وسلم بغرض التعلم:

لقد كثرت الوفود على النبي صلى الله عليه وسلم من آفاق جزيرة العرب للإسلام والتفقه في الدين ، ثم العودة إلى أقوامهم معلمين ، حتى سمي العام التاسع للهجرة عام الوفود ، يحدوهم في ذلك قول الله تعالى : {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون}[131].

ومن أمثلة ذلك قول ابن الحويرث: " أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شببة متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين ليلة ، فظن أنا اشتقنا إلى أهلنا ، وسألنا عمن تركنا في أهلنا فأخبرناه ، وكان رفيقا رحيما ، فقال: " ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم ، وصلوا كما رأيتموني أصلي ، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ، ثم ليؤمكم أكبركم" [132].

6- الموازنة بين العلم والعمل:

كان الصحابة يتلقون سنة النبي صلى الله عليه وسلم لتطبيقها ، فكانوا يحملون همّ العمل أكثر من حملهم همّ العلم ، ولهذا كانوا متجاوبين مع تدرج النبي صلى الله عليه وسلم في تعليمهم وتربيتهم ، فيحفظون شيئا من القرآن والسنة ، ثم يفهمونه ويعلمون فقهه ثم يطبقونه ، ثم يحفظون غيره ، قال أبو عبد الرحمن السلمي: " حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن: كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهم أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا " [133].

7- حفظ السنة عن طريق كتابتها :

قام عدد من الصحابة بكتابة ما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم بغرض

(130) الخطيب البغدادى فى الجامع لأخلاق الرواى وآداب السامع 236/1 .
(131) التوبة 122 .
(132) البخارى مع الفتح 321/2 ح 631 .
(133) انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم 24 .

حفظه أو تعليمه أو إرساله إلى من يستفيد منه ، من ذلك : الصحيفة الصادقة لعبـــد الله ابن عمرو ،وكتاب سعد بن عبادة ،وكتاب معاذ بن جبل ، وكتاب عبد الله بن مسعود ، وكتاب أبي رافع ، وصحيفة على بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وسيأتي مزيد بيان لهذا في مبحث كتابة السنة .

تلك كانت أساسيات منهج الصحابة في تلقي الســـنة عـــن الـــنبي صـــلى الله عليه وسلم ، وهي واضحة الدلالة على أنه لم يغب عن مجموعهم شيء من هدي الـــنبي صلى الله عليه وسلم ، فقد لازموه في كل أحواله وترصدوا جليل أموره ودقيقها بإيمان صادق ورغبة جامحة في الاهتداء والاستقامة ، فحفظوا عنه أقواله وأفعالـــه وأحوالـــه في نومه ويقظته وحركته وسكونه وقيامه وقعوده ، واجتهاده وعبادته ، وسيرته وســـراياه ومغازيه ، ومزاحه وأمره ونهيه ، وأكله وشربه ، وخطبه وعهوده ومواثيقه ، وكتبـــه إلى المسلمين والمشركين ، وفتاواه وقضائه ، وعهوده ومواثيقه ، ومعاملته أهله وأصـــحابه ، وتصرفاته مع أعدائه ونصائحه ومواعظه وتوجيهاته (134) .. . ولله الحمد والمنة .

رابعا: عوامل انتشار السنة في العهد النبوي:

لقد تقدم الكلام على جوانب من شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ومنهجه في التعليم وطبيعة مادة السنة ومنهج الصحابة في تلقيها ما يجعلنا نقول بكل ثقة : إن السنة كانت محفوظة إلى جانب القرآن الكريم منذ أيام الدعوة الأولى ، وإن العناية الإلهية قـــد تكفلت بحفظ السنة كما تكفلت بحفظ القرآن ، وإنه سبحانه قد هيأ الصحابة لهذا الدور في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنهم قد حفظوا جميع الســـنة وأحـــاطوا بهـــا في مجموعهم وإن كان نصيب كل منهم يختلف عن نصيب الآخر في ذلك بين مكثر ومقل.

وهناك عوامل متعددة أسهمت في توسيع دائرة انتشار السنة في العهد النبـــوي ، يمكن اختصارها فيما يلي:

1- التوفيق الإلهي والإرادة الربانية:

فإن الله تعالى إذا أراد أمراً هيأ أسبابه ، وقد شاء سبحانه أن يكون الإسلام هـــو

(134) انظر المدخل إلى كتاب الإكليل للحاكم 7 .

خاتمة الأديان ، وشاء أن يكون وحيه به قرآنا وسنة ، وتكفل بحفظ الأمرين ونشـــرهما حتى يعبد وحده ويعبد بما شرع وأمر ، وقد قال سبحانه: " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا لـــه لحافظون " [135]، والذكر هنا يشمل القرآن والسنة ، كما تقدم النقل في ذلك عن ابن المبارك وغيره .

2- نشاط النبي صلى الله عليه وسلم في نشر سنته:

لم يترك النبي صلى الله عليه وسلم وسيلة لنشر دينه إلا استفاد منها ، ولا سبيلا إلا سلكها فعرض دينه على القبائل والأفراد ، وتكلم في المجامع العامة والخاصّة ، واتصل بوفود المواسم ، واتخذ مقرّاً للتعليم ، وأفاد من كل مناسبة للتبليغ عن ربه عز وجـــل ، وصبر على صنوف الأذى حتى نصره الله تعالى ، فكان كل ما يصدر عنه قـــولا وفعـــلا وتقريرا وصفة محل عناية ممن آمن به ، يأخذ مكانه في نفوسهم وقلوبهم وجـــوارحهم ، فبلغت السنة بسبب ذلك مبلغا واسعا من الانتشار.

3- طبيعة الإسلام من حيث هو نظام جديد ، وبديل كامل لما كان عليه الناس في الجاهلية :

فكان الناس يتساءلون عن هذا الدين وعن رسوله وأحكامه وأهدافـــه فيســـمع بعضهم من بعض ، ويسمع بعضهم من النبي صلى الله عليه وسلم ، مما جعـــل دائـــرة انتشار السنة تتسع.

4- نشاط الصحابة في نشر السنة:

فقد كانوا يدركون دورهم الحقيقي في وجوب تلقي السنة والعمل بها ونشرها ، فكان الواحد منهم يعلم أهله وجيرانه ومن يلتقي به ، وكان الوافد إذا أسلم عـــاد إلى قبيلته معلما وقد تُسْلِم القبيلة جميعها على يديه ، كما كـــانوا ينشـــرونها في الأســـواق والمحافل وفي أثناء المواسم.

5- دور أمهات المؤمنين في نشر السنة:

كان لأمهات المؤمنين فضل عظيم في بيان السنة للصحابيات ولا سيما في بعـــض

(135) الحجر : (9) .

التفاصيل المتعلقة بخصوصيات يخجل النساء من السؤال فيها ، فيجدن إجابتها عند أمهات المؤمنين ، أو يسألن لهن الرسول صلى الله عليه وسلم في حينها ، وقد عرف زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بغزارة العلم ، وبخاصة عائشة رضي الله عنها ، التي أدت دورا كبيرا في نشر السنة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته.

6- رسل النبي صلى الله عليه وسلم وبعوثه وولاته في الآفاق:

أضحت المدينة مقر الدولة الإسلامية الجديدة ، وقاعدة الدعوة إلى التوحيد وسائر تعاليم الرسالة الخاتمة ، وعني النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بإرساء دعائم المجتمع المسلم ، ولم يغفل عن نشر دعوة ربه في المواضع النائية والبلاد البعيدة فضلا عن القبائل المجاورة ، فأرسل بعوث الهداية إلى الآفاق يحملهم كتبه إلى رؤساء القبائل والملوك ، وإذا ما أسلم قوم أبقى فيهم من يفقههم في دين الله ، وإذا ما أسلم أهل بلد عين لهم واليا وقاضيا يحكم فيهم بشرع الله ، ويقضي فيما يعرض لهم من الخصومات ويفتيهم فيما يستجد لهم من الحوادث ويعلمهم القرآن والسنة.

وقد ازداد عدد البعوث بعد صلح الحديبية ، ففي يوم واحد انطلق ستة نفر إلى جهات مختلفة يتكلم كل منهم بلسان القوم الذين بعث إليهم ، وركز النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذه المرحلة على مراسلة ملوك عصره ، فقد وجه رسله بكتبه إلى قيصر الروم ، والنجاشي ملك الحبشة ، وكسرى ملك الفرس ، والمقوقس أمير مصر ، وأمير بصرى ، وأمير دمشق ، وأمير اليمامة ، وغيرهم.

وكان لهذه البعوث والكتب المرسلة معها أبلغ الأثر في نشر علوم الكتاب والسنة وهداية الناس بإذن الله"[136].

7- فتح مكة:

لما نقض كفار قريش عهدهم في صلح الحديبية في السنة الثامنة للهجرة ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم القبائل المسلمة أن تصوم شهر رمضان معه في المدينة المنورة ، ثم خرج بهم إلى مكة في عشرة آلاف مجاهد ، ففتحها الله له وطهرها من

(136) للتوسع فى أخبار رسل النبى صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء راجع : المصباح المضىء للأنصارى 60-114 .

الأصنام ، وعفا النبي صلى الله عليه وسلم عن أعدائه الذين طالما آذوه واضطهدوا أصحابه ، فتسابقوا إلى دين الله أفواجا ، وأقبلوا على التفقه في الدين ، فاتسعت مساحة نشر السنة ، ونقلت مع خبر الفتح إلى الآفاق ، وازداد إقبال الناس على الدين بعد أن هوت رموز الكفر والطغيان وتحطم صرحه ، فانشرحت صدورهم للإيمان وأدركوا ضرورة الالتحاق بركبه.

8- حجة الوداع :

أعلن النبي صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة للهجرة أنه حاج فتناقل الناس ذلك وأسرعوا في الوفود على المدينة ومكة للحج مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان من معه في رحلته يرصدون كل أقواله وأحواله ويحفظونها ويسألونه عن أمور دينهم ، وفي يوم عرفة خطب فيهم خطبته الجامعة الشهيرة ، وكانوا يومئذ حوالي مائة ألف ، وأمرهم في نهايتها بالتبليغ عنه فقال: "ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب" (137). وانطلقت الجموع الغفيرة إلى الآفاق بتلك الخطبة وبما سمعوه من أحاديثه الأخرى وما شاهدوه من أحواله وتصرفاته ، فازدادت السنة شيوعا.

9- الوفود آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم:

ما إن تسامع الناس بخبر الفتح ثم بحجة الوداع حتى تسابقت العرب من سائر أنحاء الجزيرة إلى الوفود على النبي صلى الله عليه وسلم ومبايعته على الإسلام والطاعة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحب بهم ويبالغ في إكرامهم ويعطي لكل حظه من التعليم والتوجيه والإرشاد والعناية ، وبعد إقامة كافية لتعلم ما يحتاجونه ، تعود الوفود إلى قبائلها لتبليغ الدين ونشر سنة الرسول الأمين ، وقد يرسل الرسول صلى الله عليه وسلم معهم توجيها مكتوبا أو أحد أصحابه معلما . ومن أشهر هذه الوفود وفد عبد القيس ، ووفود بني حنيفة وطيء وكندة وهمذان وثعلبة وبني سعد وملوك حمير ، وغيرها.وقد نقل الوفود إلى أقوامهم ما تعلموه من النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة بالمدينة ، وما شاهدوه من صفة عبادته وأخلاقه وسائر أحواله .

بهذه العوامل وغيرها انتشرت سنة النبي صلى الله عليه وسلم في الآفاق ، وعمل بها المسلمون وحفظوها ودافعوا عنها وعلموها غيرهم ، وانتشر الإسلام في الجزيرة

(137) انظر : صحيح مسلم 1306/3 ، سيرة ابن هشام 276/4 .

العربية جميعها ودان له أهلها قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وحمل الناس الـــوحي من الكتاب والسنة والتزموهما ، فلم يكن لهم مصدر في الحياة سواهما ، واكتمل الـــدين وحفظه الله بحفظه ، ولله الحمد والمنة .

المراجع المساعدة

1- الحديث والمحدثون لأبي زهو :46- 62 .

2- السنة قبل التدوين للخطيب : 29- 74.

3- السنة ومكانتها في التشريع للسباعي :49 - 61.

4- السنة للسلفي : 165.

5- دراسات في السنة النبوية لصديق عبد العظيم : 61- 98.

أسئلة التقويم الذاتي

1- ماهي عناصر مدرسة الإسلام في العهد النبوي؟

2- ماهو مصدر الدين في ذلك العهد؟

3- تحدث في ست نقاط عن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم المعلم المربي

4- ماهي معالم منهج النبي صلى الله عليه وسلم في نشر سنته؟

5- ما أثر مادة السنة في إقبال الصحابة عليها ؟

6- تحدث في سبع نقاط عن أهم ملامح منهج الصحابة في تلقي السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم

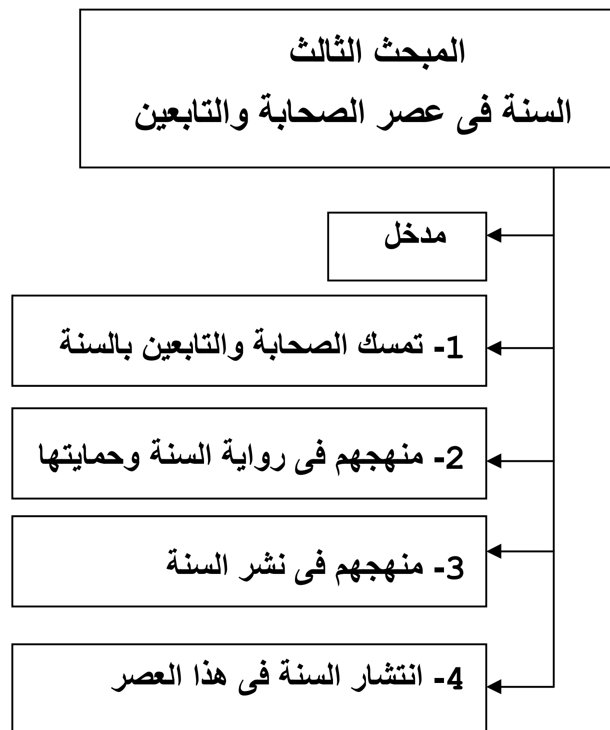
7- ماهي عوامل انتشار السنة في العهد النبوي؟

8- اطلع على ما تيسر لديك من المراجع المساعدة ، وأضف نقطة اجتهادية إلى ما سئلت عنه تحت الأرقام :3 ، 4 ، 6 ، 7 .

9- ما منزلة المعلم وطالب العلم في السنة؟

10- اكتب ثلاث صفحات بتعبيرك تضمنها عصارة ما خرجت به من هذا المبحث .

الوحدة الثانية



المبحث الثالث
السنة في عصر الصحابة والتابعين

الأهداف الخاصة

1- إدراك استشعار الصحابة لعظم الأمانة الملقاة على عواتقهم تجاه السنة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

2- معرفة مدى تمسك الصحابة والتابعين بالسنة المطهرة ، وحفظ نماذج كافية تدل على ذلك .

3- تبيّن منهج الصحابة والتابعين في تلقي السنة وروايتها ، والعمل على حفظها وصيانتها والذود عن حماها .

4- معرفة أن الصحابة هم أول من سن منهج التثبت في قبول الأخبار ، ونقد المرويات والاحتياط في الرواية فلا يقدم عليها إلا حافظ متقن ، مع حفظ نماذج كافية لذلك .

5- معرفة دور عمر في سن منهج التثبت والإقلال من الرواية ومساعدة الصحابة له على ذلك ، ودفع شبهات المغرضين بهذا الخصوص .

6- إدراك تفاوت الصحابة في حفظ السنة ، ومعرفة أكثرهم حديثا .

7- معرفة أن الصحابة كلهم عدول ، وأنه لم يكن يشك بعضهم في بعض ، وأنهم وضعوا ذلك المنهج لمن بعدهم ، وأنهم لم يشترطوا في الرواية غير العدالة والضبط (ثقة الراوي) .

8- إدراك احتياط الصحابة في أداء الحديث بلفظه ، وأنهم لا يعبرون بالمعنى إلا مع تأكد المطابقة لمقصد الشارع .

9- معرفة حكم الرواية بالمعنى ، وضوابطها .

10- تبيّن أن التابعين قد ساروا على منهج الصحابة في حفظ السنة وحمايتها ووضع الضوابط والقواعد لصيانتها .

11- معرفة منهج الصحابة والتابعين في نشر السنة .

12- معرفة مواضع انتشار السنة في ذلك العصر ، ونماذج لمن نزل مختلف الأمصار من الصحابة والتابعين .

13- الاستفادة من هذا المبحث في تقوية محبتك للسنة ، والعمل بها وحفظها ونشرها

والذود عن حماها ، وتبنيها منهجا في الحياة ، كما كان عليه حال الصحابة والتابعين .

المبحث الثالث
السنة في عصر الصحابة والتابعين [138]

مدخل :

لقد أحب الصحابة هذا الدين الحق الذي ملأ عليهم حياتهم ، وأقبلوا عليه بإخلاص وصدق ويقين ورغبة وجدية ، وفدوه بأرواحهم وما يملكون ، وجاهدوا من أجله وفارقوا الأوطان والأهل والأموال ، وصبروا على تبعاته رغبة في جزيل المثوبة وحملاً للأمانة على وجهها.

وما إن توفي النبي صلى الله عليه وسلم حتى ازداد إحساس الصحابة الكرام بالمسؤولية الكبرى والأمانة العظمى الملقاة على عواتقهم ، وهي الاستمرار في السير قدماً بهذا الدين نشراً له ودعوة إليه وجهاداً في سبيله بالإضافة إلى ما هو معلوم من التمسك به والعض عليه بالنواجذ .

ولقد استجاب الصحابة لله ورسوله في الأمر بالتمسك بالسنة والذود عن حماها ، قال تعالى: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} [139]، وعن العرباض ابن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال: "أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبد ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها

(138) السنة قبل التدوين للخطيب : 75-175 ، السنة ومكانتها فى التشريع للسباعى : 56 ، 62-71 ، الحديث والمحدثون لأبى زهو : 63-79 ، السنة للسلفى 181-188 ، منهج النقد فى علوم الحديث للعتر 37 ، دراسات فى السنة النبوية 81-98 ، معالم السنة النبوية للعتر 38-58 .

(139) الحشر : (7) .

بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة" (140)، وقال صلى الله عليه وسلم: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي" (141).

وعلى هذا المنهج من المحبة للسنة والتمسك بها ونشرها وحمايتها سار التابعون لهم بإحسان ، قال رجل للتابعي مطرف بن عبد الله : لا تحدثونا إلا بالقرآن ، فقال له مطرف: "والله ما نريد بالقرآن بدلا ، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا" (142) وفيما يلي عرض مختصر ولكنه كاف لبيان تمسك الصحابة والتابعين بالسنة ، ومنهجهم في حملها وحمايتها ونشرها ، وعوامل انتشار السنة في ذلك العصر .

أولا- تمسك الصحابة والتابعين بالسنة :

لقد ضرب الصحابة ومن بعدهم التابعون المثل الأعلى لسائر المسلمين في حسن الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، والائتمار بأوامره والانتهاء عما نهى عنه ، لا فرق في ذلك بين فترة حياته وبعد وفاته ، فإن الطاعة واجبة في الحالين على السواء ، ولقد تضافرت جهودهم على ذلك ، يحدوهم قوله تعالى : {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر} (143)، وقوله صلى الله عليه وسلم : ((من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله))(144) ، وقد كان هذا الاقتداء في السراء والضراء ، وفي السلم والحرب ، بل كانوا يحرصون على التمسك بالسنة ومتابعتها وإن لم يهتدوا إلى حكمة ظاهرة في ذلك الاتباع ، كما سيأتي في النماذج .

أ- نماذج من اقتداء الصحابة وتسليمهم للسنة :

1- جاءت فاطمة إلى أبي بكر رضي الله عنهما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم تطلب سهمه فقال لها أبو بكر: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

---

(140) سنن ابن ماجه 1615/1 ح42 .
(141) رواه الحاكم فى المستدرك 92/1 .
(142) جامع بيان العلم 191/2 .
(143) الأحزاب : (21) .
(144) البخارى مع الفتح 217/6 ح957 .

"إن الله عز وجل إذا أطعم نبياً طعمة ثم قبضه جعله للذي يقوم من بعـــده ، فرأيـــت أن أرده على المسلمين ، فقالت : أنت وما سمعت من رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم أعلم"[145]. وفي رواية: "لست تاركا شيئا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به ، وإني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ" [146].

2- وقف عمر رضي الله عنه عند الركن وقال: "إني لأعلم أنك حجر ، ولو لم أر حبيبي صلى الله عليه وسلم قبلك أو استلمك ما استلمتك ولا قبلتك {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة} [147]، وفيما يتعلق بالهرولة في الطواف والتي شـــرعت في الأصل ليرى المشركون قوة المسلمين وجلدهم فلما قويت شوكة الإسلام ذهبت العلـــة الظاهرة لهذا الأمر ، قال عمر: "فيم الرملان الآن والكشف عن المناكب ، وقد وطأ الله الإسلام ونفى الكفر وأهله ؟ ومع ذلك لا ندع شيئا كنا نفعله على عهـــد رســـول الله صلى الله عليه وسلم" [148].

3- عن سعيد بن المسيب قال: رأيت عثمان قاعدا في المقاعد فدعا بطعام ممـــا مسته النار فأكله ، ثم قام إلى الصلاة فصلى ، ثم قال : "قعدت مقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكلت طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصليت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم" [149].

4- عن علي بن ربيعة قال: رأيت عليا أتي بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله في الركاب قال : بسم الله ، فلما استوى عليها قال: الحمد لله ، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، ثم حمد الله ثلاثا وكبر ثلاثا ، ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت ، قد ظلمت نفسي فاغفر لي ، ثم ضحك ، فقلت: مم ضحكت يـــاأمير المؤمنين ؟ قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل مثل ما فعلت ، ثم ضـــحك . فقلت : مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال: "يعجب الرب من عبده إذا قال رب اغفـــر

(145) مسند أحمد 160/1 .
(146) مسند أحمد 167/1 .
(147) مسند أحمد 197/1 .
(148) مسند أحمد 293/1 .
(149) مسند أحمد 135/1 .

لي ، ويقول : علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري" [150].

5- قيل لعبد الله بن عمر: لانجد صلاة السفر في القرآن؟ فقال: "إن الله عز وجل بعث إلينا محمدا صلى الله عليه وسلم ولا نعلم شيئا فإنما نفعل كما رأينا محمدا صلى الله عليه وسلم يفعل" [151].

6- عن عبد الله بن مغفل أنه كان جالسا إلى جنبه ابن أخ له فخذف ، فنهاه ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ، وقال: "إنها لاتصيد صيدا ولا تنكي عدوا ، وإنها تكسر السن ، وتفقأ العين" ، فعاد ابن أخيه يخذف ، فقال : أحدثك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ، ثم عدت تخذف ، إذا لا أكلمك أبدا" [152].

7- قيل لعمران بن حصين رضي الله عنه: إنكم تحدثوننا بأحاديث لم نجد لها أصلا في القرآن ، فغضب عمران ، وقال للسائل: "قرأت القرآن؟ قال: نعم ، قال: فهل وجدت فيه صلاة العشاء أربعا ، والمغرب ثلاثا ، والغداة ركعتين ، والظهر أربعا ، والعصر أربعا؟ قال: لا ، قال: فعمن أخذتم ذلك؟ ألستم عنا أخذتموه وأخذناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أوجدتم في القرآن: في كل أربعين شاةً شاةٌ ، وفي كل كذا بعيراً كذا ، وفي كل كذا درهماً كذا؟ قال: لا ، قال: فعمن أخذتم ذلك؟ ألستم عنا أخذتموه وأخذناه عن النبي صلى الله عليه وسلم؟.. . أما سمعتم الله قال في كتابه: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} [153].

وقال عمران أيضا : "نزل القرآن ، وسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: اتبعونا ، فوالله إن لم تفعلوا تضلوا" [154].

ب- نماذج من تمسك التابعين بالسنة :

1- عن أيوب السختياني أنه قال : "إذا حدثت الرجل بالسنة ، فقال: دعنا من

(150) مسند أحمد 378/1 .
(151) مسند أحمد 109/2 .
(152) سنن ابن ماجه 6/1 .
(153) الحشر : (7) ، وقول عمران أخرجه البيهقى فى المدخل .
(154) أخرجه الإمام أحمد فى المسند 445/4 .

هذا وأنبئنا عن القرآن فاعلم أنه ضال مضل" [155].

2- وقال حسان بن عطية : "كان جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن" [156].

3- وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : "لا تفت برأيك إلا أن تكون سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب منزل" [157].

4- قال مكحول : "السنة سنتان ، سنة الأخذ بها فريضة وتركها كفر ، وسنة الأخذ بها فضيلة وتركها إلى غيرها حرج" [158].

5- وقال عمر بن عبد العزيز: "والسنة إنما سنها من علم ما في خلافها من الزلل ، ولهم كانوا على المنازعة والجدل أقدر منكم ، فاتبعوا ولاتبتدعوا." [159].

6- وقال شريح القاضي: "إن السنة سبقت قياسكم فاتبع ولاتبتدع" [160].

7- وقال عون بن عبد الله: "من مات على الإسلام والسنة فله بشير بكل خير" [161] .

8- وقال الزهري : "كان من مضى من علمائنا يقول : الاعتصام بالسنة نجاة" [162].

9- وقال ابن شوذب : "من نعمة الله على الشاب والأعجمي أن يوفقا لصاحب سنة" [163].

10- وقال الحسن البصري : "إنما هلك من كان قبلكم حين تشعبت بهم السبل

(155) أخرجه البيهقى فى المدخل .
(156) الشرح والإبانة 128 .
(157) سنن الدارمى 59/1 .
(158) سنن الدارمى 145/1 .
(159) البدع لابن وضاح 66 ، الشرح والإبانة 123 .
(160) سنن الدارمى 66/1 .
(161) أصول اعتقاد أهل السنة 67/1 .
(162) سنن الدارمى 45/1 .
(163) الشرح والإبانة 133 .

وحادوا عن الطريق فتركوا الآثار وقالوا في الدين برأيهم فضلوا وأضلوا" (164).

* بهذا الحرص على الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم والتزام سنته عاش أولئك الأخيار ، عرفوا الحق فلزموه ودعوا إليه ونشروه في الآفاق وسادوا به الدنيا ، وليس من سبيل غير السنة لاستعادة مجد الأسلاف وعزة الإسلام.

ثا نيًا منهج الصحابة والتابعين في رواية السنة وحمايتها:

1- أهم معالم منهج الصحابة :

أدرك الصحابة والتابعون منزلة السنة في دين الله ، وأنها وحي تعبدنا الله تعالى به ، وأن من أوجب الواجبات نشرها وصيانتها من أي تغيير وحمايتها من أي دخيل ، فالتزموا المناهج التي تخدم غرض النشر مع ضمان الحفاظ عليها من الخطأ فضلا عـــن الكـــذب والتحريف ، ومن أهم ملامح منهجهم في ذلك مايلي :

أ- الاحتياط في رواية الحديث حرصا على صيانته.

ب- الإقلال من الرواية حماية للسنة .

جـــ- الإكثار من الرواية للمتقن المحتاج إلى علمه .

د- التثبت في قبول الحديث .

هــ- نقد المرويات .

و- الاحتياط في أداء الحديث بلفظه.

وفيما يلي توضيح هذه الملامح باختصار مع التمثيل لها :

أ- الاحتياط في رواية الحديث حرصا على صيانته :

لقد كان التحوط في الرواية منهجا عاما سلكه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم حرصا على صيانة السنة المطهرة من الدخيل وحماية لها من شائبة التغيير والتحريـــف ، ولهذا نجدهم لايروون الحديث إلا إذا احتيج إليهم في ذلك مع التيقن من إتقان تبليغـــه على الوجه الذي سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك فإن كلا منهم يود لـــوأن أخاه كفاه مؤونة التحديث ، ومن أمثلة ذلك ما يلي :

(164) جامع بيان العلم لابن عبد البر 168/1 .

1- قال عبد الرحمن بن أبي ليلى : "أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، مامنهم أحد يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه إياه ، ولا يستفتى عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه إياه" ، وفي رواية: "يسأل أحدهم المسألة فيردّها هذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول" (165).

2- كان يقال لزيد بن أرقم رضي الله عنه: حدثنا ، فيقول: "كبرنا ونسينا والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد" (166).

3- عن عمرو بن ميمون قال: "ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فيه ، قال : فما سمعته يقول بشيء قط "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" ، فلما كان ذات عشية قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" ، فنكس رأسه ، فنظرت إليه فإذا هو قائم محللة أزرار قميصه ، قد اغرورقت عيناه وانتفخت أوداجه" ثم قال: "أو دون ذلك ، أو فوق ذلك ، أو قريبا من ذلك ، أو شبيها بذلك" (167).

وكان ابن مسعود يقول: "ليس العلم بكثرة الحديث ولكن العلم الخشية" (168).

4- عن عبد الله بن عامر قال: "سمعت معاوية على المنبر بدمشق يقول: أيها الناس ، إياكم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حديثا كان يذكر على عهد عمر رضي الله عنه فإن عمر كان يخيف الناس في الله عز وجل"(169).

ب- الإقلال من الرواية حماية للسنة :

1- ابتكار عمر لهذا المنهج ومساعدة الصحابة له عليه :

كان الإقلال من رواية الحديث منهجا في حمايتها ابتكره عمر رضي الله عنه وسار عليه سائر الصحابة الكرام ، قال ابن قتيبة: "كان عمر شديد الإنكار على من أكثر الرواية أو أتى بخبر في الحكم لا شاهد له عليه ، وكان يأمرهم بأن يقلوا الرواية ، يريد

(165) مختصر كتاب المؤمل فى الرد إلى الأمر الأول لأبى شامة 13 .
(166) سنن ابن ماجه 8/1 ، سنن البيهقى 11/10 .
(167) سنن ابن ماجه 8/1 .
(168) مختصر كتاب المؤمل 6 .
(169) انظر : تذكرة الحفاظ 7/1 .

بذلك ألا يتسع الناس فيها ، ويدخلها الشوب ، ويقع التدليس والكذب مـن المنـافق والفاجر والأعرابي ، وكان كثير من جلة الصحابة وأهل الخاصّة برسول الله صـلى الله عليه وسلم كأبي بكر والزبير وأبي عبيدة والعباس. . يقلون الرواية عنه ، بل كان بعضهم لا يكاد يروي شيئا كسعيد بن زيد وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة" (170).

وكان عمر رضي الله عنه يأمر بالإقلال من الروايـة تحوطـا للسـنة وصـيانة لها ، ويوصي بذلك بعوثه إلى الآفاق ، من ذلك وصيته لوفده إلى الكوفة ، قال قرظة بن كعب : "بعثنا عمر بن الخطاب إلى الكوفة ، وشيعنا إلى موضع قرب المدينة يقال لـه : صرار ، قال: أتدرون لم مشيت معكم؟ قلنا: لحق صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولحق الأنصار ، قال: لكني مشيت معكم لحديث أردت أن أحـدثكم بـه فـأردت أن تحفظوه لممشاي معكم ، إنكم تقدمون على قوم للقرآن في صـدورهم هزيـز كهزيـز المرجل ، فإذا رأوكم مدوا إليكم أعناقهم وقالوا أصحاب محمد ، فأقلوا الروايـة عـن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم"(171) ، فلما قدم قرظة بن كعب الكوفة قالوا : حدثنا ، فقال: نهانا عمر بن الخطاب (172) .

وهكذا سن عمر منهج التثبت العلمي والإقلال من الرواية مخافـة الوقـوع في الخطأ ، وحمل الناس على التثبت مما يسمعون والتروي فيما يؤدون ، فكان له الفضـل الكبير في صيانة السنة المطهرة وحمايتها من الشوائب ، وقد رغب الصحابة هذا المنـهج وطبقوه ، قال عثمان رضي الله عنه وهو على المنبر: "لا يحل لأحد يروي حـديثا عـن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أسمع به في عهد أبي بكر ولا عهد عمر ، فإنه لم يمنعنا أن نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون أوعى لأصحابه عنه ، إلا أني سمعته يقول : "من قال عليّ ما لم أقل فقد تبوأ مقعده من النار" (173) .

2- ما وجه هذا المسلك من عمر والصحابة ؟

(170) تأويل مختلف الحديث 48 .

(171) سنن ابن ماجه 9/1 ، طبقات ابن سعد 2/6 .

(172) تذكرة الحفاظ 7/1 ، جامع بيان العلم 120/2 .

(173) مسند أحمد 363/1 .

فعل الصحابة ذلك كله احتياطا للدين ورعاية لأمانة حفظ السنة من الـــدخيل ، لا زهداً في الحديث النبوي ولا تعطيلا له ، ولا يجوز أن يفهم من هذا المنهاج غير هـــذا الاجتهاد في صيانة السنة ، ولايقول بغير ذلك إلا جاهل مبتدع أو مغـــرض صـــاحب هوى .

قال الخطيب البغدادي في توجيه مسلك عمر رضي الله عنه: "إن قال قائل: مـــا وجه إنكار عمر على الصحابة روايتهم وتشديده عليهم في ذلك؟.

– قيل له : إنما فعل عمر ذلك احتياطاً للدين وحسن نظر للمسلمين ...

– وفي تشديد عمر أيضا حفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترهيب لمن لم يكن من الصحابة أن يدخل في السنن ما ليس منها ، لأنه إذا رأى الصحابي المقبول القول ، المشهور بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم قد تشدد عليه في روايته ، كان هو أجدر أن يكون للرواية أهيب" [174] .

3- دحض شبهة قد تخطر على الجهلة والمغرضين :

قال الحافظ ابن عبد البر :[175] "احتج بعض من لا علم له ولا معرفة من أهـــل البدع وغيرهم الطاعنين في السنن بحديث عمر هذا وقوله : "أقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم" وجعلوا ذلك ذريعة إلى الزهد في سنن رسول الله صلى الله عليـــه وسلم التي لا يوصل إلى مراد كتاب الله إلا بها ، والطعن على أهلها ولا حجة في هـــذا الحديث ، ولا دليل على شيء مما ذهبوا إليه من وجوه قد ذكرها أهل العلم" ، وبعـــد إيراد بعض الوجوه أورد حديثاً لعمر رضي الله عنه يقول فيه: إني أريد أن أقول مقالة قد قدر لي أن أقولها ، من وعاها وعقلها وحفظها فليحدث بها حيث تنتهي راحلته ، ومـــن خشي أن لايعيها فإني لا أحل له أن يكذب علي".

قال ابن عبد البر : "وهذا يدل على أن نهيه عن الإكثار وأمره بالإقلال من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كان خوف الكذب على رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ، وخوفا من أن يكونوا مع الإكثار يحدثون بما لم يتيقنوا حفظه ولم يعوه ، لأن

(174) انظر شرف أصحاب الحديث 89 ، 90 .

(175) جامع بيان العلم وفضله 2/121-124 باختصار .

ضبط من قلت روايته أكثر من ضبط المستكثر ، وهو أبعد من السهو والغلط الـذي لا يؤمن مع الإكثار ، فلهذا أمرهم عمر بالإقلال من الرواية ، ولو كره الرواية وذمها لنهى عن الإقلال والإكثار . فكيف يتوهم أحد على عمر أنه يأمر بخلاف ما أمر به الله ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها" ، والكلام في هذا أوضح من النهار لأولي النُّهى والاعتبار.. . وهذا يدلك أنـه إنما أمرهم بذلك خوف مواقعة الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخـوف الاشتغال عن تدبر السنن والقرآن لأن المكثر لا تكاد تراه إلا غير متدبر ولا متفقه.

ومما يدل على هذا ما ذكرناه فيما يروى عن عمر أنه كان يقول: "تعلموا السـنة والفرائض واللحن كما تتعلمون القرآن" ، وعمر هو الناشد للناس في غير موقف ، بـل في مواقف شتى: من عنده علم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في كـذا ، وكيـف يتوهم على عمر ما توهمه الذين ذكرنا قولهم وهو القائل: "إياكم والرأي ، فإن أصحاب الرأي أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها" ، وهو القائـل : "سـيأتي قـوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله ".

و الآثار كلها عن عمر صحيحة متفقة ، ويخرج معناها على أن من شك في شيء تركه ، ومن حفظ شيئا وأتقنه جاز له أن يحدث به ، وإن كان الإكثار يحمل الإنسـان على التقحم في أن يحدث بكل ماسمع من جيد ورديء وغـث وسمـين ، وقـد قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع" (176).

وما ذكره الخطيب البغدادي وما انتهى إليه الحافظ ابن عبد البر في هذه المسـألة هو الحق الذي لا محيد عنه ، فقد حمل لواء المحافظة والحرص على السنة الصحابة كافـة مع تميز عمر رضي الله عنه في هذا الباب لأن موقعه من حيث هو أمير للمؤمنين يتطلب الإحساس بمزيد من المسؤولية والمتابعة ، وقد تبين لنا من مروياته وما أثـر عنـه شـدة اهتمامه بالسنة المطهرة وإجلاله لها وحرصه على نقاوتها ، وكل ما ورد عنه إنما يخدم هذه الغاية ، ويدل على المحافظة على السنة ونشرها وتبليغها صحيحة متقنة ، ولا يتيسر ذلك

---

(176) سنن أبي داود 5/265-266 ح 4992 .

ما لم يتثبت حاملوها من مروياتهم ، وإن الإقلال من الرواية مظنة عدم الوقوع في الخطأ وقطع للطريق أمام الجاهل والمغرض وغير المتقن ، ولهذا أمر به عمر رضي الله عنه .

أما ما روي من أن عمر رضي الله عنه قد حبس بعض الصحابة لأنهم أكثروا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم [177] فإن سنده ليس بصحيح ، ذكر ذلك ابن حزم وغيره ، كما أنه معلول بالاضطراب في تسمية الصحابة المزعوم حبسهم بالإضافة إلى أن عمر رضي الله عنه لم يكن له حبس ، ولو سلمنا جدلا بوقوع ذلك فإن المقصود بالحبس المنع من الرواية لحين التثبت في بعض ما بلغه عنهم ، يؤيد ذلك ما أخرجه الرامهرمزي أن عمر بن الخطاب حبس بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ابن مسعود وأبو الدرداء ، فقال: "قد أكثرتم الحديث عن رسول الله صلى عليه وسلم" ، قال أبو عبد الله بن البري شيخ الرامهرمزي: يعني منعهم الحديث ولم يكن لعمر حبس ، أي منعهم الإكثار من الحديث.

وقد يكون المراد استبقاهم عنده بالمدينة حتى يتثبت فيما بلغه عنهم ، كما في رواية الخطيب البغدادي : "بعث عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن مسعود وإلى أبي الدرداء وإلى أبي مسعود الأنصاري فقال: ما هذا الحديث الذي تكثرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فحبسهم بالمدينة حتى استشهد " ، فإذا صحَّ أصل الخبر فإنه يكون من باب تثبت عمر رضي الله عنه في الحديث وحرصه على نقاوته.

كما أن أصل الخبر يتناقض مع حال عمر نفسه فهو روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من خمسمائة حديث ، كما أن بعض الصحابة غير المذكورين في رواية الحبس كانوا أكثر حديثا من هؤلاء ، ولم يرد شيء في شأنهم ، مثل أبي هريرة وهو أكثر الصحابة حديثا ، إذ روى **5374** حديثا ، بل إن عمر استدعاه فقال: "كنت معنا يوم كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت فلان ؟ قال: نعم ، وقد علمتُ لأي شيء سألتني ، قال : ولم سألتك ؟ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ:

---

(177) انظر في هذه الرواية ونقدها : تذكرة الحفاظ 7/1 ، الإحكام لابن حزم 239/2 ، السنة قبل التدوين 106-110 شرف أصحاب الحديث 97 .

"من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" قال: أما لا فاذهب فحدِّث"[178].

فكل هذا يؤكد تفنيد رواية الحبس ، ويؤكد أن عمر رضي الله عنه طلب الإقلال من الرواية لحفظ السنن وترهيب من لا يتقن حديثه ، أما من حفظ وأتقن ما يحدث بـه فلم يتعرض له عمر رضي الله عنه.

4- تطبيق سائر الصحابة لهذا المنهج حماية للسنة :

لم يكن بقية الصحابة أقل من عمر رضي الله عنهم حرصا على صـيانة السـنة المطهرة ، وإن كان موقعه على رأس الأمة قد تطلب مزيدا من المتابعـة ، ولهـذا فقـد تضافرت جهود الجميع على هذا المنهج الرامي إلى تحقيق سلامة السـنة مـن التغـيير والتحريف ، ومن نماذج ذلك مايلي :

– عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثا كثيرا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من تعمد عليّ كذبا فليتبوأ مقعده من النـار" [179] . وقال أيضا : "لولا أني أخشى أن أخطئ لحدثتكم بأشياء سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم"[180] .

– وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنه قال لأبيه: إني لا أسمعـك تحـدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدث فلان وفلان ، قال: أمـا إني لم أفارقـه منذ أسلمت ، ولكني سمعت منه يقول: "من كذب عليّ متعمدا فليتبـوأ مقعـده مـن النار"[181] .

– وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع" [182].

– وقال السائب بن يزيد: صحبت سعد بن مالك من المدينة إلى مكة فما سمعتـه

(178) سير أعلام النبلاء 434/2 .
(179) البخارى مع الفتح 271/1 ح107 .
(180) سنن الدارمى 177/1 .
(181) سنن ابن ماجه 10/1 .
(182) سنن أبى داود 265/5–266 ح 4992 .

يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رجع [183] .

– وعن عثمان رضي الله عنه قال: إنه لم يمنعنا أن نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون أوعى لأصحابه عنه ، إلا أني سمعته يقول: "من قال عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار" [184] ، وكان يمنع الناس من رواية حديث لم يشتهر في عهد أبي بكر وعمر.

– وقال معاوية رضي الله عنه: "أيها الناس ، إياكم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حديثا كان يذكر على عهد عمر رضي الله عنه ، فإن عمر كان يخيف الناس في الله عز وجل"[185] .

– وقال ابن قتيبة: "كان كثير من جلة الصحابة وأهل الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي بكر والزبير وأبي عبيدة والعباس بن عبد المطلب يقلون الرواية ، بل كان بعضهم لا يكاد يروي شيئا كسعيد بن زيد ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة"[186] .

جـ- الإكثار من الرواية للمتقن المحتاج إلى علمه:

إن منهج الإقلال من الرواية احتياطا للدين لم يمنع الصحابة الكرام من تبليغ ما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم أداء للأمانة ، فقد عملوا موازنة بين الأمرين ، ولم يكونوا ليترددوا في التحديث عندما يحتاج إلى علمهم مع تيقنهم من أداء الحديث على وجهه ، وإتقان إيصاله كما سمعوه.

1- عوامل الإكثار : كانت أهم عوامل الإكثار من الرواية مايلي :

– إن التبليغ عن الرسول صلى الله عليه وسلم مع مراعاة ضوابطه هو الأصل الذي أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام به هؤلاء الصحابة استجابة لأمره ، إذ قال: "نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع"[187] ،

---

(183) طبقات ابن سعد 102/3 .

(184) مسند أحمد 363/1 .

(185) انظر : تذكرة الحفاظ 7/1 .

(186) تأويل مختلف الحديث 48 .

(187) أخرجه الترمذى وغيره ، انظر جامع الأصول 452/2 .

وفي رواية : "نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه"[188] ، وقال: "حدثوا عني ولا تكذبوا ، ومن كذب علـيّ متعمـدا فليتـبوأ مقعـده من النـار" [189] وقال : "إن كذبا علـيّ ليـس ككذب علـى أحد" [190] .

– خشية الإثم والوقوع في معصية كتمان العلم ، حذرا من الوعيد الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم : "من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة"[191] .

– خوفهم ذهاب علم السنة بذهاب أهله وحملته عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد أدركوا أنه لابد من توريثه لمن بعدهم ، كما أوصاهم النبي صلى الله عليـه وسـلم بذلك إذ قال: "إنه سيأتي بعدي قوم يسألونكم الحديث عني ، فإذا جاءوكم فألطفوا بهم وحدثوهم"[192] ، فكان أبو سعيد الخدري إذا رأى الشباب قـال: "مرحبـا بوصـية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أوصانا أن نوسع لكم في المجلس وأن نفقهكم فـإنكم خلوفنا وأهل الحديث بعدنا"[193] .

– الشعور بالمسؤولية وتحمل الأمانة في نشر السنة لطالبها وبذلها لراغبها ، ولهذا فإن كثيرا ممن أقلوا الرواية في البداية كأبي هريرة وأنس وغيرهما عندما كان الصـحابة متوافرين وعلم السنة شائعا . هؤلاء قد أكثروا بعد ذلك عندما ظهرت الحاجة إلـيهم وقل الرواة عن النبي صلى الله عليه وسلم بالنظر إلى الزمن السابق.

2- المكثرون من الصحابة : تفاوت الصحابة في الرواية عـن الـنبي صـلى الله

(188) سنن الترمذى 33/5 ح 2656 .
(189) تقييد العلم 29–32 .
(190) مسند أحمد 245/4 .
(191) سنن الترمذى برقم 29/5 ح 2649 .
(192) شرف أصحاب الحديث 72 .
(193) شرف أصحاب الحديث 72 .

عليه وسلم بين مقل ومستكثر[194] ، وأكثرهم حديثا سبعة اتسعت مروياتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم وعمروا واحتاج الناس إلى علمهم فنشروه بضبط وإتقان ، وهم :

- أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي وعدد مروياته : 5374 حديثا.
- عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعدد مروياته: 2630 حديثا.
- أنس بن مالك ، وعدد مروياته : 2286 حديثا.
- عائشة أم المؤمنين ، وعدد مروياتها : 2210 أحاديث .
- عبد الله بن عباس ، وعدد مروياته : 1660 حديثا .
- جابر بن عبد الله ، وعدد مروياته : 1540 حديثا.
- أبو سعيد الخدري سعد بن مالك ، وعدد مروياته : 1100 حديث .

د- التثبت في قبول الحديث :

مما يكتمل به منهج الصحابة في حفظ السنة وحمايتها من الدخيل والحفاظ على نقاوتها وصفائها : شدة تحريهم ودقة تثبتهم في قبول الحديث ، ووضعهم جملة من الضوابط التي تمنع دخول الدخن والتحريف والتزيد والتغيير على سنة المصطفى صلى الله عليه سلم ، فبينوا لمن بعدهم في هذا الباب سبيلا قويما ، وسنوا لحماية السنة نهجا دقيقا ، وقد تقدم معنا احتياطهم في الرواية والإقلال منها خشية الوقوع في الخطأ ، وهو يخدم هدف حماية السنة من الدخيل ، ومن الأسس المكملة لهذا المنهج ما يلي :

- التثبت في قبول الرواية للتأكد من ضبطها :

وكان هذا الأمر مسلكا عاما للصحابة ، ومن أمثلته ما يلي :

1- من سيرة أبي بكر رضي الله عنه:

قال الحافظ الذهبي : "كان أبو بكر رضي الله عنه أول من احتاط في قبول الأخبار" ، وقال : "وإليه المنتهى في التحري والقبول"[195] .

- عن قبصة بن ذؤيب "أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورَّث ، فقال :

---

(194) راجع فى أسماء الصحابة الرواة وعدد مروياتهم : جوامع السيرة لابن حزم ، مقدمة مسند بقى ابن مخلد .

(195) تذكرة الحفاظ 103/1 .

ما أجد لك في كتاب الله شيئا ، وما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لك شيئا ، ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها السدس ، فقال له : هل معك أحد ، فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك ، فأنفذه لها أبو بكر رضي الله عنه"(196) ، قال الذهبي معلقا على هذا الخبر: "فعل ذلك للتثبت في الرواية ، وللاحتياط في الضبط ، لا لتهمة أو سوء ظن"(197) ، لأن الصحابة عدول ، ولم يكونوا يعرفون الكذب ، ولا يتهم بعضهم بعضا،كما تقدم نقله عن أنس وغيره .

– وعن الزهري أن أبا بكر حدث رجلا حديثا ، فاستفهمه الرجل إياه فقال أبو بكر: "هو كما حدثتك ، أي أرض تقلني إذا قلت ما لم أعلم"(198) .

– وعن ابن أبي مليكة أن الصديق جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال: "إنكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها ، والناس بعدكم أشد اختلافا ، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئا ، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله ، فاستحلّوا حلاله وحرموا حرامه"(199) ، قال الذهبي: "إن مراد الصديق التثبت في الأخبار والتحري ، لا سد باب الرواية ، ألا تراه لما نزل به أمر الجدة ولم يجده في الكتاب كيف سأل عنه في السنن ، فلما أخبره ما اكتفى به حتى استظهر بثقة آخر ، ولم يقل حسبنا كتاب الله كما تقوله الخوارج"(200) .

2– من سيرة عمر رضي الله عنه :

لقد تقدم معنا ابتكار عمر لمنهج الإقلال من الرواية ومتابعته لذلك حماية للدين ، وتضافر جهود الصحابة على ذلك وقد قال الذهبي : "هو الذي سن للمحدثين التثبت في النقل"(201) ، وفيما يلي نماذج من تثبت عمر رضي الله عنه في قبول الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(196) سنن أبي داود 316/3 – 317 ح 2894 .
(197) تذكرة الحفاظ 5/1 .
(198) تذكرة الحفاظ 153/1 .
(199) تذكرة الحفاظ 3/1 ، 4 .
(200) تذكرة الحفاظ 3/1 ، 4 .
(201) تذكرة الحفاظ 7/1 .

– عن أبي سعيد الخدري قال : "كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور ، فقال: استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت ، فقال : ما منعك ؟ قلت : استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع" ، فقال : والله لتقيمن عليه ببينة ، أمنكم أحد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم؟ ، فقال أبي بن كعب : والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم ، فكنت أصغر القوم ، فأخبرت عمر أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك" ، فقال عمر لأبي موسى: "إني لم أتهمك ، ولكني أحببت أن أتثبت"(202) ، وفي رواية: "أما إني لم أتهمك ، ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم"(203) .

– عن مالك بن أوس قال : سمعت عمر يقول لعبد الرحمن بن عوف وطلحة ابن الزبير وسعد : نشدتكم الله الذي تقوم السماء والأرض به أعلمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنا لا نورث ما تركنا صدقة" ، قالوا: اللهم نعم(204) .

3– من سيرة عثمان رضي الله عنه :

أتى عثمان المقاعد فدعا بوضوء ، فتمضمض واستنشق ، ثم غسل وجهه ثلاثا ويديه ثلاثا ، ثم مسح برأسه ورجليه ثلاثا ثلاثا ، ثم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا يتوضأ ، يا هؤلاء أكذاك ؟ قالوا : نعم ، لنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده(205) .

4– من سيرة علي رضي الله عنه :

قال الذهبي(206) : "كان إماماً عالما متحريا في الأخذ ، بحيث إنه يستحلف من يحدثه بالحديث" وعن علي رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعني الله بما شاء منه ، وإذا حدثني غيره استحلفته ، فإذا حلف لي

(202) البخارى مع الفتح 290/12 ، 291 ح 6245 .
(203) موطأ مالك 964/2 ، الرسالة 435 .
(204) مسند أحمد 228/1 .
(205) مسند أحمد 372/1 .
(206) تذكرة الحفاظ 10/1 .

صدقته ، وإن أبا بكر حدثني وصدق أبو بكر ، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من رجل يذنب ذنبا فيتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له"(207) .

تلك نماذج كافية من منهج الصحابة في حماية السنة وتثبتهم في قبولها ، وينبغي ملاحظة ما يلي :

– إنهم أرادوا من تلك المسالك المتنوعة في قبول الرواية صيانة السنة والتثبت فيها ، والمحافظة على لفظها ، ولم يكن الدافع له تهمة بعضهم بعضاً ، كما تقدم من كلامهم ، فإن جميع الصحابة عدول بتعديل الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، والقدح فيهم بعد هذا التعديل يقدح في إيمان صاحبه.

– أراد الصحابة أن يسنوا منهجا بينا لمن بعدهم حتى لا يتقوّل الناس على النبي صلى الله عليه وسلم بلا علم ، وهذا واضح من كلام عمر وأبي بكر وغيرهما رضي الله عنهم ، فقد كانوا يحتاطون للأزمنة التالية عندما يقل الصحابة ويكثر غيرهم ، فوضعوا تلك الضوابط لئلا يتجرأ غير الصحابة على التساهل في الرواية فيدخل في السنة ما ليس منها .

– لم يكن غرض الصحابة مما تقدم من التثبت اشتراط أكثر من راو لقبول الحديث ، وإنما كانوا يكتفون في قبول الخبر بالراوي الواحد الثقة وإنما طلبوا الشهادة على الخبر أحيانا لسن منهج التثبت كما تقدم وحتى لا يتجرأ الناس على التساهل في رواية الحديث .

ومما يزداد به توضيح المسألة ما يلي :

– لم يكن جميع الصحابة يطلبون شاهدا آخر على الرواية بل كانت مسالكهم في ذلك متعددة ، فبعضهم يستحلف ، وبعضهم يطلب راويا آخر ، وبعضهم يسأل للتثبت ، وبعضهم إذا حدث أعلن براءته من الكذب ، وبعضهم إذا حدث ذكّر سامعه بخوفه من الله أن يحدث بما لا يعلم ، فهذا التنوع دال على أن الغرض التثبت وليس

(207) مسند أحمد 154/1 ، سنن الترمذى 257/2 ، وانظر الكفاية 28 .

اشتراط أكثر من راو واحد .

– وكما طلب بعض الصحابة من الراوي شهادة غيره ، فإنهم أيضا قبلوا أكثر الأحاديث برواية ثقة واحد فقط ، فدل ذلك على أنه ليس من منهجهم اشتراط راويين ، فالعبرة إذا بثقة الناقل لا بكثرة عدد النقلة ، ولو كان اشتراط الاثنين فأكثر مطلوبا لاتفقوا عليه جميعا والتزموه دائما ، فطلب راو آخر أحيانا إنما هو لمجرد التأكد وسن منهج التثبت .

ولهذا فإن من ذكر أن الصحابة يشترطون اثنين لقبول الرواية فقد غلط في هذا الباب ، ولم ينظر في مجموع عملهم نظرة دراسة وتفحص ، وإنما أخذ بظاهر بعض الأخبار دون أن ينظر في بقيتها ، وقد رد الحافظ ابن حجر وغيره من الحفاظ والمحققين على هذا الزعم وأبطلوه من وجوه متعددة(208) .

– إن الأمثلة لقبولهم عن ثقة واحد أكثر من أن تحصى ، منها:

* أن عمر رضي الله عنه كان يقول: الدية للعاقلة ، ولاترث المرأة من دية زوجها شيئا ، حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن رسول الله كتب إليه أن يورث امرأة أشيم الضبابي من ديته ، فرجع إليه عمر(209) .

* وأخذ عمر رضي الله عنه بخبر سعد بن أبي وقاص في المسح على الخفين ، وأمر ابنه عبد الله ألا ينكر عليه ، وقال له : "إذا حدثك سعد بشيء فلا ترد عليه ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمسح على الخفين"(210) .

* وأمر عمر برجم مولاة حاطب فذكّره عثمان بأن الجاهل لاحد عليه فأمسك عن رجمها(211) .

* وَقِبل أبو بكر خبر عائشة رضي الله عنهما وحْدَها في صفة كفن الرسول

---

(208) انظر : تدريب الراوى 28/1 ، السنة ومكانتها فى التشريع 81 .
(209) الرسالة 426 .
(210) مسند الإمام أحمد 191/1 .
(211) الإحكام لابن حزم 13/2 .

صلى الله عليه وسلم(212) .

* وقبل عثمان رضي الله عنه حديث الفريعة بنت مالك حـول عـدها لوفـاة زوجها ، وقضى بخبرها(213) .

* وأخذ علي بخبر المقداد بن الأسود رضي الله عنهما في حكم المذي(214) ، دون أن يحلفه .

هـ - نقد المرويات :

من مسالك الصحابة في حماية السنة فحصهم للمرويات بعرضها على نصـوص الوحي قرآنا وسنة ، وعلى ما علموه يقينا من قواعد الدين وأصوله حتى لا يتزيّد أحد على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

* عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها أن زوجها طلقها ثلاثـا ، فلـم يجعـل لها رسول الله صلى الله عليه وسلم سكنا ولا نفقة ، فلما علم عمر بحـديثها قـال: "لا نترك كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم لقول امرأة لا ندري لعلها حفظـت أو نسيت ، لها السكنى والنفقة ، قال الله عز وجل : {لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخـرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة}(215) .

* جاء بشير العدوي إلى ابن عباس وأخذ يحدث عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فلم يأذن ابن عباس لحديثه ولم ينظر إليه ، فقال: يا ابن عبـاس مـالي أراك لا تسمع لحديثي؟ أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع؟ ، فقـال ابـن عباس : "إنا كنا إذا سمعنا رجلا يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم ابتدرتـه أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من النـاس إلا ما نعرف"(216) .

(212) الإحكام لابن حزم 12/2 .
(213) أخرجه أصحاب السنن الأربعة ، وانظر الإحكام لابن حزم 15/2 .
(214) البخارى مع الفتح 310/1 ح 132 .
(215) الآية الأولى من سورة الطلاق ، صحيح مسلم 1118/2-1119 ح46 .
(216) أخرجه مسلم 81/1 .

* نقد عائشة رضي الله عـــنها للمرويات: تعتـــبر عائشة مـــن أكثر الصـــحابة فحصـــاً للمرويات واستدراكا على الرواية ، وقد جمع بدر الدين الزركشي ذلـــك في كتاب سماه: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ، جمع فيه أكثر من سبعين حديثا من استدراكاتها.

ومن ذلك أنها سمعت حديث عمر يرفعه[217] : "إن الميت ليعذب ببكـــاء أهلـــه عليه" فقالت : "رحم الله عمر ، ما حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يعذب المؤمنين ببكاء أحد ، ولكن قال: "إن الله يزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه" ، وقالت: حسبكم القرآن : {ولا تزر وازرة وزر أخرى} ، وفي رواية مسلم : "إنكم لتحـــدثوني عن غير كاذبين ولا مكذبين ، ولكن السمع يخطيء".

و- الاحتياط في أداء الحديث بلفظه :

لقد تبين لنا في المباحث السابقة أهم معالم منهج الصحابة في حماية السنة ، وشـــدة ورعهم في ذلك ، وخوفهم من الوقوع في الخطأ على النبي صـــلى الله عليـــه وســـلم ، وحرصهم على بيان منهج التحري والدقة والتثبت لمن بعدهم ، فكانوا يقلون من الرواية مع ضمان نشر السنة بدقة وتحرٍّ ، وكانوا يتثبتون غايـــة التثبـــت في قبـــول الأخبـــار ويفحصون الروايات حتى لا يتزيد أحد على السنة ، وحتى يقوم الحفاظ المتقنون بـــأداء الأمانة ، ويحجم الناسي وقليل الحفظ فلا يحدث بشيء ، ومما يكتمل به بيان منهجهم ما عرف عنهم من الحرص الشديد على تحري لفظ الحديث عند الأداء والرواية ، وعـــدم روايتهم للحديث بالمعنى إلا بشروط وضوابط دقيقة يستحيل معها تغيير شيء من معناه الذي قصده الشارع ، فهم يدركون تماما أن السنة دين ، وأنهم يبلغون في ذلك عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فكان منهجهم العام هو المحافظة علـــى لفـــظ الحـــديث وروايته كما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ، تطبيقا لتوجيه النبي صـــلى الله عليـــه وسلم في ذلك إذ قال: "نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فأداه كما سمعه"[218] ، كمـــا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد علّم البراء بن عازب حديث النوم ، قال البراء: "فقلـــت

---

(217) البخارى مع الفتح 496/3 ح 1286 .

(218) سنن الترمذى 33/5 ح2656 .

كما علّمني ، غير أني قلت "ورسولك" فقال بيده في صدري "وبنبيك"[219] .

من نماذج ذلك ما يلي :

* قال الخطيب البغدادي : "كان ابن عمر إذا سمع الحديث لم يزد فيه ، ولم ينقص منه ، ولم يجاوزه ، ولم يقصر عنه"[220] .

* وعن محمد بن سوقة قال: سمعت أبا جعفر يقول: كان عبد الله بن عمر إذا سمع من نبي الله صلى الله عليه وسلم شيئا أو شهد معه مشهدا ، لم يقصر دونه أو يعـــدوه ، قال : فبينما هو جالس وعبيد بن عمير يقص على أهل مكة إذ قال عبيد بن عمير: مثل المنافق كمثل الشاة بين الغنمين إن أقبلت إلى هذه الغنم نطحتها وإن أقبلـــت إلى هـــذه نطحتها ، فقال له عبد الله: ليس هكذا ، فغضب عبيد بن عمير ، وفي المجلس عبـــد الله ابن صفوان ، فقال: يا أبا عبد الرحمن ، كيف قال رحمك الله؟ فقال: قال: مثل المنـــافق مثل الشاة بين الربيضتين ، إن أقبلت إلى ذا الربيض نطحتها ، وإن أقبلت إلى ذا الربيض نطحتها ، فقال له : رحمك الله هما واحد ، قال : كذا سمعت[221] .

* وروى ابن عمر حديث بني الإسلام على خمس ، فأعاده رجـــل وأخـــل فيـــه بالترتيب ، فقال له ابن عمر: "لا ، اجعل صيام رمضان آخرهن ، كما سمعـــت مـــن في رسول الله صلى الله عليه وسلم"[222] .

* وعن العلاء بن سعد بن مسعود قال: قيل لرجل مـــن أصـــحاب رســـول الله صلى الله عليه سلم: مالك لا تحدث كما يحـــدث فـــلان وفـــلان؟ فقـــال: مـــا بي ألا أكون سمعت مثل ما سمعوا أو حضرت مثل ما حضروا ، ولكن لم يدرس الأمـــر بعـــد ، والناس متماسكون ، فأنا أجد من يكفيني ، وأكره التزيد والنقصان في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم"[223] .

---

(219) الكفاية 175 .
(220) الكفاية 206 .
(221) مسند أحمد 297/7 .
(222) الكفاية 176 .
(223) الكفاية 172 .

* وقال عمر رضي الله عنه: "من سمع حديثا فحدث به كما سمع فقد سلم"[224].

وروي نحو هذا عن عبد الله بن عمر وزيد بن أرقم.

* وعن خالد بن زيد الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: "قـريش والأنصار ، وأسلم وغفار– أو غفار وأسلم"[225] ، فبيّن موضع شكه حيث لم يتأكد من الترتيب في سياق ما سمعه من النبي صلى الله عليه سلم.

وقال الأعمش عن الصحابة : "كان هذا العلم عند أقوام ، كان أحدهم لأن يخر من السماء أحب إليه من أن يزيد فيه واوا أو ألفا أو دالا"[226] .

هذا وغيره من الأمثلة كثير يدل على التزام الصحابة لأداء الحديث بلفظه الـذي صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ملتزمين في ذلك بتوجيهات النبي صلى الله عليـه وسلم ، كما تقدم .

كان ذلك هو مسلك عامة الصحابة لما عرفنا من إحساسهم بالأمانة ووقوفهم عند حدود الله ، وذمتهم في رواية الأخبار وتحفظهم وتثبتهم فيمـا يسـمعون ويـروون ، بالإضافة إلى ما حباهم الله به من قوة الحافظة ومتانة الدين .

ومع هذا يوجد عدد من الصحابة وإن لم يكن كبيرا –إذا صح النقـل عنـهم– يجيزون الرواية بالمعنى بضابطين :

الضابط الأول : الضرورة الملجئة إلى ذلك ، حيث يحتاج للحديث للتبليغ عـن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يتذكر الراوي اللفظ بدقة ، فيرويه أو يروي بعضـه بلفظ مقارب .

الضابط الثاني : التيقن الكامل من أن المعنى دال على مراد الشـارع دون أدنى تغيير في الحكم ودون زيادة أو نقصان ، وهذا ممكن لهم لأنهم أهل اللغة ، مع ملازمتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك مستبعد من غيرهم من حيث الجملة ، ولهذا قال ابن العربي: "إن غير الصحابة ممنوعون من رواية الحديث بالمعنى ، وإنما جاز للصحابة ذلـك

(224) الكفاية **172** .
(225) الكفاية **177** .
(226) الكفاية **178** .

لأهم اجتمع فيهم أمران عظيمان :

أحدهما : الفصاحة والبلاغة ، إذ جبلتهم عربية ولغتهم سليقة .

الثاني : أهم شاهدوا قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله فأفادهم المشاهدة عقل المعنى جملة ، واستيفاء المقصد كله ، وليس من أُخبر كمن عاين"(227) .

وممن نقل عنهم من الصحابة جواز الرواية بالمعنى بهذه الضوابط:

علي وابن عباس وأنس وأبو الدرداء وأبو هريرة رضي الله عنهم.

وقد روي في ذلك حديث ضعيف عن سليمان بن أكيمة الليثي قال: قلت يا رسول الله ، إني أسمع منك الحديث لا أستطيع أن أرويه كما أسمع منك ، يزيد حرفا أو ينقص حرفا ، فقال عليه الصلاة والسلام : " إذا لم تحلوا حراما ولم تحرموا حلالا وأصبتم المعنى فلا بأس"(228) .

أما بالنسبة لغير الصحابة فقد أجمع أهل العلم على عدم جواز الرواية بالمعنى لمن لم يكن عالما باللغة ومدلولاتها ومقاصدها وأساليب بلاغتها ، ولا خبيرا بما يحيل معانيها ، ولا بصيرا بمقادير التفاوت بينها . ثم اختلفوا بعد ذلك في جواز الرواية بالمعنى بالنسبة للعالم العارف بكل ما تقدم ، فمنعها بعض العلماء بإطلاق ، وأجازها آخرون بشروط متعددة ، أهمها :

- أن يكون عالما بدقائق الألفاظ ، بصيرا بمقدار التفاوت بينها ، خبيرا بما يحيل معانيها ، ضابطا لفقه الحديث وأحكامه وفوائده ، عالما بالمحتمل وغير المحتمل ، والظاهر والأظهر ، والعام والأعم.
- أن تكون الرواية في خبر ظاهر الدلالة ، أما الخبر المحتمل لعدة معان فلا يجوز فيه ذلك .
- ألا تكون رواية الحديث بالمعنى قاصرة عن الأصل في إفادة المعنى والحكم.
- ألا يكون من جوامع كلم النبي صلى الله عليه وسلم ، أو مما تُعبّد بلفظه

(227) أحكام القرآن **10/1** .

(228) انظر مجمع الزوائد **154/1** ، وعزاه القاسمي لابن عبد البر ، قواعد التحديث **208** .

كأذكار الصلاة ونحوها.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن الخلاف في جواز نقل الحديث بالمعنى إنما هو فيما لم يدون ولم يودع في المصنفات ، أما ما دخل منه في المصنفات فلا يجوز تبديل ألفاظه من غير خلاف بين أهل العلم(229) .

بهذه المعالم المتعددة ندرك دقة منهج الصحابة في حماية سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم تحملا وأداء وتثبتا وفحصا ، حتى أدوا الأمانة على وجهها ، رضوان الله عليهم أجمعين.

2- أهم معالم منهج التابعين في حفظ السنة وحمايتها :

إن التابعين هم أقرب الناس إلى الصحابة من حيث الاقتداء والاهتداء ، والتدين والورع ، والعلم والاجتهاد ، والحرص الصادق على حماية الدين ، واستشعار المسؤولية الملقاة على عواتقهم في ذلك وإدراك الأمانة العظمى التي ينبغي عليهم أداؤها ، فساروا على خطى الصحابة في جميع ما تقدم تعلما وتعليما وتثبتا وفحصا واحتياطا للسنة المطهرة.

ولقد توسعت رقعة البلاد الإسلامية في هذا العهد ، وكثر عدد الداخلين للإسلام من أهل الديانات الأخرى ، كاليهود والنصارى ، كما كثر عدد الداخلين للإسلام من أهل الأجناس الأخرى كالفرس والروم وغيرهم ، وكان لكل هؤلاء ثقافاتهم ومعتقداتهم ، وكان هؤلاء الداخلون للإسلام فريقين من حيث الجملة :

– فريق دخل الإسلام بصدق وإخلاص ، وهم النسبة الغالبة بحمد الله .

– وفريق دخل الإسلام لإفساده وتخريبه من داخله ، وهم أقلية ، ومن أساليبهم في ذلك الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ومزج السنة بما ليس منها لإدخال

(229) للتوسع فى موضوع الرواية باللفظ والمعنى راجع : الكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادى198– 213 ، فتح المغيث للسخاوى 48/3 ، تدريب الراوى للسيوطى 311 ، توجيه النظر للجزائرى 298 ، الرسالة للشافعى 744 ، السنة قبل التدوين 126 ، المستصفى للغزالى 168/1 .

معتقدات باطلة وأفكار خاطئة ليست من دين الله في شيء كما فعل عبد الله بن سبأ اليهودي وطائفته.ومن هنا برزت الحاجة الملحة إلى مزيد من التيقظ من قبل أهل العلم لحماية السنة من التغيير والتحريف ، ولرد كيد الأعداء في نحورهم وصيانة السنة من شرورهم حتى تبقى صافية كما صدرت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد هيأ الله لهذه المهمة السامية علماء التابعين ، فقاموا بها خير قيام ، ووجدوا في جهود الصحابة في ذلك نبراسا يضيء لهم الطريق ، فاستفادوا من ذلك المنهج وطوروه لمواجهة مستجدات عصرهم .

وليس من غرض هذا المبحث استقصاء جهودهم فإن ذلك يطول ، إنما الغرض إبراز أهم معالم منهجهم لندرك مدى العناية التي أولاها أولئك الكرام لخدمة السنة المطهرة ، وضرْب أمثلة يستدلّ بها على ما سواها :

أ- سلوك التابعين منهج الصحابة في محبة السنة وطلبها وحمايتها ومذاكرتها ، والاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم :

كانت عاطفة التابعين جياشة بحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام ، وحب الصحابة الذين نقلوا إليهم تعاليم هذا الدين ، فتأسى بهم التابعون في الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبة سنته ، وتأثروا بهم في ذلك ، فكانوا قدوة وأساتذة لهم ، تعلموا منهم العلم والعمل والأدب ، وتلقوا عنهم الحديث وفقهه ، وسألوهم عن أحوال النبي صلى الله عليه وسلم جميعها ، وحفظوها وعملوا بها وحموها وبلّغوها مَنْ وراءهم .

وكانوا يقبلون بشغف عظيم على طلب الحديث ثم يتذاكرونه فيما بينهم ليحفظوه ويحافظوا على لفظه كما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ، قال عطاء: "كنا عند جابر ابن عبد الله فيحدثنا ، فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه ، فكان أبو الزبير من أحفظنا حديثا"[230].

وقال إسماعيل بن أبي خالد: "كان الشعبي وأبو الضحى وإبراهيم النخعي وأصحابنا يجتمعون في المسجد فيتذاكرون الحديث ، فإذا جاءهم شيء وليس فيه رواية

(230) سنن الدارمي 149/1 .

رموا أبصارهم إلى إبراهيم"[231].

وقد تتلمذ على كل صحابي عدة مئات بل أحيانا عدة آلاف يحملون علمه ويعملون بتوجيهاته ، قال أنس بن سيرين: "قدمت الكوفة قبل الجماجم فرأيت أربعة آلاف يطلبون الحديث"[232] .

وفي عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي كان المسجد الحرام يغص بطلاب العلم من التابعين ، فسأل عن شيوخ هذه الحلقات فكان منهم: عطاء وسعيد بن جبير ، وميمون بن مهران ، ومكحول ومجاهد وغيرهم ، فحث أبناء قريش على طلب العلم والمحافظة عليه[233] .

وكانت حلقة أبي الدرداء وحدها في جامع دمشق تضم أكثر من ألف وخمسمائة طالب من التابعين عدا حلقات غيره من العلماء[234] .

وكان الصحابة يرحبون بتلاميذهم من التابعين ويوجهونهم إلى طلب الحديث ومذاكرته ، ويذكرونهم بمسؤولية تبليغه ، من ذلك قول ابن عباس للتابعين: "تذاكروا الحديث فإنه ليس بمنزلة القرآن ، القرآن مجموع محفوظ . وإنكم إن لم تذاكروا هذا الحديث تفلت منكم ، ولا يقل أحدكم حدثت أمس لا أحدث اليوم ، بل حدّث أمس وحدث اليوم وحدث غدا"[235] .

وكان أبو سعيد الخدري يقول لطلابه: "تحدثوا فإن الحديث يذكّر بعضه بعضا"[236] .

وقال أبو أمامة الباهلي لتلاميذه : "إن هذا المجلس من بلاغ الله إياكم ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ ما أرسل به ، وأنتم فبلغوا عنا أحسن ما

(231) سنن الدارمى 149/1 .
(232) المحدث الفاصل 81 .
(233) المحدث الفاصل 35 .
(234) التاريخ الكبير لابن عساكر 69/1 .
(235) شرف أصحاب الحديث 99 .
(236) شرف أصحاب الحديث 105 .

تسمعون" ، وكان يقول : "اعقلوا ، بلغوا عنا كما بلغناكم"[237] .

وكان التابعون يشجعون أبناءهم على طلب الحديث ، ويقدمون لهم الجوائز على حفظه ، قال إبراهيم بن أدهم : قال لي أبي : يابني اطلب الحديث ، فكلما سمعت حديثا وحفظته فلك درهم ، فطلبت الحديث على هذا[238] .

وقد تفاوت التابعون في رواية الحديث قلة وكثرة كما هو الحال على عهد الصحابة ، فمنهم مكثرون ، مثل عامر الشعبي ، وشعبة بن الحجاج ، وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبير ، وغيرهم.ومنهم المقل ، مثل أبي قلابة ، قال أبو خالد الحذاء: كنا نأتي أبا قلابة ، فإذا حدثنا بثلاثة أحاديث قال : قد أكثرت[239] .

ب - وضع الضوابط لصيانة السنة[240] :

عندما ظهرت الفتن ، وبرزت الفرق المنحرفة ، وبدأت ظاهرة الوضع في الحديث كان التابعون قد جعلوا جملة من القوانين والضوابط المتعلقة بتحمل السنة وأدائها ، ومواصفات رواتها ، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

1- قال محمد بن سيرين: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدعة فلا يؤخذ حديثهم".

2- وقال عبد الله بن ذكوان: "أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمونون ما يؤخذ عنهم الحديث ، يقال: ليس من أهله" ، أي إنهم ليسوا من المشتغلين بعلم الحديث المتقنين له ، وإن كانوا عدولا أمناء .

3- وقال أيوب السختياني : "أرأيت رجلا لا تأمنه على دينه فكيف تأمنه على الحديث".

---

(237) شرف أصحاب الحديث **105** .

(238) شرف أصحاب الحديث **90** .

(239) مقدمة التمهيد لابن عبد البر .

(240) انظر : منهج النقد فى علوم الحديث **59** ، نزهة النظر **8** ، السنة قبل التدوين **220** ، مقدمة صحيح مسلم ، مقدمة التمهيد لابن عبد البر .

4- وقال شعبة بن الحجاج : "خذوا العلم عن المشهورين" ، وقال: "التدليس في الحديث أشد من الزنا".

5- وقال عقبة بن نافع : "لا تقبلوا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عن ثقة".

وسيأتي مزيد بيان لمعالم منهج التابعين في مواضعه من البحث .

ثالثا: منهج الصحابة والتابعين في التعليم(241) :

راعى الصحابة والتابعون جملة من الضوابط في تعليم الحديث يمكن اختصارها في ما يلي :

1- العناية بالناشئة :

وذلك لأنهم حملة الأمانة من بعدهم ، من ذلك قول عمرو بن العاص رضي الله عنه : "مالكم قد طرحتم هذه الأُغَيلمة؟ لا تفعلوا أوسعوا لهم في المجلس ، وأسمعوهم الحديث ، وأفهموهم إياه ، فإنهم صغار قوم أوشكوا أن يكونوا كبار قوم ، وقد كنتم صغار قوم فأنتم اليوم كبار قوم"(242) ، وأوصى عروة بن الزبير بذلك طلابه وبنيه(243) ، وكذا فعل غيره من التابعين.

2- مراعاة أحوال المحدثين:

حرص الصحابة والتابعون على اعتبار مستوى الطلاب عند التحديث ، فيحدثونهم بما يناسب مداركهم ، ويبينون لهم من الفقه ما يستطيعون فهمه ، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "ما أنت محدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم"(244)، وقال أيوب السختياني:"لا تحدثوا الناس بما لا يعلمون فتضروهم"(245).

3- تحري أهلية السامع :

كانوا يحرصون على أن يكون حفظة الحديث وطلبته من أهل الاستقامة والجد ،

(241) انظر : السنة قبل التدوين 153 – 162 .
(242) شرف أصحاب الحديث 9 .
(243) طبقات ابن سعد 134/2 .
(244) تذكرة الحفاظ 15/1 .
(245) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع 129 .

ويحذرون من أن يحمله السفهاء وأهل الأهواء فيخدعون به الناس وينزلــون بــه عــن مكانته ، ولا يُظن أن في هذا منعا لنشر العلم ، وإنما كان منهجهم في ذلــك يرمــي إلى الحفاظ على السنة وحمايتها ، قال الأعمش: "من إضاعة الحديث التحديث به عند غــير أهله"(246) ، وقال الزهري: "وهُجْنته (أي الحديث) نشره عند غير أهله"(247) .وكان زائدة بن قدامة لا يحدث أحدا حتى يمتحنه ويسأل عنه ، فسئل عن ذلك فقال : "أكــره أن يكون العلم عندهم (أي أهل الأهواء) فيصيروا أئمة يُحتاج إليهم فيبــدلوا كيــف شاءوا"(248) .

4- طلب القرآن أولا ثم طلب السنة :

كانوا يحرصون على حفظ القرآن أو بعضه قبل الإقبال على الحديث حتى يُــبنى علم السنة على علم الكتاب ، قال حفص بن غياث: أتيت الأعمش فقلت: حــدثني ، قال : أتحفظ القرآن؟ قلت: لا ، قال: اذهب فاحفظ القرآن ثم هلم أحــدثك ، قــال : فذهبت فحفظت القرآن ثم جئته ، فاستقرأني فقرأته ، فحدثني(249) .

5- البعد عن الغريب والمنكر من الحديث :

خشي الصحابة والتابعون أن يدخل في السنة ما ليس منــها ، فــأمروا بنشــر الأحاديث التي يعرفها الحفاظ ويتداولونها ، قال علي رضي الله عنه: "حدثوا الناس بمــا يعرفون ودعوا ماينكرون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟"(250) ،قال الذهبي معلقــا: "فقد زجر الإمام علي رضي الله عنه عن رواية المنكر ، وحث على التحديث بالمشهور ، وهذا أصل كبير في الكف عن بث الأشياء الواهية والمنكرة من الأحاديث في الفضــائل والعقائد والرقائق ، ولا سبيل إلى معرفــة هــذا مــن هــذا إلا بالإمعــان في معرفــة

---

(246) المحدث الفاصل 141 .
(247) المحدث الفاصل 142 .
(248) المحدث الفاصل 19 .
(249) المحدث الفاصل 19 .
(250) تذكرة الحفاظ 12/1 .

الرجال"[251] .

6- التنويع والاختصار دفعا للملل :

وذلك لتجديد النشاط الذهني ، وحتى لا يسأم الناس الحديث ، قالت عائشة رضي الله عنها: "إياك وإملال الناس وتقنيطهم"[252] ،وقال الزهري: "إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب"[253] .

7- توقير الحديث والاستعداد لمجالسه :

كان الصحابة والتابعون يعظمون حديث النبي صلى الله عليه وسلم ويستعدون لمجالسه بالوضوء ولبس أحسن الثياب ، والتأدب في المشي إليها ، وكذا عند التحديث أو الاستماع ، فعن ضرار بن مرة قال : "كانوا يكرهون أن يحدثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على غير وضوء"[254] .

وأراد سعيد بن المسيب أن يحدث وهو على فراش الموت فقال: أجلسوني فإني أكره أن أحدث حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجع"[255] .

وقال أبو العالية: "إذا حدثت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً فازدهر"[256] .

وقال الرامهرمزي: "كانوا يتطهرون عندما يتصدرون للتحديث ، فيلبس العالم أحسن ثيابه ، ويتوضأ وضوءه للصلاة.." [257] .

8- الانضباط في حضور مجالس التحديث :

لم يكن حضور مجالس الحديث عند المتقدمين للتسلية وشغل أوقات الفراغ ، ولكنهم كانوا يدركون أنها الوسيلة لتعلم الدين ، فكانوا يحضرون في أوقات معينة يعرفها

---

(251) تذكرة الحفاظ 12/1 .
(252) الجامع لأخلاق الراوى 136 .
(253) الجامع لأخلاق الراوى 136 .
(254) جامع بيان العلم 198/2 .
(255) جامع بيان العلم 199/2 .
(256) المحدث الفاصل 146 .
(257) المحدث الفاصل 146 .

الجميع بتحديد الشيخ لها ، فيتسابق الطلاب إلى الحلقة قبل انعقادها ليتخذوا أماكنـــهم قريبا من المحدث ، فإذا حضر الشيخ كان الجميع على استعداد للتلقي عنه ، وقد يغيب طالب فيسأل عنه الشيخ ليعرف سبب غيابه ، وقد يكلف بعض الطلاب بالسؤال عنه ، فإذا كان مريضا زاروه ، وإذا كان غافلا ذكروه ، وإذا كان محتاجا لِعَون ساعدوه.

9- مذاكرة الحديث :

كان الصحابة والتابعون قد اتخذوا المذاكرة الفردية والجماعية منهجا ثابتا لتثبيت حفظ الحديث ، بل كانوا ينتهزون كل فرصة لذلك ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: "كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فعسى أن نكون ستين رجلا ، يحدثنا الحديث ثم يريد الحاجة ، فنتراجعه بيننا ، فنقوم كأنما غرس في قلوبنا"(258) .

وقال أيضا : "كنا نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسمع منه الحديث فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه"(259) .

وعن أبي هريرة قال: "إني لأجزئ الليل ثلاثة أجزاء ، فثلث أنام ، وثلث أقـــوم – أي للصلاة– وثلث أتذكر أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم"(260) .

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: "إحياء الحديث مذاكرتـــه ، فتـــذاكروه ، فقـــال عبد الله بن شداد: يرحمك الله كم من حديث أحييته من صدري قد كان مات"(261) .

وعن مسلم البطين قال: "رأيت أبا يحيى الأعرج– وكان عالما بحديث ابن عباس– اجتمع هو وسعيد بن جبير في مسجد الكوفة فتذاكرا حديث ابن عباس"(262) .

بهذا المنهج البديع في التعليم حفظت السنة ، وانتشرت في الآفاق كما سيتضح في المبحث التالي :

(258) انظر الإلماع 142 .
(259) الجامع لأخلاق الراوى 46 .
(260) سنن الدارمى 82/1 .
(261) الجامع لأخلاق الراوى 191 .
(262) الجامع لأخلاق الراوى 184 .

رابعا: انتشار السنة في هذا العصر[263] :

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة على وجهها ، وعم الإسلام جزيرة العرب ، فأصبحت منطلق الهداية والنور إلى الأرض جميعها ، وفي سنة 17 فتحت كامل بلاد الشام (فلسطين والأردن وسوريا ولبنان) ، والعراق ، وفتحت مصر سنة 21 ، وفتحت فارس سنة 21 ، ثم كانت فتوحات إفريقية والمغرب والأندلس التي انتهت سنة 93 ، وفي الشرق وصلت الفتوحات إلى مشارف بلاد الصين سنة 97هـ .

و لم يكن الفاتحون غزاة متوحشين ، بل كانوا حملة رسالة هادين مهتدين ، غرضهم إنقاذ الناس بإذن الله من النار باعتناق دين الإسلام العظيم وتوحيد الله رب العالمين .

وكان الصحابة – حملة الأمانة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم– هم قادة جيوش الفتح وطلائعها ، فكلما دخلوا بلدا بنوا فيه المساجد ، وأقام فيه بعضهم لتعهد المسلمين بالرعاية ولنشر الدعوة بين من لم يسلم ، وكان الخلفاء يوجهون العلماء إلى كل البلاد لنشر علوم الكتاب والسنة فاستوطن كثير من الصحابة والتابعين بلادا نائية عن جزيرة العرب ، وماتوا بها ودفنوا في أرضها ونسبوا إليها.

وعندما يشاهد أهل البلاد المفتوحة ما عليه الصحابة الكرام من التواضع والإحسان والعدل فإنهم يدركون أنهم أمام نوعية جديدة من الناس هذبها الإسلام ورباها نبيه صلى الله عليه وسلم فيتسابقون إلى دين الله طائعين ويلتفون حول الصحابة متعلمين ، وقد برز منهم بعد ذلك علماء أفذاذ تخرجوا على أيدي الصحابة والتابعين ، وكان لهم إسهامهم الوافر في خدمة علوم الإسلام .

ولم تلبث حواضر العالم الإسلامي المفتوحة ، بل ومدنه الصغيرة أن أصبحت مراكز علمية يحتشد فيها الطلاب للتعلم ، وكادت تنافس في ذلك مراكز العلم الأساسية التي أمدت هذه الأقطار بالعلماء ، ولا يخفى أن انتشار العلم يقاس بكثرة مراكزه وأساتذته وطلابه ، وفيما يلي بيان ذلك باختصار:

---

(263) انظر : السنة قبل التدوين 163-175 ، دراسات فى السنة النبوية 95-97 ، مدرسة الحديث فى القيروان 463/2-539 .

1- المدينة المنورة :

يشهد التاريخ لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم أنها كانت أقوى المراكز العلمية في بلاد الإسلام على الإطلاق ، عاش فيها الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ولاحظ المسلمون كل تصرفاته وأحواله ، وبها نزل القسم الأكبر من القرآن ، وفيها تمهد أمر التشريع في جوانب العبادات والمعاملات وفي الحرب والسلم ، وقد حرص الصحابة على مجاورة النبي صلى الله عليه وسلم وملازمته للأخذ عنه ، فلم يعد أكثرهم إلى بلده أو قبيلته ، فكانت المدينة المنورة تعج بالصحابة وتشع بنور العلم ، فكل منهم يعتبر مدرسة تخرج عليها بعد ذلك مئات من التابعين ، ومن أشهر هؤلاء الصحابة المدنيين: الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وأبو هريرة وعائشة أم المؤمنين ، وعبد الله ابن عمر وأبو سعيد الخدري وزيد بن ثابت وغيرهم.

وعلى يد هؤلاء الصحابة تخرجت الطبقة الأولى من علماء التابعين بالمدينة ، مثل سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، ومحمد بن شهاب الزهري ، وعبيد الله بن عتبة ابن مسعود ، وسالم بن عبد الله بن عمر ومحمد بن المنكدر ، وغيرهم ممن أخذ علم الصحابة ، وأصبح مرجعا في علوم الكتاب والسنة والقضاء والفتوى .

2- مكة المكرمة :

لما فتح الله مكة لنبيه صلى الله عليه وسلم ودخل أهلها ومن جاورها في دين الله أفواجا خلّف فيهم جماعة من الصحابة يفقهونهم في الدين ، ويعلمونهم القرآن والسنة ، على رأسهم: معاذ بن جبل ، وخالد بن أسيد ،والحكم بن أبي العاص وعثمان بن طلحة ، ثم التحق بهم غيرهم بعد ذلك مثل عبد الله بن عباس .

وقد تخرج على يد هؤلاء الصحابة جماعة كثيرة من علماء التابعين ، منهم : مجاهد ابن جبر وعطاء بن أبي رباح وطاوس بن كيسان وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد ابن جبير ، وغيرهم.وكان الصحابة والتابعون يأتون مكة للحج وللرواية فيحمل الناس عنهم علمهم وينشرونه في الآفاق .

3- الكوفة :

فتحت الكوفة في عهد عمر فأرسل إليهم ابن مسعود في وفد من الصحابة

لتعليمهم ، وقد نزل الكوفة ثلاثمائة من أهل بيعة الرضوان ، وسبعون بدريا ، من أشهرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .

وقد تخرج عليهم عدد كبير من علماء التابعين وحفاظهم ، فقد كان تلاميذ ابن مسعود الملازمون له ستين شيخا ، عدا تلاميذ غيره من الصحابة ، ومن أشهرهم :

عامر بن شراحيل الشعبي وسعيد بن جبير الأسدي وإبراهيم النخعي وأبو إسحاق السبيعي ، وغيرهم .

4- البصرة :

كانت البصرة مع الكوفة قاعدتي الفتح الإسلامي في خراسان وفارس والهند ، ولهذا كان حظهما من علم الصحابة كبيرا ، فممن نزل البصرة وعلم بها من الصحابة : أنس بن مالك وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن عباس وعتبة بن غزوان وعمران ابن حصين وأبو برزة الأسلمي .

وقد تخرج عليهم كثير من علماء التابعين ، أشهرهم: الحسن البصري الذي أدرك خمسمائة من الصحابة ، ومحمد بن سيرين وأيوب السختياني وبهز بن حكيم وعبد الله بن عون وقتادة بن دعامة .

5- الشام :

دخل الشام أكثر من عشرة آلاف من الصحابة الكرام ، ثم أمدهم عمر بوفد للتعليم خاصة فيه معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء ، ثم لحقهم عبد الرحمن ابن غنم ، فانتشروا في نواحي بلاد الشام معلمين.

وممن استوطنها من الصحابة أيضا: عبد الرحمن بن يزيد الأزدي ، وأبو عبيدة بن الجراح وبلال بن رباح وخالد بن الوليد والفضل بن عباس وعوف بن مالك وغيرهم.

وقد تخرج عليهم عدد وافر من علماء التابعين ، منهم: سالم بن عبد الله المحاربي ، وعائذ بن عبد الله الخولاني ، وأبو سليمان الداراني وعمير بن هانئ وغيرهم .

6- مصر:

دخل مصر عدد كبير من الصحابة ، واستقر بها كثير منهم ، وطال مقامهم بها ، وأخذ عنهم الحديث عدد كبير من أهلها وممن أقام بها من التابعين ،ومن هؤلاء الصحابة:

عمرو بن العاص وابنه عبد الله ، والزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت ، وعقبة ابن عامر ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ومعاوية بن خديج ، وغيرهم.

وقد تخرج على أيديهم كثير من محدثي التابعين ، منهم: يزيد بن أبي حبيب ، وعمر بن الحارث ، وعبد الله بن سليمان ، وعبد الرحمن بن شريح ، وحيوة بن سريج وغيرهم .

7- إفريقية والمغرب والأندلس :

دخل عدد كبير من الصحابة إفريقية والمغرب فاتحين ومعلمين ، ونشروا فيها علوم الكتاب والسنة ، وقد استمر قدومهم إليها بين سنتي 27هـ و78هـ ، ومنهم جماعة من المكثرين من الرواية مثل : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن مسعود ، وعبد الله بن عمرو ، وجبلة بن عمرو الأنصاري ، ورويفع بن ثابت الأنصاري ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وسفيان بن وهب الخولاني الذي طال مقامه بها وانتفع أهلها بعلمه ، وأبي زمعة البلوي وقد دفن بالقيروان ، وغيرهم .

وقد انتشرت السنة بإفريقية والمغرب على يد هؤلاء الصحابة ، وزادت انتشارا عن طريق من دخلها وطال مكثه بها من التابعين ، بل إن عمر بن عبد العزيز قد أرسل إلى القيروان بعثة تتكون من عشرة من التابعين لتفقيه أهل القيروان وإفريقية ، ومن أشهر هؤلاء التابعين : إسماعيل بن أبي المهاجر ، وبكر بن سوداة ، وحبان بن جبلة ، وسعد بن مسعود التجيبي ، وعبد الرحمن بن رافع ، وعبد الله بن المغيرة ، وإسماعيل بن عبيد ، وغيرهم . أما الأندلس فلم يثبت دخول أحد من الصحابة إليها ، وإنما دخلها عدد من التابعين ، كان لهم الفضل في غرس نواة علوم السنة بها .

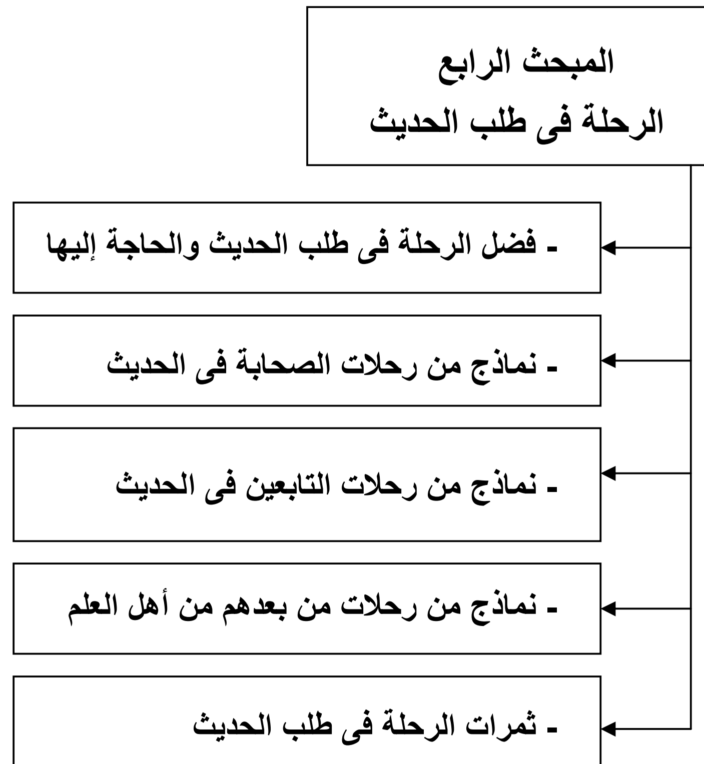
8- وقد دخل عدد كبير من الصحابة والتابعين بلاداً أخرى كثيرة ، نشروا فيها علوم الرواية المتعلقة بالكتاب والسنة ، مثل اليمن ، وخراسان وبخارى وسمرقند وغيرها. وكان هدفهم الأسمى نشر الإسلام وما أخذوه من العلم ، ومساعدة الناس على سلوك طريق الهداية متوخين في ذلك أرفق السبل وأيسر المناهج وأرحمها ، فأحبهم أهل البلاد المفتوحة ، ودخلوا في دين الله أفواجا ، ونبغ كثير منهم في العلم حتى أصبحوا من أئمة الإسلام .

المراجع المساعدة

1- السنة قبل التدوين للخطيب: 75 – 175 .
2- السنة ومكانتها في التشريع للسباعي: 56 ، 62- 71 .
3- الحديث والمحدثون لأبي زهو: 63- 79 .
4- السنة للسلفي 181 – 188 .
5- منهج النقد في علوم الحديث للعتر 37 .
6- دراسات في السنة النبوية 81- 98 .
7- معالم السنة النبوية للعتر 38- 58 .

أسئلة التقويم الذاتي :

1- ما هو موقف الصحابة من السنة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم؟
2- اذكر خمسة نماذج من اقتداء الصحابة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، مع التعليق عليها.
3- اذكر خمسة نماذج من أقوال التابعين في مجال التمسك بالسنة ، مع التعليق عليها.
4- تحدث عن احتياط الصحابة والتابعين في تلقي الحديث وروايته.
5- قارن بين منهجي الإقلال والإكثار من الرواية ، وكيف خدم كل منهما السنة.
6- كيف كان الصحابة والتابعون يتثبتون في قبول الحديث ويفحصون المرويات؟
7- وضح وجه مسالك الصحابة في الإقلال من الرواية ، وادفع الشبهات حول ذلك .
8- هل كان الصحابة يشترطون راويين للحديث؟ مع الاستدلال.
9- ماهي عوامل الإكثار من رواية الحديث في ذلك العصر؟
10- هل جمع الصحابة كل السنة وما درجاتهم في ذلك؟
11- من هم المكثرون من الرواية وعدد مرويات كل منهم؟
12- هل روي الحديث في ذلك العصر باللفظ أم بالمعنى؟
13- هل هناك خاصية للصحابة في باب الرواية بالمعنى؟
14- ما حكم الرواية بالمعنى؟
15- اذكر أهم ملامح منهج الصحابة والتابعين في نشر السنة؟
16- اذكر خمسة من أهم حواضر العالم الإسلامي التي انتشرت فيها السنة آنذاك ، مع التمثيل لمن نزلها من الصحابة والتابعين .
17- اكتب خمس صفحات بتعبيرك تضمنها عصارة ما خرجت به من هذا المبحث.


المبحث الرابع
الرحلة فى طلب الحديث
- فضل الرحلة فى طلب الحديث والحاجة إليها
- نماذج من رحلات الصحابة فى الحديث
- نماذج من رحلات التابعين فى الحديث
- نماذج من رحلات من بعدهم من أهل العلم
- ثمرات الرحلة فى طلب الحديث

المبحث الرابع
الرحلة في طلب الحديث

الأهداف الخاصة

1- معرفة فضل الرحلة في طلب الحديث والحاجة إليها .

2- الاطلاع على نماذج كافية من رحلات الصحابة والتابعين ومن بعـــدهم من أهل العلم في طلب الحديث .

3- الوقوف على ثمرات الرحلة في طلب الحديث .

4- الاستفادة العملية من هذا المسلك في طلب العلم ، وتحمل مشاق الرحلة وغيرها من أجل تحصيله .

5- المقارنة بين صعوبة ظروف السابقين وأنها لم تثنهم عن التفقه في الدين ، وبين يسر أحوالنا مع تقاعسنا عن واجب طلب العلم .

المبحث الرابع
الرحلة في طلب الحديث[264]

أ- فضل الرحلة في طلب الحديث والحاجة إليها :

تفرق الصحابة رضوان الله عليهم في الأمصار بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لبث العلم ونشر السنة وتفقيه المسلمين ، والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله ، وكان السبيل الوحيد لجمع علم الصحابة وسماع الأحاديث المنتشرة في مختلف البلاد هو الرحلة في طلبها .

وكان الصحابة الكرام هم أول من تحمل المشاق في سبيل ذلك ، فقد رحل جابر ابن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد[265] ، ورحل أبو أيوب الأنصاري إلى عقبة بن عامر في مصر من أجل حديث واحد[266] ، وقد صنف العلماء في الرحلة في طلب الحديث استقلالا وتبعا ، ومن أشهر ما صنف في ذلك استقلالا كتاب : الرحلة في طلب الحديث لأبي بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت463) [267] ، كما ضمن مبحث الرحلة لطلب الحديث في معظم مصنفات علوم الحديث ، مثل كتاب علوم الحديث لابن الصلاح ، وتدريب الراوي للسيوطي ، وفتح المغيث للسخاوي .

وهكذا سن الصحابة الرحلة في طلب الحديث ، وأخذها عنهم التابعون ، وأصبحت أدبا ملازما للمحدثين على مر العصور ، حتى إننا لانكاد نعثر على محدث لم

---

(264) انظر : الرحلة فى طلب الحديث للخطيب البغدادى ، تدريب الراوى 161/2 ، علوم الحديث لابن الصلاح 222 ، الإلماع للقاضى عياض 233 ، مدرسة الحديث فى القيروان 195/1 .

(265) انظر : صحيح البخارى 27/1 ، مسند أحمد 495/3 .

(266) انظر : مسند أحمد 153/4 .

(267) وهو مطبوع ، وينصح طالب العلم بقراءته .

يرحل إلا القليل ، وقد عقد الإمام البخاري في صحيحه بابا للخروج في طلب العلم(268) ، وذكر الحافظ ابن الصلاح أن المحدث إذا فرغ من السماع عن شيوخ بلده فإن عليه أن يرتحل إلى غيره ، وهذا أمر قد اتفق عليه أئمة صناعة الحديث ، بل إن عدم الارتحال مما يشان به المحدث ، فقد قال يحيى بن معين: "أربعة لا تؤنس منهم رشدا ، حارس الدرب ، ومنادي القاضي ، وابن المحدث ، ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث"(269) .

وقد تيمن سلفنا الصالح بالرحلة في طلب الحديث ، واعتبروها من أسباب دفع البلاء ، قال إبراهيم بن أدهم : "إن الله تعالى يدفع البلاء عن هذه الأمة برحلة أصحاب الحديث"(270) .

ب- نماذج من رحلات الصحابة في الحديث :

1- رحلة أبي أيوب الأنصاري من الحجاز إلى مصر في حديث واحد: عن عطاء ابن أبي رباح قال: "خرج أبو أيوب الأنصاري إلى عقبة بن عامر ، يسأله عن حديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبق أحد سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم غيره وغير عقبة ، فلما قدم منزل مسلمة بن مخلد الأنصاري- وهو أمير مصر- فأُخبر فعجل عليه ، فخرج إليه فعانقه ، ثم قال له : ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق أحد سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم غيري وغير عقبة ، فابعث من يدلني على منزله قال : فبعث معه من يدله على منزل عقبة ، فأُخبر عقبة فعجل فخرج إليه فعانقه ، فقال : ما جاء بك يا أبا أيوب ؟ ، قال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق أحد سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم غيري وغيرك في ستر المؤمن ، قال عقبة: نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من ستر مؤمنا في الدنيا على خزية ستره الله يوم القيامة" ، فقال له أبو أيوب : صدقت ، ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته ، فركبها راجعا

---

(268) صحيح البخارى 27/1 .

(269) علوم الحديث 223 ، الرحلة فى طلب الحديث 89 .

(270) الرحلة فى طلب الحديث 90 .

إلى المدينة ، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر"[271] .

2- رحلة جابر بن عبد الله مدة شهر إلى الشام لسماع حديث واحد: عن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب أن جابر بن عبد الله حدثه قال: "بلغني عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أسمعه منه ، قال: فابتعت بعيرا ، فشددت عليه رحلي ، فسرت إليه شهرا حتى أتيت الشام ، فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصاري ، قال: فأرسلت إليه أن جابرا على الباب ، قال: فرجع إليّ الرسول ، فقال: جابر بن عبد الله ؟ فقلت: نعم ، قال: فرجع الرسول إليه فخرج إلي فاعتنقني واعتنقته ، قال : قلت : حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أسمعه ، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يحشر الله العباد أو قال: يحشر الله الناس- قال: وأومأ بيده إلى الشام- عراة غرلا بهما ، قلت : ما بهما ؟ قال : ليس معهم شيء ، قال : فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة ، قال : قلنا: كيف هو ، وإنما نأتي الله تعالى عراة غرلا بهما ؟ قال: بالحسنات والسيئات"[272] .

ج- نماذج من رحلات التابعين في طلب الحديث :

ازدادت في عهد التابعين دواعي الرحلة في طلب الحديث ، وكثر تتبع حفاظه من الصحابة وكبار التابعين في البلدان للأخذ منهم ، ونماذج ذلك لا تحصى كثرة ، منها:

1- عن سعيد بن المسيب أنه قال: "إن كنت لأرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد"[273] .

2- وعن أبي عثمان النهدي أنه قال: "بلغني عن أبي هريرة حديث "إن الله

(271) مسند أحمد 153/4 ، جامع بيان العلم 93/1 .

(272) مسند أحمد 465/3 ، مستدرك الحاكم 437/2 .

(273) جامع بيان العلم 94/1 ، الكفاية 402 ، الرحلة فى طلب الحديث 128 .

ليكتب لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة" ، فحججت ذلك العـــام ، ولم أكن أريد الحج إلا للقائه في هذا الحديث ، فأتيت أبا هريرة فقلت: يا أبا هريرة: بلغـــني عنك حديث فحججت ولم أكن أريد الحج إلا لألقاك. . " فحدثه به أبو هريرة رضـــي الله عنه(274) .

3- وعن عبد الله بن فيروز الديلمي قال: "بلغني حديث عن عبد الله بن عمرو ، فركبت إليه إلى الطائف أسأله عنه. . " وكان ابن الديلمي بفلسطين(275) .

4- وعن أبي قلابة عبد الله بن زيد قال: "أقمت في المدينة ثلاثا ، ما لي بها حاجة إلا قدوم رجل بلغني عنه حديث ، فبلغني أنه يقدم فأقمت حتى قدم فحدثني به"(276) .

5- وحدث الشعبي رجلا بحديث ثم قال له: "أعطيتكه بغير شـــيء ، وإن كـــان الراكب ليركب إلى المدينة فيما دونه"(277) .

6- وعن سعيد بن جبير قال: "اختلف أهل الكوفة في قوله تعالى : {ومن يقتـــل مؤمنامتعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها}(278) ، فرحلت فيها إلى ابن عبـــاس فســـألته عنها..." (279) .

7- ورحل الحسن البصري من البصرة إلى الكوفة ليسأل كعب بن عجرة عمـــا افتدى به عندما حلق رأسه في عمرته عام الحديبية لما آذاه رأسه(280) .

8- وعن بسر بن عبيد الله الحضرمي قال: "إن كنت لأركب إلى المصـــر مـــن الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه"(281) .

9-وتتبع شعبة بن الحجاج حديثا واحد ،فرحل بسببه إلى مكة والمدينة والبصرة ،

(274) مسند أحمد 521/2 ، الرحلة فى طلب الحديث 132 .
(275) مستدرك الحاكم 30/1 ، الرحلة فى طلب الحديث 135-137 .
(276) سنن الدارمى 136/1 .
(277) جامع بيان العلم 94/1 .
(278) النساء : (93) .
(279) البخارى مع الفتح 133/9 ح 4590 .
(280) الرحلة فى طلب الحديث 143 .
(281) سنن الدارمى 136/1 .

وبعد هذه الرحلة الشاقة وجده غير صحيح فأسف لذلك وقال: "لوصح لي مثل هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحب من أهلي ومالي والناس أجمعين"[282] .

10- وقيل لعامر الشعبي : من أين لك هذا العلم كله؟ قال : "بنفي الاعتماد ، والسير في البلاد ، وصبر كصبر الجماد وبكور كبكور الغراب."[283] .

11- وقال مكحول الدمشقي : "كنت عبدا بمصر لامرأة من بني هذيل فأعتقتني ، فما خرجت من مصر وبها علم إلا حويت عليه فيما أرى ، ثم أتيت الحجاز فما خرجت منها وبها علم إلا حويت عليه فيما أرى ، ثم أتيت العراق فما خرجت منها وبها علم إلا حويت عليه فيما أرى ، ثم أتيت الشام فغربلتها.. ."[284] .

ولايخفى ما لهذه الرحلات من الأثر الكبير في نشر السنة إضافة إلى فوائد أخرى سيأتي ذكرها في المطلب الرابع من هذا المبحث إن شاء الله.

د- نماذج من رحلات من بعدهم من أهل العلم[285] :

واظب المحدثون على أدب الرحلة إلى مختلف حواضر العالم الإسلامي يتتبعون حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم لدى حفاظه ، ويتثبتون في طرقه وألفاظه ، وقد عانوا مشاق الرحلة محتسبين الأجر عند المولى عز وجل ، ونماذج ذلك لا تحصى كثرة ، منها :

1- عن المؤمل بن إسماعيل أنه ذكر عنده الحديث الذي يروى عن أُبيّ عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل القرآن ، فقال: "لقد حدثني رجل ثقة- سماه- قال: أتيت المدائن فلقيت الرجل الذي يروي هذا الحديث ، فقلت له حدثني ، فقال: الرجل الذي سمعنا منه هو بواسط .

قال : فأتيت واسطا فلقيت الشيخ ، فقلت : إني كنت بالمدائن فدلني عليك الشيخ ، قال: إن هذا الذي سمعت منه هو بالكلاء.

---

(282) سنن الدارمى 136/1 .
(283) تذكرة الحفاظ 81/1 .
(284) سنن أبي داود 80/3 .
(285) انظر : استدراك الزيادات على كتاب الرحلة فى طلب الحديث 187 .

قال: فأتيت البصرة فلقيت الشيخ بالكلاء ، فقلت له حدثني ، فقال: إن الشيخ الذي سمعت منه هو بعبادان .

قال : فأتيت عبادان فلقيت الشيخ ، فقلت له: اتق الله ما حال هذا الحديث؟ أتيت المدائن- فقصصت عليه- ثم واسطا ، ثم البصرة فَدُللت عليك ، وما ظننت إلا أن هؤلاء كلهم قد ماتوا ، فأخبرني بقصة هذا الحديث.

فقال : إنا اجتمعنا هنا فرأينا الناس قد رغبوا عن القرآن ، وزهدوا فيه ، وأخذوا في هذه الأحاديث ، فقعدنا فوضعنا لهم هذه الفضائل حتى يرغبوا فيها"(286) , وهكذا أثمرت هذه الرحلة الطويلة بيان زيف هذا الحديث.

2- الهيثم بن جميل البغدادي (ت213) : كان كثير الارتحال في طلب الحديث ، روي عنه أنه أفلس في طلب الحديث مرتين(287) .

3- يعقوب بن سفيان الفسوي (ت277) : رحل في طلب الحديث إلى الآفاق ، وقال: "كتبت عن ألف شيخ وكسر كلهم ثقات ، وقمت في الرحلة ثلاثين سنة" ، وقال أبو زرعة الدمشقي : "قدم علينا رجلان من نبلاء الناس ، أحدهما وأرحلهما يعقوب بن سفيان ، يعجز أهل العراق أن يروا مثله" ، وقال عن نفسه: "كنت في رحلتي فقلَّت نفقتي ، فكنت أدمن الكتابة ليلا ، وأقرأ نهارا. "(288) .

4- يحيى بن معين : الإمام الحافظ عالم الجرح والتعديل ، قال الإمام أحمد: "كان ابن معين أعلمنا بالرجال" ، وقد خلف له والده ثروة ضخمة مقدارها ألف ألف درهم وخمسون ألف درهم ، فأنفق كل ذلك في طلب الحديث ، لما توسع في رحلاته من أجله(289) .

5- الحافظ أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي (ت277): قال: "بقيت بالبصرة سنة 214 ثمانية أشهر ، وكان في نفسي أن أقيم سنة ، فانقطعت نفقتي ، فجعلت أبيع

---

(286) الكفاية 401 ، تنـزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة 285/1 .

(287) انظر : تهذيب التهذيب 11 / 90 .

(288) انظر : التهذيب 385/11 .

(289) انظر : تهذيب التهذيب 280/11 .

ثياب بدني شيئا بعد شيء ، حتى بقيت بلا نفقة ، ومضيت أطوف مع صديق لي إلى المشيخة وأسمع منهم إلى المساء ، فانصرف رفيقي ورجعت إلى بيت خال ، فجعلت أشرب الماء من الجوع ، ثم أصبحت من الغد وغدا علي رفيقي فجعلت أطوف معه في سماع الحديث على جوع شديد ، فانصرف عني وانصرفت جائعا ، فلما كان من الغد غدا علي ، فقال : مُرَّ بنا إلى المشايخ ، قلت : أنا ضعيف لا يمكنني قال: ما ضعفك؟ قلت : لا أكتمك أمري ، قد مضى يومان ما طعمت فيهما شيئا ، فقال: قد بقي معي دينار ، فأنا أواسيك بنصفه ، ونجعل النصف الآخر في الكراء.." [290] .

6- الحافظ الرحال الفضل بن محمد البيهقي (ت 282) قال ابن المؤمل : "ما بقي بلد لم يدخله الفضل في طلب الحديث إلا الأندلس" [291] .

7- الحافظ محمد بن المسيب (ت 315) قال: "ما أعلم منبرا من منابر الإسلام بقي علي لم أدخله لسماع الحديث" [292] .

8- محمد بن إبراهيم الأصبهاني (ت381) : الإمام الحافظ محدث أصبهان ، طاف الشرق والغرب في الحديث أربع مرات ، ودخل بيت المقدس عشر مرات [293] .

9- محمد بن إسحاق الأصبهاني: المحدث الحافظ المتقن ، رحل إلى نيسابور وبغداد ودمشق ومكة ومصر وبخارى ومرو وبلخ ، ودامت رحلته نحوا من أربعين عاما ، وعاد إلى بلده ومعه أربعون حملا من الكتب والأجزاء ، وكتب عن ألف وسبعمائة شيخ [294].

10- أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي (ت 507) قال : "بُلْتُ الدم في طلب الحديث مرتين ، مرة ببغداد ، ومرة بمكة ، كنت أمشي في الحر فلحقني ذلك ، وما ركبت دابة قط في طلب الحديث ، وكنت أحمل كتبي على ظهري" [295] .

(290) مقدمة الجرح والتعديل 363 .
(291) تذكرة الحفاظ 627 .
(292) تذكرة الحفاظ 789 .
(293) تذكرة الحفاظ 973 .
(294) تذكرة الحفاظ 973 .
(295) تذكرة الحفاظ 973 .

هذه نماذج قليلة من تاريخ ثري ناطق بجهود المحدثين في طلب الحديث ، ولذة خدمته ، حفظ الله بهم السنن ، ونجى الأمة بسببهم من كثير من الفتن ، وإنك لتزداد دعاء لهم وتقديرا لجهودهم إذا استحضرت وعورة المسالك في عهدهم وبدائية وسائل النقل ، فتدرك على الحقيقة أن الله قد هيأهم لهذا الدور الجليل وهو خدمة السنة وصونها وحمايتها ، وهم مع ذلك سعداء في الدنيا بما أعطاهم الله من لذة الإيمان ، وراحة البال ، وطمأنينة القلب ، وأمن النفس ، والسعادة الغامرة بالذود عن حمى الدين ، فضلا عما ينتظرهم من جزيل الثواب وعظيم الدرجات في الآخرة ، قال ابن الجوزي: "تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا ، وأنفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم ، فرأيتنى لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت عليه ، ثم تأملت حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم ، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم ، وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم"(296) .

وقال الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري في وصف المحدثين: ".. . قوم سلكوا محجة الصالحين ، واتبعوا آثار السلف من الماضين ، ودمغوا أهل البدع والمخالفين بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين ، قوم آثروا قطع المفاوز والقفار على التنعم في الدمن والأوطار ، وتنعموا بالبؤس في الأسفار ، مع مساكنة أهل العلم والأخبار ، وقنعوا عند جمع الأحاديث والآثار بوجود الكسر والأطمار. . جعلوا المساجد بيوتهم ، وأساطينها تكاهم وبواريها فرشهم.. . نبذوا الدنيا بأسرها وراءهم ، وجعلوا غداءهم الكتابة ، وسمرهم المعارضة ، واستروواحهم المذاكرة ، وخلوفهم المداد ، ونومهم السهاد ، واصطلاءهم الضياء ، وتوسدهم الحصى ، فالشدائد مع وجود الأسانيد العالية عندهم رخاء ، ووجود الرخاء مع فقد ما طلبوه عندهم بؤس ، فعقولهم بلذاذة السنة غامرة ، وقلوبهم بالرضاء في الأحوال عامرة ، تعلم السنن سرورهم ، ومجالس العلم حبورهم ، وأهل السنة قاطبة إخوانهم ، وأهل الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم"(297) .

وقال الحافظ الخطيب البغدادي: "وقد جعل الله تعالى أهل الحديث أركان الشريعة ، وهدم بهم كل بدعة شنيعة ، فهم أمناء الله من خليقته ، والواسطة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأمته ، والمجتهدون في حفظ ملته ، أنوارهم زاهرة ، وفضائلهم

(296) صيد الخاطر 234 .
(297) معرفة علوم الحديث 2 ، 3 .

سائرة ، وآياهم باهرة ، ومذاهبهم ظاهرة ، وحججهم قاهرة ، وكل فئة تتحيز إلى هوى ترجع إليه أو تستحسن رأيا تعكف عليه ، سوى أصحاب الحديث ، فإن الكتاب عدهم والسنة حجتهم ، والرسول فئتهم ، وإليه نسبتهم ، لا يعوجون على الأهواء ، ولا يلتفتون إلى الآراء ، يقبل منهم ما رووا عن الرسول ، وهم المأمونون عليه والعدول ، حفظة الدين وخزنته ، وأوعية العلم وحملته ، إذا اختلف في حديث كان إليهم الرجوع ، فما حكموا به فهو المقبول المسموع ، ومنهم كل عالم فقيه ، وإمام رفيع نبيه ، وزاهد في قبيلة ، ومخصوص بفضيلة ، وقارىء متقن ، وخطيب محسن ، وهم الجمهور العظيم ، وسبيلهم السبيل المستقيم ، وكل مبتدع باعتقادهم يتظاهر ، وعلى الإفصاح بغير مذاهبهم لا يتجاسر ، ولا يفلح من اعتزلهم ، المحتاط لدينه إلى إرشادهم فقير ، وبصر الناظر بالسوء إليهم حسير ، وإن الله على نصرهم لقدير" ، وقال: "وقد جعل رب العالمين الطائفة المنصورة حراس الدين ، وصرف عنهم كيد المعاندين لتمسكهم بالشرع المتين ، واقتفائهم آثار الصحابة والتابعين ، فشأنهم حفظ الآثار ، وقطع المفاوز والقفار ، وركوب البراري والبحار في اقتباس ما شرع الرسول المصطفى ، لا يعرجون عنه إلى رأي ولا هوى ، قبلوا شريعته قولا وفعلا ، وحرسوا سننه حفظا ونقلا ، حتى ثبّتوا بذلك أصلها ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكم من ملحد يروم أن يخلط بالشريعة ما ليس منها والله تعالى يذب بأصحاب الحديث عنها ، فهم الحفاظ لأركانها ، والقوامون بأمرها وشأنها ، إذا صُدف عن الدفاع عنها فهم دونها يناضلون ، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون"(298) .

هـ- ثمرات الرحلة في طلب الحديث(299) :

للرحلة في طلب الحديث فوائد جليلة ومنافع جزيلة وأهداف سامية نبيلة تضافرت على خدمة السنة رواية ودراية ، من أهمها ما يلي :

1- تحصيل الحديث :

إن جمع الحديث وسماعه من حفاظه يعتبر من أعظم أسباب الرحلة وفوائدها ، وقد بدأ ذلك برحلة كثير من الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم برحلة الصحابة بعضهم إلى بعض ، ثم برحلة التابعين إلى الصحابة عندما تفرقوا في الأمصار ، ثم برحلة

---

(298) شرف أصحاب الحديث 8-11 .

(299) انظر : الرحلة فى طلب الحديث 17-28 ، مدرسة الحديث فى القيروان 1/226-240 .

طلاب العلم إلى الآفاق يتتبعون حفاظ الحديث للأخذ عنهم .

2- نشر الحديث وإشاعة روايته :

فإن الصحابة انتشروا في الآفاق لنشر السنة ، وكذا فعل كثير من التابعين ، ومن بعدهم من أهل الحديث ، فكثيراً ما يرحل المحدث إلى بلد فيسمع من أهلها ويحدث بها.

3- طلب علو الإسناد :

لقد عني أهل الحديث بطلب الإسناد العالي ، واعتبروه من القربات لما فيه من القرب إلى صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، كما أن تقليل عدد الوسائط في سند الحديث يقل معه احتمال الخلل فيه ، قال الإمام أحمد : "طلب الإسناد العالي سنة عمن سلف"[(300)] . وقال أبو الفضل المقدسي : "أجمع أهل النقل على طلبهم العلو ومدحه ، إذ لو اقتصروا على سماعه بنزول لم يرحل أحد منهم "[(301)]، وقال أبو العالية: "كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالبصرة ، فما نرضى حتى نركب إلى المدينة فنسمعها من أفواههم" [(302)] .

4- تعدد طرق الحديث :

من ثمرات الرحلة الحصول على أسانيد متعددة للحديث الواحد ، فتكثر طرقه ، ويتقوى بعضها ببعض في حال وجود طرق ضعيفة ، وقد تحصل زيادة ألفاظ في بعض الطرق ، أو تصريح بالسماع بدل عنعنة في بعض الطرق ، أو التصريح باسم راو ورد مبهما ، ونحو ذلك من فوائد تعدد طرق الحديث.

5- انتشار المصنفات الحديثية في الأمصار :

إن الرحلة هي الوسيلة المستخدمة في نقل كتب الحديث من بلد إلى آخر ، فشاعت بذلك مصنفات الحديث في مختلف البلدان ، مثل الصحيحين وكتب السنن والمسانيد والجوامع والمجاميع والأجزاء الحديثية وغيرها.

6- البحث عن أحوال رواة الحديث :

وهو مطلب جليل ، إذ عليه مدار التمييز بين الصحيح والسقيم من الحديث ،

(300) انظر : معرفة علوم الحديث 5 ، 7 .
(301) مقدمة الرحلة فى طلب الحديث 20 .
(302) علوم الحديث 233 .

وهو من أهم فوائد الرحلة ، حيث يحتك المحدث بالنقاد ، ويحضر مجالس جهابذة علــم الرجال ، ويسمع منهم ، ويسألهم عن عدالة الرواة وضبطهم ، ولذلك فقد كثرت كتب السؤالات في علم الرجال ، مثل: سؤالات ابن أبي شيبة لعلي بن المديني ، بل قد يختــبر المرتحل بنفسه أحوال بعض الرواة ، كما فعل يحيى بن معين في رحلته إلى أبي نعيم الفضل ابن دكين ليختبر حفظه وتيقظه(303) ، وقد يسمع المحدث خلال رحلته جملة من كتــب الجرح والتعديل وعلم الرجال ، ويعود بها إلى بلده ، مثل كتب: الضــعفاء الصــغير ، والضعفاء الكبير ، والتاريخ الكبير للإمام البخاري ، وكتــاب الضــعفاء والمتــروكين للنسائي ، والكامل في الضعفاء لابن عدي ، وكتاب الثقات لابن المــديني ، والثقــات للعجلي ، والثقات لابن حبان ، وغيرها.

7- معرفة معايير نقد الحديث :

وهو علم دقيق يحتاج إلى ملاقاة جهابذة نقاد الحديث وحفاظــه العــالمين بعللــه ومعايير نقده سندا ومتنا ، وحضور مجالسهم ، ومذاكرتهم في ذلــك ، قــال الخطيــب البغدادي: "ولو كان حكم المتصل والمرسل واحداً لما ارتحل كتبة الحــديث ، وتكلفــوا مشاق الأسفار إلى ما بعد من الأقطار"(304) ،وقال الإمام الترمذي في آخر كتابه الجامع: "وما كان فيه من ذكر العلل في الأحاديث والرجال والتاريخ فهو ما اســتخرجته مــن كتب التاريخ ، وأكثر ذلك ما ناظرت به محمد بن إسماعيل يعني البخاري".

8- معرفة فقه الحديث :

وهو الثمرة المرجوة من الحديث بعد ثبوت نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث يستخرج فقهه وتستنبط أحكامه وفوائده للعمل بها ، وتطبيق ما دلت عليــه ممــا تعبّدنا به الله عز جل ، ولذلك كان من أهم أغراض الرحلة مذاكرة العلماء للوقــوف على معاني الأحاديث ، والبحث عن أغوارها ، والكشف عن أسرارها ، وإثارة ما فيهــا من الفقه ودقائق العلم ، واقتباس ما أرشدت إليه من الهدي وحقائق الــدين ، وبيــان غامضها ومشكلها وتقصي ألفاظها(305) .

---

(303) الرحلة فى طلب الحديث 207 .
(304) الكفاية 402 .
(305) انظر : مقدمة إكمال المعلم للقاضى عياض 72 .

المراجع المساعدة

1- الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي.

2- تدريب الراوي للسيوطي 161/2 .

3- علوم الحديث لابن الصلاح 222 .

4- الإلماع للقاضي عياض 233 .

5- مدرسة الحديث في القيروان للحسين شواط 195/1 .

أسئلة التقويم الذاتي :

1- ما وجه الحاجة إلى الرحلة في طلب الحديث بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ؟

2- ما منزلة الرحلة في طلب الحديث عند أهل العلم ؟

3- اذكر ثلاثة نماذج من رحلات الصحابة في الحديث مع التعليق عليها.

4- تحدث عن نماذج من رحلات التابعين في الحديث مع التعليق عليها.

5- تحدث عن الرحلة بعد عصر التابعين ، وماذكره العلماء في فضائل المحدثين المتعلقة بالرحلة.

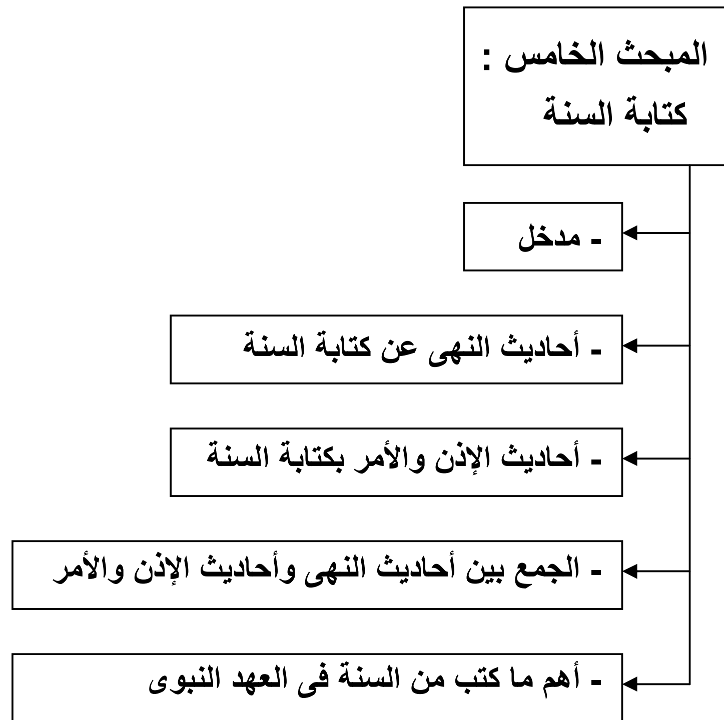
6- ما هي ثمرات الرحلة في طلب الحديث ، وما أثر ذلك في حفظ السنة وحمايتها.

7- ما الصلة بين الرحلة وبين صيانة السنة من الدخيل.

8- اذكر نموذجا مضافا لما في كتابك المقرر لرحلات كل من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في طلب الحديث .

9- اكتب ثلاث صفحات بتعبيرك تضمنها حصيلة ما استفدته من هذا المبحث.

الوحدة الثالثة



المبحث الخامس
كتابة السنة

الأهداف الخاصة

1- معرفة حكم كتابة السنة تفصيلا .

2- العلم بأحاديث كراهة كتابة السنة ، ودرجتها من الصحة .

3- العلم بأحاديث إباحة كتابة السنة ، ودرجتها من الصحة .

4- إدراك أوجه الجمع بين أحاديث الكراهة وأحاديث الإباحة .

5- معرفة حال الكتابة عند العرب قبل الإسلام .

6- معرفة نماذج كافية لأنواع المكتوب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بأمره ، أو بجهود فردية للصحابة .

7- تبيّن المهام الأساسية لكُتّاب النبي صلى الله عليه وسلم .

8- ساد اعتقاد خاطىء لدى بعض المستشرقين وما شايعهم من العصرانيين بأن السنة لم تكتب إلا في القرن الثاني ، ما سبب هذه الشبهة ، وكيف ترد عليها ؟

المبحث الخامس
كتابة السنة[306]

مدخل :

1- يقصد في هذا المبحث مناقشة مبدأ كتابة السنة ، وإيراد الأحاديث الـــواردة في ذلك نهياً وأمراً ، والجمع بينها ، وبيان استقرار الأمر على الكتابة والإجمـــاع علـــى ذلك ، وإيراد نماذج مما كُتِبَ في العهد النبوي .

2- تناقل كثير من المصنفين ما كان يسود جزيرة العرب ، ولا سيما مكة والمدينة من الأمية قبيل دخول الإسلام ، ولعل ذلك بسبب ما جاء في بعض المصادر من أن عدد القادرين على الكتابة عندما جاء الإسلام كانوا في مكة سبعة عشر رجلا ، وفي المدينـــة تسعة رجال[307] .

ولا شك أن العرب أمة أمية كما وصفهم القرآن الكريم : {هو الذي بعـــث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}[308] ، وهذا هو وصفهم الغالب ، أما ماتناقله المصنفون من ذكر لتلك الأعداد القليلة فإنه لا يعطي صورة دقيقة عن الكتابة لدى العرب ، ولا يثبت أمام البحث العلمي الدقيق الذي يؤكد وجود عدد من قراء العربية وكُتَّابها نســـاء ورجـــالا يفوق ذلك العدد بكثير ، وإن كان ذلك لا يمثل نسبة تذكر بالنسبة للمجتمع العـــربي

(306) راجع : دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث ، د. امتياز أحمد – تقييـــد العلـــم للخطيـــب البغدادى – السنة قبل التدوين للدكتور محمد عجاج الخطيب 293-381 بحـــوث فى تـــاريخ السنة المشرفة للدكتور أكرم العمرى 221-240 دراسات فى السنة النبوية الشريفة للـــدكتور صديق عبد العظيم 103-118 معالم السنة النبوية للدكتور عبد الرحمن عتر 69-88 الحديث والمحدثون لأبى زهو 122-125 دراسات فى الحديث النبوى للأعظمى .

(307) انظر : فتوح البلدان للبلاذرى 459 ، طبقات ابن سعد 136/3 .

(308) الجمعة : (2) .

آنذاك[309] .

3- لما جاء الإسلام وبدأ الوحي بكلمة {اقرأ} بدأت الكتابة تنتشر على نطاق واسع ، حيث اقتضت طبيعة الرسالة الجديدة أن يكثر المتعلمون ، فقد زاد عدد كُتّاب النبي صلى الله عليه وسلم على ستين رجلا[310] ، يكتبون الوحي ، والزكاة ، والمداينات ، والمعاملات ، والرسائل ، والعهود ، والمواثيق.

وكانت المساجد والكتاتيب والمنازل هي مجالات تعلم القراءة والكتابة بالمدينة المنورة ، مما أسهم في سرعة تزايد عدد المتعلمين.

4- ساد اعتقاد خاطئ لدى كثير من المستشرقين ومن شايعهم من المنتسبين للإسلام بأن السنة لم تكتب إلا في القرن الثاني ، وقد يكون سبب هذا الاعتقاد الجهل حينا ، وتغرّض هذا الدين والرغبة في النيل منه حينا آخر ، لأن هذا الاعتقاد لا يثبت أمام حقائق التاريخ كما سيتضح من خلال نماذج مما كُتب من السنة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة ، ولذلك فقد اعترف عدد من المستشرقين بكتابة الأحاديث منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن هؤلاء Macdonald الذي قال: " نحن لدينا أدلة عديدة عن هؤلاء الصحابة المترجمين لسيرته الذاتية والذين قاموا بتسجيل كلمات النبي صلى الله عليه وسلم كما قالها"،ومنهم أيضا: Sprenger , Muir, Duck, Horovitz[311] .

5- كان بعض السنة متمثلاً في المعاهدات ومراسلات النبي صلى الله عليه وسلم وكتبه إلى ولاته .. . قد كُتِبَ بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكُتِبَ بعضها بجهود فردية من الصحابة ، أما التدوين العام للسنة بإشراف الدولة المسلمة فقد كان على رأس المائة الأولى للهجرة على يد الخليفة الخامس الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

6- لقد مر مبدأ كتابة السنة بمرحلتين ، هما: النهي عن الكتابة في فجر الإسلام المبكر خشية اختلاطها بالقرآن حين كان الصحابة حديثي عهد بالإسلام ، ثم مرحلة

---

(309) من أجود من حقق هذا المبحث الدكتور امتياز أحمد فى كتابه "دلائل التوثيق المبكر للسنة" 153 .

(310) راجع : كُتّاب الرسول للدكتور الأعظمى .

(311) انظر : دلائل التوثيق المبكر 151 ، 152 .

الإباحة والأمر لما استقر الدين وتمكن الصحابة من حفظ القرآن والتمييز بينه وبين الحديث ، وذلك على النحو التالي :

أولا- أحاديث النهي عن كتابة السنة :

صح حديث واحد في النهي عن كتابة السنة أما بقية الأحاديث الواردة في ذلك فهي ضعيفة الأسانيد :

1- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني شيئا غير القرآن فليمحه" وزاد في رواية: "وحدثوا عني ولا حرج ، ومن كذب علي فليتبوأ مقعده من النار" ، وهو الحديث الصحيح الوارد في هذا الباب[312] .

2- وعن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نكتب الأحاديث فقال: "ما هذا الذي تكتبون؟ قلنا: أحاديث نسمعها منك ، قال: أكتاب غير كتاب الله تريدون؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله ، قال أبو هريرة : فقلت : أنتحدث عنك يا رسول الله؟ قال: نعم تحدثوا عني ولا حرج فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"[313] .

3- وعن أبي سعيد الخدري قال: "استأذنت رسول الله صلى عليه وسلم أن يأذن لي أن أكتب الحديث فلم يأذن لي"[314] .

4- وعن زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يكتب حديثه[315].

5- وردت كراهة الكتابة عن جماعة من الصحابة ، منهم: أبو سعيد الخدري ، وعبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري وأبو هريرة وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن عمر رضي الله عنهم ، غير أن أكثرهم صرح بأن امتناعه عن الكتابة كان خشية

---

(312) صحيح مسلم 229/8 ، تقييد العلم 29-32 .

(313) انظر مسند أحمد 12/2 ، تقييد العلم 33 ، وإسناده ضعيف .

(314) انظر سنن الترمذى 111/2 ، سنن الدارمى 119/1 ، تقييد العلم 32 ، 33 ، دراسات فى الحديث النبوى 70 ، وإسناده ضعيف .

(315) انظر تقييد العلم 35 ، وإسناده ضعيف .

الاتكال عليها وترك الحفظ ، أو خشية الوقوع في الخطأ ، وبعض هؤلاء ثبت عنهم الرجوع عن ذلك إلى الجواز والإباحة ، كما صح عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن مسعود ، مما يدل على أنهم أدركوا أن النهي الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك كان مقيداً أو منسوخاً ولم يكن مطلقا(316) .

ثانيا : أحاديث الإذن والأمر بكتابة السنة :

صحت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الإذن بكتابة السنة والأمر بذلك ، بل ثبتت كتابة كثير من السنن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كما سيأتي في المبحث الرابع وقد بلغ مجموع ذلك حد التواتر المفيد للعلم القطعي ، ومن هذه الأحاديث ما يلي :

1- قوله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: "اكتبوا لأبي شاه"(317) ، وهو صحابي من اليمن طلب كتابة خطبة الوداع ، وكون هذا الأمر بالكتابة ورد في حجة الوداع يؤكّد أن آخر الأمرين كان الإذن بالكتابة.

2- وعن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه ، فنهتني قريش ، وقالوا: تكتب كل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضا ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأومأ بأصبعه إلى فيه ، وقال : "اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق"(318) .

3- وعن أبي هريرة قال: "ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثا عنه مني ، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب"(319) .

4- وشكا أحد الصحابة قلة حفظه للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له: "استعن

---

(316) انظر تقييد العلم 36-43 ، 49-61 ، 87-98 .
(317) البخارى مع الفتح 279/1 ح113 .
(318) أخرجه الإمام أحمد 205/2 ، وأبو داود 318/3 ، والدارمى 125/1 ، وهو صحيح الإسناد ، وانظر تقييد العلم 82 .
(319) البخارى مع الفتح 278/1 ح112 .

على حفظك بيمينك"(320) .

5- وعن عبد الله بن عمرو وأنس بن مالك قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قيدوا العلم بالكتاب"(321) .

6- وعن رافع بن خديج قال: قلنا يا رسول الله ، إنا نسمع منك أشياء ، أفنكتبها؟ قال : "اكتبوا ولا حرج"، ونحوه من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعا(322) .

كما وردت الكتابة أو الأمر بها عن جماعة من الصحابة ، منهم: أبو بكر وعمر وعلي والحسن بن علي وعبد الله بن عباس وأبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وأبو أمامة الباهلي ومعاوية والمغيرة بن شعبة وعائشة وعبد الله بن مسعود وأبوهريرة والبراء ابن عازب ، وأسماء بنت عميس وسبيعة الأسلمية ، وغيرهم(323) .

ثالثا: الجمع بين أحاديث النهي وأحاديث الإذن والأمر بكتابة السنة:

جمع أهل العلم بين أحاديث النهي والإباحة بأقوال كثيرة ، أهمها ما يلي(324) :

1- إن أحاديث النهي منسوخة بأحاديث الإباحة ، فالنهي عن كتابة الحديث إنما كان أول الإسلام مخافة اختلاط الحديث بالقرآن ، فلما عرف الصحابة القرآن معرفة رافعة للجهالة وميّزوه من الحديث ومن الصحف القديمة زال خوف اختلاط القرآن بغيره ، فنسخ حكم النهي الذي كان مرتبطا بذلك وصار الأمر إلى الجواز ، قال الخطيب البغدادي : "ونُهي عن كتب العلم في صدر الإسلام وجدته لقلة الفقهاء في ذلك الوقت والمميزين بين الوحي (المتلو) وغيره"(325) .

وذكر ابن قتيبة أن النهي من منسوخ السنة بالسنة ، كأنه نهى في أول الأمر أن

(320) انظر تقييد العلم 65-68 ، وقد أخرجه الترمذى والبيهقى ، وفى سنده مقال .

(321) تقييد العلم 68-70 ، جامع بيان العلم 72/1 ، الجامع لأخلاق الراوى 44 ، وفى سنده مقال .

(322) تقييد العلم 52-75 .

(323) انظر : تقييد العلم 87-98 .

(324) راجع السنة قبل التدوين 306-308 ، تقييد العلم 49-60 ، معالم السنة النبوية 72 ، دراسات فى السنة النبوية 106 ، دلائل التوثيق المبكر للسنة 214-235 .

(325) تقييد العلم 57 .

يكتب قوله ، ثم رأى بعد أن السنن تكثر وتفوت الحفظ فينبغي أن تكتب وتقيد(326) .

وقال الأستاذ أحمد شاكر: "إن حديث أبي سعيد منسوخ ، وإنه كان في أول الأمر حين خيف اشتغالهم عن القرآن ، وحين خيف اختلاط غير القرآن بالقرآن"(327) .

2- إن النهي يتعلق بمن وثق بحفظه ولم يخش عليه النسيان ، حتى لا يتكل على الكتابة ويترك الحفظ ، أما الإذن فهو متعلق بمن ضعف حفظه وخشي عليه النسيان مع الأمن على ضبطه للكتابة .

3- كان النهي خاصا بكتابة القرآن والحديث في صحيفة واحدة خشية اختلاطهما ، والإذن بالكتابة إذا كانا مستقلين في نسخ مختلفة.

4- إن النهي يتعلق بوقت نزول القرآن وكتابته خشية التباسه بالحديث ، والإذن بكتابة الحديث في غير ذلك الوقت.

5- إن النهي خاص بمن لا يحسن الكتابة حتى لا يقع في الغلط والتحريف ، وتتعلق الإباحة بمن يحسن الكتابة ويتقنها.

6- إن النهي خاص بكتبة القرآن المكلفين بذلك رسميا ، والإباحة تتعلق بغيرهم .

وقد استقر الأمر في هذا الباب على إجماع أهل العلم على كتابة السنة ، كما نقل ذلك الخطيب البغدادي والحافظ ابن الصلاح وغيرهما .

رابعا : أهم ما كتب من السنة في العهد النبوي(328) :

إن مرحلة ما بعد التدوين الرسمي للسنة على رأس المائة الأولى للهجرة قد نالت حظها من الدراسات الوافية من حيث تتبعها وإبرازها ، في حين أن الفترة التي سبقت ذلك أي منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى سنة 100هـ لم تنل ما تستحقه من البحث فيما يتعلق بكتابة السنة ، برغم ثرائها بذلك وأهميتها في هذا المجال حيث إنها مرحلة التأسيس والبناء لما بعدها ، وقد استقى المتأخرون عنها معلوماتهم من مادتها

(326) تأويل مختلف الحديث 365 .

(327) الباعث الحثيث 149 .

(328) راجع : دلائل التوثيق المبكر 364-590 ، معالم السنة النبوية 77 ، دراسات فى السنة النبوية 107-118 ، السنة قبل التدوين 343 -360 ، دراسات فى الحديث النبوى وتاريخ تدوينه للأعظمى .

الأساسية ، ولعل عدم الإبراز الكافي لتاريخ كتابة السنة في تلك الفترة من الأسباب التي جعلت بعض المستشرقين ومن شايعهم يتوهمون تأخر كتابتها(329) .

ومن أكثر من تصدى لتغطية تلك الفترة من المعاصرين الدكتور الأعظمي في كتابه: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ، والدكتور امتياز أحمد في كتابه : دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث ، والدكتور محمد حميد الله في كتابه: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة .

إن المتتبع للتاريخ المبكر لكتابة السنة يجد نفسه أمام ثروة كبيرة ثبتت كتابتها في ذلك العهد وتمثل جزءا كبيرا من السنة مما يجعلنا نجزم بأن السنة كانت محفوظة في السطور والصدور معا منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن نماذج ذلك ما يلي :

أ- ما كتب بأمر النبي صلى الله عليه وسلم :

1- كتبه صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والحكام في عصره :

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم كتبا متعددة إلى ملوك العرب والعجم في عهده يدعوهم فيها إلى الإسلام ويبين لهم أسس عقيدة الدين الجديد ، وقد وجدت نصوص هذه الكتب في كثير من المدونات الحديثية وكتب التاريخ ، ومن أشهر هذه الكتب :

- كتابه إلى هرقل إمبراطور بيزنطة .
- كتابه إلى كسرى ملك الفرس .
- كتابه إلى المقوقس ملك مصر .
- كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة .
- كتابه إلى ملك عمان .
- كتابه إلى عياهلة ملك حمير .
- كتابه إلى هلال حاكم البحرين .
- كتابه إلى الحارث بن أبي شمر ملك الغساسنة .
- كتابه إلى هوذة بن علي ملك اليمامة .

(329) انظر : دلائل التوثيق المبكر للسنة 364 ، 365 .

2- كتبه صلى الله عليه وسلم إلى القبائل :

راسل النبي صلى الله عليه وسلم مشايخ القبائل العربية داعيـا إلى الإسـلام ، وموضحا لمن آمن أصول الاعتقاد والأحكام الإسلامية ، من ذلك :

– الصحيفة التي أرسلها إلى بني حارثة بن عمرو .

– كتابه إلى أهل داما ، إحدى قرى عمان .

– رسالته إلى شيخ مشايخ قبيلة جذام وخزاعة .

– الكتاب الذي أرسله مع نهشل بن مالك الوائلي إلى قبيلته .

– كتابه إلى قطاع الطرق في تهامة ، يدعوهم فيها إلى الإسلام ، ويعطيهم الأمان إذا اعتنقوا دينه .

– كتبه إلى قبائل مهرة ، وخيثمة ، وبني نهد ، وجرم ، وعشـيرة كلـب،وبنى الحارث ، والأزد ، وأهل هجر ، وملوك حمير .

3- كتبه صلى الله عليه وسلم إلى الولاة والقضاة وجباة الزكاة :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يوجه ولاته وقضاته وعمال الزكاة في الأقاليم عبر رسائل مكتوبة ، يبين لهم فيها أحكام الدين وكيفية قيامهم بمهامهم وفق هدي الشارع ، ومن ذلك :

– كتابه لعمرو بن حزم حين أرسله إلى اليمن ، وفيه أحكام الطهـارة والصـلاة والغنيمة والصدقة وأحكام الجراح والديات.

– كتابه إلى علاء بن الحضرمي والي البحرين ، وفيه تفاصيل تتعلق بأحكام الصلاة والزكاة .

– رسالته إلى عامر الجهني ، أحد عمال الزكاة .

– رسالته إلى قبيصة بن المخارق ، أحد عمال الزكاة .

– كتابه إلى أبي بكر لما بعثه للحج بالناس ، وهو يشتمل على أحكـام الحـج ، أرسله إليه مع علي رضي الله عنهما .

4- المعاهدات والمواثيق والاتفاقيات :

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بكتابة جملة من هذه العهود بحسب الحاجة ، ومن ذلك :

– الاتفاقية مع قبيلة ضمرة على أمنهم وسلامة أشخاصهم وممتلكاتهم مقابل مشاركتهم في دفع العدوان على المدينة ، وذلك في السنة الأولى للهجرة.

– المعاهدة مع قبيلة غطفان أثناء غزوة الخندق سنة 8 هـ.

– معاهدة صلح الحديبية بين المسلمين وأهل مكة سنة 6 هـ.

– المعاهدة بين النبي صلى الله عليه وسلم وحاكم دومة الجندل سنة 9هـ.

– معاهدة السلام مع أهل أيلة أثناء غزوة تبوك.

– المعاهدة مع قبيلة بارق عندما زاروا النبي صلى الله عليه وسلم.

– المعاهدة مع قبيلة أسلم على التعاون ضد العدوان الخارجي على أي من الطرفين .

– معاهدة التحالف مع قبيلة جهينة.

– اتفاقية السلام مع بني حبيبة.

– المعاهدة مع ثقيف.

– المعاهدة مع بني غفار.

– المعاهدة المرسلة إلى أهل جرباء وأذرح مع وفد منهم زار النبي صلى الله عليه وسلم سنة 9هـ.

– المعاهدة مع نصارى نجران على حمايتهم وإلزامهم بدفع الجزية .

– صحيفة المعاهدة مع اليهود في المدينة في بداية الهجرة .

5- العقود ، وقرارات العفو العام ، ومنح الأراضي :

كتبت جملة من الوثائق بأمر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب ، منها :

– كتاب العفو عن سراقة بن مالك .

– عقده مع الأزرق بن عمر حول إقامته بمكة وحق الزواج من قريش .

- عقد منح زيد الخير بعض الأراضي .
- وثيقة إثبات ممتلكات عك ذي خيوان .
- عقد منح تميم الداري بعض الأراضي .
- عقد منح قطعة أرض لعباس السلمي .
- عقد منح أراضي عليها عيون مائية وأشجار ونخيل لعقيل بن كعب .
- عقد منح مزرعة لرقاد بن ربيعة في اليمن .
- عقد منح قبيلة بني قشير مجموعة أراض .
- عقد فيه الحقوق والواجبات لوفد عبد القيس .
- وثيقة تعهد بالحماية لقيلة بنت مخرمة وقبيلتها .
- عقد منح مزارع القبلية لبلال بن الحارث المزني .

6- تدوين سجل يحصي أسماء المسلمين :

وقد بلغ ألفاً وخمسمائة ، كما رواه البخاري ، وهذا العدد يشير إلى أن الإحصاء ربما كان في حدود السنة الثانية للهجرة .

7- سجلات الحروب :

إن أسماء الصحابة المشاركين في الغزوات كانت تدون عند كل معركة ، وكان يستفاد منه في توزيع المغانم وحقوق القتلى ، وقد عين النبي صلى الله عليه وسلم كاتبا لهذه المهمة .

8- قائمة بأسماء رسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الآفاق :

ذكر ابن إسحاق وغيره وجود كتاب يضم أسماء من أرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والحكام ، بالإضافة إلى فحوى رسالة كل منهم ، وقد كان هذا الكتاب عند يزيد بن أبي حبيب المصري (ت 128) ، وقد أرسله إلى الزهري الذي أقر صحته.

9- عقود العتق :

ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بكتابة جملة من عقود تحرير العبيد،منها:

– عقد عتق مولاه أبي رافع ، وافتتاحية العقد: "هذا كتاب رسول الله لفتاه أسلم: إني أعتقك للّه عتقا مبتولا ، الله أعتقك ، وله المن علي وعليك ، فأنت حـــر لا ســـبيل لأحد عليك إلا سبيل الإسلام وعصمة الإيمان.. . " شهد بذلك أبو بكر وشهد عثمان ، وشهد علي ، وكتب معاوية بن أبي سفيان .

– عقد عتق قبيلة أبي ضميرة من الرق .

– عقد شراء سلمان الفارسي من اليهودي ابن عبد الأشهل ، وإعتاقه.

10- كتابة خطب وأحاديث متفرقة ، مثل :

– كتابة خطبة الوداع لأبي شاه ، وهي واردة في الصحيحين.

– كتابة حديث لعتبان بن مالك ، كما في مسند أحمد وغيره.

ب - كُتّاب النبي صلى الله عليه وسلم[330] :

لقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم مجموعة من الكتاب قارب عـــددهم ســـتين كاتبا ، وكان لهم تخصصات متنوعة ، وذلك على النحو التالي:

1– كُتّاب القرآن الكريم حين نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم.

2– كُتّاب ما يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم.

3– كُتّاب الرسائل إلى الملوك والرؤساء.

4– كُتّاب العهود والمواثيق والصدقات وغيرها.

5– كُتّاب المراسلات مع العرب.

6– كُتّاب مسائل التشريع.

7– كُتّاب سجلات الحروب والمغانم.

8– كُتّاب دائمون بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم يكتبون ما يعـــرض مـــن أمور.

(330) انظر كُتّاب الوحى للدكتور أحمد عبد الرحمن عيسى ، كُتّاب النبى صلى الله عليـــه وســـلم للأعظمى .

9- كُتّاب يكتبون ما بين الناس من عقود ومعاملات.

10- كُتّاب ينوبون عمن كان يغيب من كُتّاب النبي صلى الله عليه وسلم الأصليين .

جـ- ما كتبه الصحابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم :

لقد دَوَّن عدد من الصحابة أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بغرض الحفظ أو الإفادة بها ، ومن ذلك :

1- الصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص ، وقد اشتملت على ألف حديث .

2- كتب سعد بن عبادة .

3- كتاب معاذ بن جبل .

4- كتاب أبي رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم .

5- صحيفة علي بن أبي طالب .

6- صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري .

وسيأتي في مبحث التدوين في عهد الصحابة ذكر نماذج كثيرة أخرى لما كتبه الصحابة ولم نتأكد من أنهم كتبوها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

ولا شك أن هذه النماذج الكثيرة لما كتب من السنة في العهد النبوي كافية للدلالة على كثرة ما كتب من السنة في ذلك العهد وفيه رد علمي قوي على ما ذهب إليه بعض المستشرقين ومن قلدهم من أن السنة قد تأخرت كتابتها ، علما بأن كثيرا من هذه المدونات المبكرة محفوظة في أمهات كتب السنة ، وكتب المغازي والسير والتاريخ .

المراجع المساعدة

1- دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث ، د . امتياز أحمد.

2- تقييد العلم للخطيب البغدادى .

3- السنة قبل التدوين ، للخطيب 293- 381 .

4- بحوث في تاريخ السنة المشرفة للعمري 221- 240 .

5- دراسات في السنة النبوية ، د . صديق عبد العظيم 103- 118 .

6- معالم السنة النبوية ، د . عتر ، 69- 88 .

7- الحديث والمحدثون لأبي زهو 122- 125 .

8- دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ، د . الأعظمي .

أسئلة التقويم الذاتي

1- كيف كان حال الكتابة لدى العرب قبل الإسلام؟ ، مع تحقيق القول في ذلك.

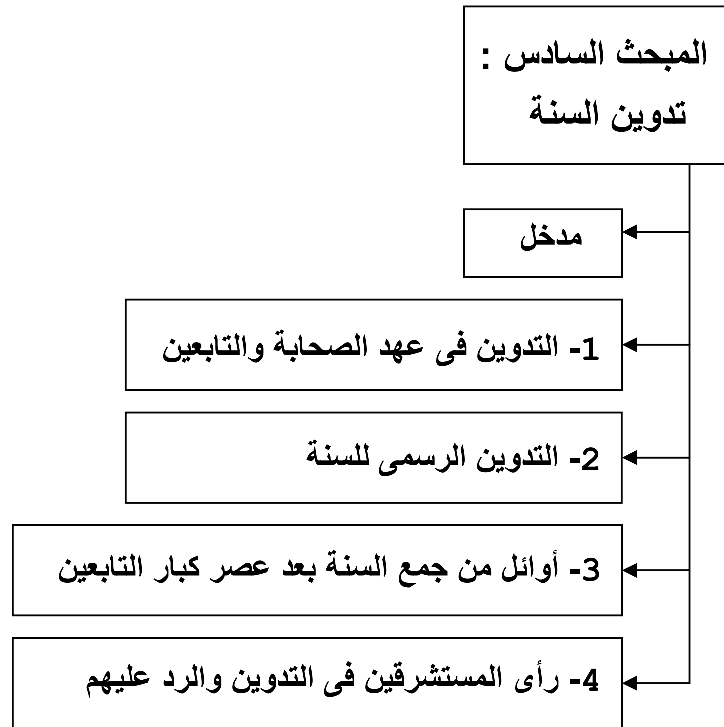
2- ناقش ماذكره بعض المستشرقين وأشياعهم من تأخر كتابة السنة إلى القرن الثاني ، مبينا سبب هذه الشبهة ، مع الرد عليها في ضوء دراسة هذا المحور.

3- ما هي أحاديث كراهة كتابة السنة وأحاديث إباحة ذلك ، وما درجة كل من الصحة؟

4- كيف جمع العلماء بين تلك الأحاديث ، وما الذي ترجحه من أوجه الجمع؟

5- ما هي أقسام ما كتب في العهد النبوي مع التمثيل؟

6- ماهي مجالات عمل كُتّاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وما عددهم؟


المبحث السادس :
تدوين السنة
مدخل
1- التدوين فى عهد الصحابة والتابعين
2- التدوين الرسمى للسنة
3- أوائل من جمع السنة بعد عصر كبار التابعين
4- رأى المستشرقين فى التدوين والرد عليهم

المبحث السادس
تدوين السنة

الأهداف الخاصة

1- معرفة مراحل تدوين السنة من عصر الصحابة والتابعين إلى عصر التدوين.

2- الاطلاع على نماذج كافية من كتابات الصحابة والتابعين.

3- معرفة مراحل التدوين الرسمي للسنة وملابساتها.

4- الاطلاع على خصائص التدوين العام الذي تم في عهد عمر بن عبد العزيز.

5- معرفة أوائل من جمع السنة بعد عصر كبار التابعين.

6- إدراك موقف أكثر المستشرقين من الإسلام عامة ومن السنة خاصة.

7- فهم رأي المستشرقين في تدوين السنة والرد عليهم.

8- معرفة أشهر المستشرقين الذين كتبوا في موضوع تدوين الحديث ، وأشهر من رد عليهم من أهل العلم.

9- إدراك أن السنة النبوية نقلت مكتوبة ومحفوظة ، وأن الحفظ أدق من الكتابة وأعظم فائدة .

10- التأكد من أن العبرة في صيانة الحجة بعدالة ناقليها وليس بكتابتها مجردة من العدالة.

المبحث السادس
تدوين السنة[331]

مدخل :

1- لقد استقر أمر كتابة السنة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على الإذن والإباحة ، كما تقدم في المبحث السابق ، وأن من استمر من الصحابة والتابعين في كراهة ذلك مع قلة عددهم ، لم تكن الكراهة عندهم بسبب اعتقاد المنع ، وإنما لأسباب أخرى ، مثل خشية الاتكال على الكتب وترك الحفظ ، أو خوف صيران العلم إلى غير أهله .

2- إن جماعة ممن روي عنه كراهة الكتابة في البداية قد انتهى أمره إلى ممارستها مثل أبي هريرة وابن عباس وأبي سعيد الخدري وغيرهم ، مما يؤكد أن الامتناع لم يكن بسبب اعتقاد المنع .

3- إن أكثر الصحابة وجماهير التابعين كانوا لا يرون بالكتابة بأساً ، وكانوا يمارسونها . ويأمرون طلابهم بها ، وانتهى هذا العصر بالإجماع العملي على كتابة السنة فتوالت الكتب والمصنفات في ذلك .

4- كان تدوين السنة في عهد الصحابة والتابعين إلى عهد عمر بن عبد العزيز يتم بجهود فردية ، ولقد طرحت فكرة تدوين الدولة للسنة على البحث في عهد عمر رضي الله عنه وربما كان ذلك بإشارة من بعض الصحابة ، لكن عمر تخلى عن الفكرة بعد استخارة دامت شهراً ، ويبدو أن موضوع جمع القرآن في الصحف ثم في المصحف قد أخذ الأولوية وشغل بال الخلفاء الثلاثة الأول حتى أنجز في عهد عثمان

---

(331) انظر : دراسات فى الحديث النبوى وتاريخ تدوينه للدكتور الأعظمى ، دلائل التوثيق المبكر للسنة المطهرة للدكتور امتياز أحمد ، الحديث النبوى للصباغ 34 ، السنة قبل التدوين 309 ، دراسات فى السنة النبوية للدكتور صديق عبد العظيم 119 ، معالم السنة النبوية للدكتور عبد الرحمن عتر 79 .

رضي الله عنه ، أما علي رضي الله عنه فقد انشغل بحل الخلافات وما زامنها من الحروب ولم يتفرغ للتفكير في جمع السنة .

5- لم تتوافر الدواعي على التدوين العام للسنة في هذا العهد ، لعدم الحاجة إلى ذلك ، فالصحابة متوافرون ، والحديث محفوظ بإتقان ، يروونه للتابعين ، ويتداولونه فيما بينهم ، فلما خيف على الحديث أن يندرس ويذهب بذهاب حفاظه ظهرت الحاجة إلى تدوينه ، فقامت بذلك الدولة المسلمة على يد عمر بن عبد العزيز ، ثم تنافس أهل العلم في ذلك .

6- كانت الرواية الشفوية للسنة بضوابطها المتقدمة هي الطريقة الأكثر اعتمادا في القرن الأول للهجرة ، وقد زامن ذلك كتابات كثيرة اعتمد عليها من بعدهم في التدوين ثم التصنيف ، كما سيأتي بيانه ، وكان كلام ابن حجر في غاية الدقة عندما قال: "اعلم علمني الله وإياك أن آثار النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن في عصر أصحابه وكبار تابعيهم مدونة في الجوامع ولا مرتبة"[332] ، أي إن ما كتب منها كان متناثرا ولم يكن على شكل كتب مبوبة .

أولًا التدوين في عهد الصحابة والتابعين :

إن المتتبع لكتب التراث يجد إشارات لا تحصى لما كتبه الصحابة والتابعون من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، كما هو واضح في الأمثلة التالية :

أ- نماذج من كتابات الصحابة :

1- كتاب أبي بكر رضي الله عنه لأنس بن مالك عامله على البحرين ، وقد جاء أوله : "بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي أمر الله بها رسوله . " ، وهو حديث طويل أخرجه البخاري وغيره .

2- كتاب عمر رضي الله عنه إلى عتبة بن فرقد عامله على البحرين ، فقد روى الإمام أحمد عن أبي عثمان النهدي قال: "كنا مع عتبة بن فرقد ، فكتب إليه عمر بأشياء يحدثه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان فيما كتب إليه: إن رسول الله صلى الله عليه

(332) هدى السارى 6 .

وسلم قال: لا يلبس الحرير في الدنيا إلا من ليس له في الآخرة منه شـــيء إلا هكـــذا ، وقال- أي أشار- بأصبعيه السبابة والوسطى".

ووجد في قائم سيف عمر صحيفة فيها صدقة السوائم[333] .

3- وكان البراء بن عازب يحدث التابعين فيكتبون حديثه عن الـــنبي صـــلى الله عليه وسلم ، فعن عبد الله بن خنيس قال: "رأيتهم عند البراء يكتبون علـــى أيديـــــهم بالقصـــب"[334] .

4- وكان أنس بن مالك يملي الحديث على طلابه ، حتى إذا كثر عليه النـــاس جاء بمجال- جمع مجلة- من كتب فألقاها ، ثم قال: "هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عـــن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرضتها عليه"[335] .

5- ولعبد الله بن مسعود كتاب فيه أحاديثه ، كان عند ابنه بعد ذلك ، فعن معن قال: "أخرج إلي عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتاباً ، وحلـــف أنـــه خـــط أبيـــه بيده"[336] .

6- وكتب معاوية بن أبي سفيان إلى المغيرة بن شعبة: اكتب إلي بشيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب إليه المغيرة: "أنه كان ينهى عن قيـــل وقـــال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال"[337] .

7- وكان لعلي صحيفته المشهورة ، وفيها أسنان الإبل وشيء من الجراحـــات وأحكام الدية والعتق[338] .

8- وكان الحسن بن علي يقول لبنيه وبني أخيه: "تعلموا تعلموا ، فإنكم صغار قوم اليوم ، تكونون كبارهم غدا ، فمن لم يحفظ منكم فليكتبه ويضعه في بيته"[339] .

---

(333) انظر الكفاية 353 .
(334) جامع بيان العلم 81/1 .
(335) تاريخ بغداد 258/8 .
(336) جامع بيان العلم 42/1 .
(337) البخارى مع الفتح 104/4 ح 1477 .
(338) مسند أحمد 45/2 ، 122 .
(339) الكفاية 229 ، تقييد العلم 91/1 .

9- وكان لابن عباس ألواح يكتب فيها الحديث عن الصحابة ، وقد تجمع لديه حمولة جمل من الكتب والدفاتر ، وقد قالت سلمى زوجة أبي رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم : "رأيت عبد الله بن عباس يأتي إلى زوجي أبي رافع حاملا معه ألواحا خشبية ليكتب أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم"[340] .

10- وكان لابن عمر كتب ، لا يخرج من بيته حتى ينظر فيها[341] .

11- وكان لسمرة بن جندب نسخة فيها أحاديث كثيرة آلت لابنه سليمان والحسن البصري ، وحدثا منها[342] .

12- وكان سعد بن عبادة أحد من حظي في المدينة بلقب "الكامل" قبل الإسلام لمعرفته للكتابة ، وقد دون أحاديثه في كتاب رواه عنه ابنه[343] .

13- وكان لمعاذ بن جبل كتاب يشتمل على أحاديث ، أصبح في حوزة ابن عائذ ، وله كتاب آخر آل إلى موسى بن طلحة[344] .

14- وكان لأبي رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم كتاب فيه أحاديث سلمه إلى أبي بكر بن عبد الرحمن بن هشام[345] .

15- وكان لكعب بن عمرو مجموعة من الصحف الحديثية[346] .

16- كتب أبي هريرة رضي الله عنه: لقد مر أبو هريرة بمرحلتين في كتابة السنة ، فقد كان ممتنعا في البداية ، ثم باشر الكتابة آخراً ، وكان له في منزله كتب كثيرة ، نقلها عنه جملة من تلاميذه ، مثل همام بن منبه ومحمد بن سيرين وسعيد المقبري ، وغيرهم[347] .

---

(340) طبقات ابن سعد 123/2 ، وانظر صحيح مسلم 7/1 ، الكفاية 384 .
(341) الآداب الشرعية 125/2 .
(342) طبقات ابن سعد 115/7 ، تذكرة الحفاظ 268/2 ، 236/4 .
(343) الأم 112/7 ، مشاهير علماء الأمصار 130 .
(344) مسند أحمد 228/5 ، سيرة ابن هشام 886 ، 956 .
(345) الكفاية 39 .
(346) انظر : دلائل التوثيق المبكر 425 .
(347) انظر : صحيفة همام 37 ، دلائل التوثيق 436 .

17- وكان لجابر بن عبد الله صحيفة أفاد منها عبد الرزاق في مصنفه[348] .

18- وكان لعبيدة السلماني كتاب دون فيه أحاديثه ، فلما قاربته الوفاة أمر بحرقها لئلا تؤول إلى غير أهلها[349] .

19- وكان لرافع بن خديج مجموعة أحاديث مكتوبة[350].

20- وكان لشمعون الأزدي صحف فيها حديثه ، ويقال إنه أول من كتب على وجهي الورقة[351] .

هذه نماذج لعشرين صحابيا كتبوا الحديث ، وهي كافية في الدلالة على كثرة من كتب السنة من الصحابة ، ومن أراد أن يستقصي وجد كثيرا غير هذه النماذج .

ب- نماذج من كتابات التابعين :

وقد زادت كتابة السنة انتشارا في عهد التابعين ، ومن أمثلة ذلك مايلي :

1- كان لسعيد بن جبير (ت95هـ) مجموعة واسعة من الأحاديث المدونة ، منها تفسيره وهو قائم على الرواية ، بالإضافة إلى صحفه الحديثية ، وقد كان يكتب الحديث على الورق والألواح ورحل الجمل وسعف النخل ، بل وعلى نعله أحيانا ، وكان كثير التدوين ، لايفرط في ذلك ولو كان راكبا على دابته ، وفي ذلك يقول: أحيانا أسمع حديثا وأنا في رحلة من الرحلات مع ابن عمر أو ابن عباس فأكتبه على رحل ناقتي حتى أنزل فأكتبه[352] .

2- وكان لشهر بن حوشب (ت100هـ) نسخة حديثية كان يملي منها على طلابه[353] .

3- وكان لحبان بن جزء السلمي (ت100هـ) مجموعة أحاديث

(348) انظر : صحيفة همام 27 ، سنن الترمذى 52/6 .
(349) جامع بيان العلم 67/1 ، تقييد العلم 61.
(350) دلائل التوثيق 452 .
(351) الإصابة 156/2 .
(352) انظر : تقييد العلم 103 ، سنن الدارمى 128/1 .
(353) انظر : تاريخ بغداد 59/11 ، الجرح والتعديل 9/3 .

مكتوبة[354].

4- وكان لخالد بن معدان (ت103) صحيفة كبيرة جمع فيها مروياته ، وكانت ذات عرى وأزرار[355] .

5- وكان لأبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي (ت104) مجموعة كبيرة من النسخ الحديثية تصل إلى نصف حمولة بعير ، وقد استفاد منها طلابه ، وآلت إلى أيوب السختياني[356] .

6- وكان للحسن البصري (ت110) صحيفة كبيرة جمع فيها أحاديثه ، بل له مؤلفات منها : تفسير القرآن ، ومجموعة مواعظ ، ومجموعة مسائل وكتاب الإخلاص ، وكان يملي على طلابه من كتبه[357] .

7- وكان لعلي بن يزيد الألهاني (ت110) مجموعة كبيرة من الأحاديث في عدة صحف ، وقد آل بعضها لعبيد الله بن زحر[358] .

8- وكان لقاسم بن عبد الرحمن الشامي (ت112) نسخة حديثية كبيرة آلت لتلميذه علي بن يزيد[359] .

9- وكان لعبد الله بن بريدة الأسلمي (ت115) صحف فيها أحاديثه ، وقد أفاد منها مطر بن طهمان وغيره[360] .

10- وكان لسليمان بن موسى الأسدي (ت115) مجموعة من الأحاديث في صحيفة[361] .

(354) الجرح والتعديل 268/1 .
(355) تذكرة الحفاظ 87/1 ، 166 ، الجرح والتعديل 412/1 .
(356) الكفاية 376 ، 503 ، تذكرة الحفاظ 82/1 .
(357) الكفاية 506 ، جامع بيان العلم 74/1 ، طبقات ابن سعد 115/7 ، 127 .
(358) تهذيب التهذيب 12/7 ، 397 .
(359) تهذيب التهذيب 396/7 .
(360) تهذيب التهذيب 158/6 .
(361) ميزان الاعتدال 225/2 .

11- وكان لطلحة بن نافع (ت117) صحيفة بها مائة حديث نقلها الأعمش ، كما أن طلحة نقل من صحيفة جابر رضي الله عنه[362] .

12- وكان عطاء بن أبي رباح (ت117) معروفا بكتابته وإملائه لطلابه ، وكانت له صحيفة حديثية آلت لابنه يعقوب ، وكان له أحاديث مكتوبة عن علي رضي الله عنه[363] .

13- وكان محمد بن شهاب الزهري (ت124) أكثر من كتب السنة في هذا العصر ، بجهد فردي ، واستجابة للأمر الرسمي من عمر بن عبد العزيز بجمع السنة ، وكانت له كتب في الحديث والمغازي والأنساب ، وكان يدون كل ما يسمعه من الحديث ، كما كان يدون آثار الصحابة والتابعين ، وقد كان بعض قرنائه يقتصرون على كتابة الحلال والحرام في حين دون هو كل شيء مرفوعا وموقوفا ، فعبروا عن ندمهم بعد ذلك ، فهذا صالح بن كيسان يقول: "لقد كتب الزهري ، ولم أكتب ، ولهذا فقد نجح وضيعت" ، وكان الزهري يمنع طلابه من حضور المجالس الحديثية بلا نسخ[364] .

14- وكان لخالد بن أبي عمران التونسي (ت125) مجموعة من الأحاديث كتبها عن علماء التابعين في المدينة ، ورجع بها إلى إفريقية حيث حدث بها ، وقد اعتمدها سحنون بن سعيد في المدونة ، وغيره من علماء إفريقية[365] .

15- وكان ليزيد بن أبي حبيب المصري (ت 128) مجموعة أحاديث مكتوبة عن الزهري وعطاء بن أبي رباح ، وكانت صحيفته في الحديث يتناقلها أهل مصر وغيرهم[366] .

---

(362) ميزان الاعتدال 342/2 ، تهذيب التهذيب 224/4 .

(363) تهذيب التهذيب 329/3 ، مقدمة الجرح والتعديل 130 ، صحيح البخارى 43/2 ، 240/3 .

(364) الجرح والتعديل 38/3 ، صحيح مسلم 653/2 ، تهذيب التهذيب 362/10 ، تذكرة الحفاظ 105/1 ، تاريخ الإسلام 143/5 .

(365) الجرح والتعديل 345/1 ، تهذيب التهذيب 39/2 ، طبقات أبي العرب 246 ، رياض النفوس للمالكى 163/1 .

(366) تهذيب التهذيب 447/9 .

16- وكان لبكر بن وائل (ت130) صحيفة فيها مجموعة أحاديث ، وقد مات قبل والده ، فآلت النسخة إلى والده الذي استفاد منها[367] .

17- وكان لهمام بن منبه صحيفة ضخمة أخذها عن شيخه أبي هريرة ، وقد أفاد المصنفون من هذه النسخة ، وضمنوها في مصنفاتهم ، مثل عبد الرزاق في مصنفه والإمام أحمد في مسنده ، وقد تناقلت الأجيال هذه النسخة سليمة ، حتى اكتشفت في القرن العشرين ، ونال الدكتور محمد حميد الله شرف أول طبعة لها ، وهي من أعظم الإثباتات على قدم تدوين السنة[368] .

18- وكان لعلي بن عبد الرحمن (ت139) نسخة حديثية ، وكان يتشدد في أن ينسخها الطلاب مجتمعة ، وينهى عن نسخ بعضها دون بعض[369] .

19- وكان لحميد الطويل (ت142) مجموعة من الأحاديث المكتوبة نقلها عن صحف الحسن البصري وعن عكرمة مولى ابن عباس[370] .

20- وكان لهشام بن عروة (ت146) أحاديث مكتوبة ، وكان يملي الحديث على طلابه الذين يدونون حديثه ثم يعرضونه عليه مثل خالد بن الحارث ونوح بن أبي مريم[371] .

هذه نماذج لعشرين دونوا الحديث في عهد التابعين ، من باب التمثيل وليس الاستقصاء ، وليستدل بها على غيرها في شيوع الكتابة وتداولها في هذا العصر .

(367) الكفاية 506 ، تهذيب التهذيب 488/1 .

(368) تذكرة الحفاظ 95/1 ، مسند أحمد 312/2-318 ، الكفاية 321 ، صحيفة همام 44 .

(369) المعارف لابن قتيبة 168 ، الكفاية 321 .

(370) تقييد العلم 101 ، تهذيب التهذيب 39/3 ، طبقات ابن سعد 116/7 ، 126 ، المعارف لابن قتيبة 321 .

(371) أدب الإملاء للسمعاني 78 ، الكفاية 350 ، 459 .

ثانيا: التدوين الرسمي للسنة[372] :

لقد مر التدوين الرسمي للسنة بثلاث مراحل:

* المرحلة الأولى : طرحت الفكرة للبحث في عهد عمر رضي الله عنه ، واستخار الله في ذلك شهرا ثم تركها للأسباب التي تقدم بيانها قريبا[373] .

* المرحلة الثانية : ما قام به أمير مصر عبد العزيز بن مروان (ت85) ، وقد عرف بحبه للعلم وحرصه على السنة ، فقد قال محدث مصر الليث بن سعد: حدثني يزيد بن أبي حبيب أن عبد العزيز بن مروان كتب إلى كثير بن مرة الحضرمي- وكان قد أدرك بحمص سبعين بدريا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم- أن يكتب إليه بما سمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديثهم إلا حديث أبي هريرة فإنه عندنا"[374] ، فحديث أبي هريرة كان مكتوبا عند أمير مصر ، وعدده 5374 حديثا كما هو معروف ، وأراد استكمال الباقي عن طريق أحد أئمة الحديث ثقة وأمانة وإكثاراً من لقي كبار الصحابة من أهل بدر.

وهذا يزيد أمر تدوين السنة المبكر إيضاحا ، ويصحح المعلومة الشائعة من أن التدوين الرسمي تم على رأس المائة الأولى ، بينما تدل الرواية السابقة على أن هذا التدوين قد تم في حدود العقد الثامن من القرن الأول ، ولا شك أن إبراز هذا الأمر بمزيد من البحث سيكون له أبلغ الأثر في تدعيم دلائل التوثيق المبكر للسنة[375] .

ولا يبعد أن يكون عمر بن عبد العزيز قد أخذ الفكرة من والده ، فكان للوالد فضل السبق ، وكان للابن البار شرف تكميل المهمة.

* المرحلة الثالثة : التدوين العام على يد عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد الخامس : امتاز هذا الجهد بثلاثة ملامح :

---

(372) راجع : السنة قبل التدوين 328-375 ، معالم السنة النبوية 82-84 ، الحديث النبوى 36 ، دراسات فى السنة النبوية 131-133 ، الحديث والمحدثون 179 ، السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى 103-105 .

(373) راجع : مدخل مبحث تدوين السنة رقم 4 ، 5 .

(374) طبقات ابن سعد 157/7 ، تهذيب التهذيب 429/8 .

(375) انظر السنة قبل التدوين 373-375 .

أ- استنفار علماء الأمة في الآفاق لنشر السنة وتدوينها:

لقد عمل عمر بن عبد العزيز على حشد طاقات الأمة العلمية في عهده لهذه المهمة السامية ، فأرسل إلى جميع ولاته على الأمصار: "انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه"(376) .

وكتب إلى أهل المدينة : "انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبوه ، فإني خفت دروس العلم وذهاب أهله"(377) .

وكتب إلى عامله أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: "اكتب إلي بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحديث عمرة ، فإني خشيت دروس العلم وذهابه"(378) ، وعمرة هي بنت عبد الرحمن حافظة حديث عائشة رضي الله عنها ، وهي خالة أبي بكر بن حزم.

وجاء في رواية: "فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، ولا تقبل إلا حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وليفشوا العلم ، وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا"(379) .

وكتب إلى الآفاق: "أما بعد ، فأمروا أهل العلم أن ينتشروا في مساجدهم فإن السنة كانت قد أميتت"(380) ، و"إنه لا رأي في كتاب الله ، وإنما رأي الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب ولم تمض به سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا رأي لأحد في سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم"(381) .

كما أمر محمد بن شهاب الزهري وغيره بجمع السنن(382) .

---

(376) فتح البارى **204/1** .

(377) سنن الدارمى **126/1** .

(378) سنن الدارمى **126/1** ، وانظر صحيح البخارى **27/1** .

(379) فتح البارى **204/1** .

(380) المحدث الفاصل **153** .

(381) سنن الدارمى **114/1** .

(382) جامع بيان العلم **76/1** .

ب- فحص المادة المدونة :

إن الذين كلفهم عمر بن عبد العزيز بالتدوين كانوا كبار حفاظ التابعين ، وجهابذة النقاد المحققين ومع ذلك كان يذكرهم بضرورة التمحيص والتحري والتثبت ، كما هو واضح من الروايات المتقدمة "بما ثبت عندك" ، "ولا تقبل إلا حديث النبي صلى الله عليه وسلم".ومع ذلك فإنه كان يجتمع بهم ويراجع معهم المادة المدونة ويناقشهم فيها للتأكد من سلامتها ، فعن عبد الله بن ذكوان قال: "رأيت عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء ، فجمعوا له أشياء من السنن ، فإذا جاء الشيء الذي ليس عليه العمل ، قال: هذه زيادة ليس العمل عليها"[383] .

جـ- نشر المادة المدونة في آفاق بلاد الإسلام:

لقد نقل أن أبا بكر بن حزم قد كتب لعمر بن عبد العزيز بعض ما طلبه[384] ، غير أن التدوين العام قد قام به المحدث الحافظ محمد بن شهاب الزهري ، ولهذا كان ابن شهاب يقول: "ما دوّن هذا العلم أحد قبل تدويني"[385] .

فلما دونت السنة وفحصت أمر عمر بنسخها وسارع بإرسالها إلى كافة البلاد الإسلامية حتى يعتمدها المسلمون وتسلم السنة من الشوائب ، قال الزهري: "أمرنا عمر ابن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفترا دفترا ، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترا"[386] .

وفي هذا رد على المستشرقين ، ودحض لمزاعمهم وشبهاتهم فيما يتعلق بتدوين السنة . ثم تتالت جهود علماء المسلمين بعد ذلك في التدوين وتفننوا في تصنيف السنة ، كما سيأتي .

ثالثا : أوائل من جمع السنة بعد عصر كبار التابعين[387] :

إن الجهود المتقدمة في تدوين السنة قد مهدت الطريق لمن تبعهم من أوائل العلماء

(383) قبول الأخبار 30 .
(384) مقدمة الجرح والتعديل 21 .
(385) إرشاد السارى 14/1 ، تدريب الراوى 40 .
(386) جامع بيان العلم وفضله 76/1 .
(387) راجع : السنة قبل التدوين 337-340 ، دراسات فى السنة النبوية 133 ، 134 ، معالم السنة النبوية 85 ، منهج النقد فى علوم الحديث 59 ، بحوث فى تاريخ السنة المشرفة 232 .

المصنفين ، حيث ظهرت حركة التأليف ونشطت على يدي أبناء النصف الأول من القرن الثاني للهجرة ثم تتالى ازدهارها وتنوع فنونها إلى أن بلغت أوجها في القرن الثالث الذي وسم بأنه العصر الذهبي للسنة ، إذ نضجت فيه علومها في مختلف المجالات رواية ودراية وتصنيفا في ذلك .

وقد امتاز تأليف السنة في هذه المرحلة المبكرة بأمرين عن المرحلة السابقة:

أ- ترتيب الأحاديث على أبواب الفقه ، وضم هذه الأبواب إلى بعضها بعض في كتب ، بينما اقتصر الأمر في المرحلة السابقة على كتابة أحاديث متناثرة لا يجمعها باب واحد في الغالب ، وقد وجد من جمع الأحاديث تحت باب واحد دون أن يضمه إلى غيره من الأبواب ، وهو ما يسمى بالأجزاء الحديثية ، كما فعل عامر الشعبي (ت 103) في جزء الطلاق ، قال الحافظ ابن حجر: "إن ما ذكر إنما هو بالنسبة للجمع في الأبواب ، وأما جمع حديث إلى مثله في باب واحد فقد سبق إليه الشعبي"[(388)] .

ب- عدم الاقتصار على الحديث المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان هو الأغلب ، إلا أنهم أضافوا إليه فتاوى الصحابة والتابعين وما أثر عنهم من أقوالهم وأفعالهم .

وقد ظهرت المصنفات في هذه الفترة دفعة واحدة ، ولذلك فلم يعرف على وجه التحديد أول من صنف وبوب ، فربطوا ذلك بالبلدان ، وقالوا: أول من صنف بمكة: ابن جريج (ت150) ، وأول من صنف بالمدينة: مالك بن أنس (ت179) أو محمد بن إسحاق (ت151) ، وهكذا ، وسوف أرتبهم بحسب تواريخ وفياتهم ، مع ذكر بلدانهم:

1- عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (ت150هـ) بمكة .

2- محمد بن إسحاق (ت151) بالمدينة .

3- معمر بن راشد (ت153) باليمن .

4- سعيد بن أبي عروبة (ت156) بالبصرة .

(388) هدى السارى 4 ، توجيه النظر 8 .

5- عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت156) بالشام .

6- محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب (ت158) بالمدينة .

7- الربيع بن صبيح (ت160) بالبصرة .

8- شعبة بن الحجاج (ت160) بالبصرة .

9- سفيان بن سعيد الثوري (ت161) بالكوفة .

10- الليث بن سعد (ت175) بمصر .

11- حماد بن سلمة بن دينار (ت176) بالبصرة .

12- مالك بن أنس (ت179) بالمدينة .

13- عبد الله بن المبارك (ت 181) بخراسان .

14- هشيم بن بشير (ت188) بواسط .

15- جرير بن عبد الحميد الضبي (ت188) بالري .

16- عبد الله بن وهب (ت197) بمصر .

17- سفيان بن عيينة (ت198) بمكة .

18- عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت211) باليمن .

وقد حملت مصنفاتهم عناوين ، مثل: مصنف ، سنن ، موطأ ، جامع ، مسند .

ثم ازدهرت حركة التأليف في الفترة التالية فظهرت الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها ، كما سيأتي بيانه في المبحث السابع بإذن الله.

رابعا : رأي المستشرقين في التدوين والرد عليهم[389] :

رغم تلك الحقائق العلمية الوافية والموثقة بخصوص تاريخ تدوين السنة المبكر ودلائله الدامغة فقد تعنت كثير من المستشرقين في موقفهم من تدوين السنة ، وتحكموا بالجهالة حينا وبالإغراض والمكر والكيد أحيانا ، ليغرروا بالجهلة من أبناء الأمة المسلمة وبالمستغربين المنتسبين للإسلام ، الذين يرددون ما يقوله أولئك دون تكلف عناء البحث

(389) راجع : حجية السنة 392 ، السنة قبل التدوين 375 ، منهج النقد فى علوم الحديث 49 ، السنة ومكانتها فى التشريع 158 ، دلائل التوثيق المبكر 151 ، 238-307 .

العلمي الجاد في حين يدّعون الثقافة والمعرفة وهي منهم براء ، ففضحوا بذلك أنفسهم وأفصحوا عن جهلهم وخسروا دينهم .

ولقد عني المستشرقون عناية خاصة بموضوع تدوين السنة ، وركز قطاع كبير منهم همهم على ترويج الشكوك والالتباسات حولها في صور مختلفة ، بقصد التشكيك في مرجعيتها وحمل المسلمين على تركها حتى ينسلخوا عن دينهم .

ولتعلم يا أخي المسلم أن التدافع بين الحق والباطل سنة إلهية ، قال تعالى: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز}(390) ، وسيستمر هذا الصراع إلى أن يورّث الله الأرض لعباده الصالحين ويستخلفهم فيها ، فإن للباطل جولة أو جولات ، وللحق صولة ودولة وتمكين إذا وُجِدَ أهله المخلصون العاملون .

وقد مني الإسلام منذ عهوده الأولى بأعداء لا ينامون ، يكيدون ويتآمرون عليه بالليل والنهار {ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}(391) .

وهؤلاء الأعداء أنواع متعددة ، أكثرهم خسة ونذالة هم الذين نقلوا المعركة من المواجهة العلمية أو العسكرية في ميدان مكشوف إلى الدس والخديعة في الظلام ، لأنهم وجدوا أن النوع الأول من المواجهة سرعان ما يظهر فيه زيف باطلهم ويهزم فيه جندهم ، فلجؤوا إلى إثارة الشبهات حول هذا الدين ، لتشكيك الأمة في أصول شرعها ، فكان ذلك الدس على السنة قديما وحديثا.

ولم يدرك هؤلاء أن الله قد حمى شرعه ، وهيأ لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم علماء أفذاذا نافحوا عنها ، وردوا كيد الأعداء في نحورهم {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}(392) .

ولقد أثار اليهودَ والنصارى توسعُ ديار الإسلام على حساب ديارهم وغاظهم انتشار الحق وتهاوي رموز الباطل أمام جحافل الإسلام التي ترفع راية التوحيد وتدمر

(390) الحج : (40) .
(391) الأنفال : (30) .
(392) الحجر : (9) .

الشرك وأهله وتقمع معسكرات الكفر إذا أصر أهلها على الضلال .

ومن هنا تولد لديهم حقد دفين ضد الإسلام والمسلمين ، ظهر في البداية في صورة فرق هدامة ، ثم خمد أمره حينا من الزمان ليظهر بعد ذلك في صورة الحروب الصليبية ، ثم في صورة الاستعمار الغربي الحديث للبلاد الإسلامية .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر أدرك الأعداء أن الاستعمار المباشر لبلاد المسلمين لا يزيد المسلمين إلا تمسكا بدينهم وحقدا على الكفار ومناهجهم ، بالإضافة إلى مناداة كثير منهم بمنافاة هذا النوع من الغزو المتوحش للأساليب المتحضرة في التعامل بين الشعوب ، وأنه تعد سافر لا يمكن تبريره ، فانتقلوا إلى التركيز على نوع آخر من الاستعمار هو الغزو الفكري للعقائد والعقول ، وهو أشد فتكا وأكثر ضررا من الاستعمار العسكري ، مع محافظتهم الشكلية على سمعتهم الخارجية ، فغادرت جيوشهم أوطان المسلمين ، بعد أن تركوها في وضع يستطيعون معه تحقيق أهدافهم دون مشقة ، حيث ركزوا مناهجهم في مجالات التعليم والتربية والثقافة والاقتصاد والإعلام.. . وشجعوا على هجرة أبناء المسلمين للتعلم لديهم والتتلمذ عندهم ، ومنحوهم الشهادات العالية ليعودوا بعد ذلك إلى بلدانهم سفراء يبثون سموم الغزو الفكري والحداثة والعلمانية.

وكان لابد للعقلية الغربية الحاقدة أن تفكر في طريقة محكمة مخطط لها بدقة لضمان استمرار السيطرة الفكرية ، ومن هنا عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس سنة 1873 لمناقشة هذه القضية والتخطيط لها وتقنينها ، ثم توالى عقد المؤتمرات وتنسيق الأدوار ومتابعة التنفيذ ، فمنهم من يركز على ثلب القرآن ، ومنهم من يركز على الطعن في السنة ، ومنهم من تخصص في نظام الحدود ، ومنهم من يثير قضية المرأة ، ومنهم من جعل همه الطعن على رموز الإسلام ورجالاته عبر التاريخ...وقد ألفوا في ذلك الكتب الكثيرة والدوريات العديدة ، وعقدوا المنتديات والمؤتمرات ، وقرروا أبحاثهم في مناهج الجامعات ، وخرجوا مئات من المتخصصين في الدراسات الإسلامية وفق مناهجهم المنحرفة ، وأصبحوا مراجع مشبوهة لتلك التخصصات.

ومن باب موضوعية المسلم وأمانته وما ينبغي أن يتحلى به من العدل نقول: إنه

بالرغم من الهدف العقدي الواضح للاستشراق والمتمثل في الكيد المستمر للإسلام فإنــه يوجد عدد قليل منهم قد تحلى بنوع من الموضوعية انتهت ببعضهم إلى اعتناق الإســلام مثل محمد أسد وأتين دينيه .

ومن الأسماء المشهورة في الطعن على السنة والكيد للإسلام ما يلي :

– جولد زيهر اليهودي المجري ، وهو من أسوئهم وأكثرهم جرأة ، ومن كتبه في هذا المجال : دراسات إسلامية ، والعقيده والشريعة في الإسلام ، وقد عقد في الكتــاب الأول فصلا حول كتابة الحديث.

– شاخت وهو يهودي ألماني ، ومن كتبه: تاريخ التشريع الإسلامي ، وأصــول الفقه الإسلامي.

– سوفاجيه ، له كتاب: الحديث عند العرب.

– شبرنجر ، وهو ألماني ، له مقالة حول تطور الكتابة في الإسلام.

– بالإضافة إلى رئيسهم زيمر ، وكريمر ، وفنوك ، وغيرهم.وقد انبرى في الــرد على هؤلاء وعلى تلاميذهم من المنتسبين للإسلام جماعة من المعاصرين ، منهم:

– الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه: دفاع عن السنة.

– الدكتور عبد الغني عبد الخالق في كتابه: حجية السنة.

– الدكتور مصطفى السباعي في كتابه: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي.

– الشيخ محمد الغزالي في كتابه: دفاع عن العقيدة والشريعة.

– الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في كتابه: ظلمات أبي رية.

– الشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني في كتابه: الأنوار الكاشفة .

ويتلخص رأي هؤلاء حول تدوين السنة في أمرين :

1– التركيز على تأخر التدوين إلى القرن الثاني ، بل إن منهم من يتجرأ ويذكر أنها لم تدون إلا في القرن الثالث ، ليجعلوا من وجهة نظرهم سبيلا إلى تحريفها والزيــادة والنقصان فيها ، وليقارنوا بينها وبين ما كتبه النصارى بعد رفع عيسى عليــه الســلام بقرون ، ليصلوا إلى إضعاف الثقة بها.

ويكفي في الرد على هذا الزعم الباطل العودة إلى ما أثبت في المباحث السابقة من

الأدلة العلمية الوافية والموثقة حول التدوين الموسع للسنة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعصر الصحابة والتابعين.

بالإضافة إلى ما تقدم أيضا من ذكر تثبت الصحابة ومن بعدهم في تحمل السنة وروايتها ، وما بنوه من المنهج المتميز في قواعد الرواية وصيانة السنة.

كما ينبغي التذكير هنا بنظام الإسناد وعلم الرجال والجرح والتعديل وما له من الأثر البين في حفظ السنة ، وإن نظام الإسناد من خصائص هذه الأمة كما هو معلوم ، ولا يجادل في ذلك إلا مكابر ، لأنه أمر واقعي لا يرقى إلى الشك ، ومن خالف فيه يقال له: هات برهانك ، وأنى لهم ذلك؟

2- أما الطرف الثاني من شبهتهم فهو التهوين من شأن الحفظ والرواية الشفوية ، وجعلها سبيلا إلى تضييع السنة ، وبالتالي انعدام وزن ما نقل منها بهذه الطريقة.

ونحن نقرر هنا أن الحفظ والرواية الشفوية المنضبطة كانت من وسائل حفظ السنة ، وأن ما لم يكتب من السنة في العهد النبوي قد نقل بهذه الواسطة ، وهي أحكم وأدق من الكتابة ، وبيان ذلك على النحو التالي :

أ- إن المعوّل عليه في صيانة الحجة والمحافظة عليها من التبديل والخطأ هو عدالة حامليها وضبطهم وحرصهم وورعهم ، يستوي في ذلك حفظ الصدر وكتابة القلم ، فإذا اجتمع ذلك ، أي حفظ الصدر مع عدالة النقلة ، أو الكتابة مع عدالة النقلة كان ذلك منتهى المحافظة ، أما إذا انتفت العدالة فلا يوثق حينئذ بحفظ ولا كتابة ، ولا تُجدي الكتابة حينئذ بمجرّدها ولم نأمن من العبث والتبديل ، ولذلك فإن التشدد في أوصاف الرواة كان معيارا لازما لقبول كل حديث ، سواء روي حفظا أو كتابة .

ومما يؤكد أن الكتابة وحدها لا تجدي إذا انتفت العدالة أن اليهود والنصارى كانوا يكتبون التوراة والإنجيل ويحرفون فيها لعدم وجود العدالة ، قال تعالى: {فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون}[393] .

وكم من مكتوب اليوم في الكتب والجرائد والمجلات مليء بالكذب والخلط

---

(393) البقرة : (79) .

والتزوير!فالكتابة وحدها إذاً لا تفيد القطع بصحة المكتوب إلا إذا نقلها عدول أمناء.

ب- إن الكتابة دون الحفظ من حيث القوة ، وهذا أمر قررهُ أهل العلم ويشهد له الواقع أيضا .

- أما من حيث تقرير أهل العلم ، فقد أجمع المحدثون على أن الرواية المأخوذة عن حفظ (مع عدالة الناقل طبعا) أقوى درجة من الرواية بالمكاتبة.

كما اتفق الأصوليون عند الكلام على طرق ترجيح الأخبار أنه إذا تعارض خبران وكان أحدهما مرويا بالسماع والآخر مرويا بالكتابة أنه يقع ترجيح الخبر المروي سماعا.

- ومن حيث الواقع يدرك كل منا من نفسه أنه أكثر إتقانا لما يحفظه عن ظهر قلب مما يكتبه ، بل إنه قد يكون حافظا للشيء عن ظهر قلب فإذا كتبه أخطأ فيه.ولهذا أوجب المحدثون على من يكتب الحديث أن يقوم بمقابلة مع كتبه على الأصل حتى يتأكد من سلامة ما كتب ، ولم يعتدوا بأي نسخة حديثية إذا لم تكن مقابلة ، وجعلوا علامات تعرف بها النسخ المقابلة من غيرها.

ج- وإذا كان الحفظ أكثر قوة من الكتابة بالنسبة لعامة الناس ، فإن ذلك يزداد وضوحا وتأكدا بالنسبة للعرب لما اشتهروا به من قوة الحافظة ، ويزداد قوة وتأكدا بالنسبة للصحابة والتابعين خصوصا لتوافر الدواعي على حرصهم على الاعتناء بالسنة وحمايتها وخوفهم من الوقوع في الخطأ عند التبليغ عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه حفظ قصيدة فيها خمسة وسبعون بيتا من أول سماع لها ، وروي عن الزهري والشعبي من علماء التابعين أنهما يحفظان الشيء من أول سماع له .

د- إن الحفظ أعظم بركة وأكثر فائدة وأجدى نفعا من الكتابة ، لأن حفظك ينتقل معك حيث ذهبت فتستفيد منه وتفيد غيرك حيثما حللت ، بخلاف المكتوب الذي إذا ضاع أو احترق ذهب ما فيه من العلم ، قال الخليل بن أحمد:

ليس بعلم ما حواه القمطر ما العلم إلا ما حواه الصدر

وبهذا تدرك زيف ادعاءاتهم المغرضة وبطلان مزاعمهم المشبوهة ، وسيأتي مزيد من

الرد على شبهاتهم في المبحث الأخير من هذا الكتاب إن شاء الله .

المراجع المساعدة

1- دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ، د . الأعظمي.

2- دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث ، د . امتياز أحمد.

3- السنة قبل التدوين ، للخطيب 309 .

4- دراسات في السنة النبوية ، د . صديق عبد العظيم 119 .

5- معالم السنة النبوية ، د . عبد الرحمن عتر ، 79 .

أسئلة التقويم الذاتي :

1- ما الدافع لكراهة بعض الصحابة لكتابة السنة بعد العهد النبوي ، مع أن الأمر قد استقر على الكتابة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟

2- لماذا عاد إلى الكتابة بعض من كان يكرهها من الصحابة ؟

3- ما هي مراحل التدوين الرسمي للسنة ؟

4- اذكر خمسة نماذج من كتابات الصحابة ومثلها من كتابات التابعين،مع التحليل والمناقشة.

5- ما هي خصائص التدوين العام الذي أمر به عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ؟

6- من هو أول من جمع السنة بعد عصر كبار التابعين في حواضر العالم الإسلامي الأساسية ؟

7- ما هو موقف المستشرقين العام من الإسلام عامة ومن السنة خاصة؟ واذكر بعض مشاهيرهم في هذا المجال ؟

8- اذكر خمسة كتب تولت الرد على شبهات المستشرقين حول السنة .

9- ما هي الشبهات الأساسية التي أثارها المستشرقون حول تدوين السنة،وكيف ترد عليهم؟

10- ما هو المعول عليه في صيانة الحجة ؟

11- قارن بين الحفظ والكتابة في مستوى صيانة الحجة .

12- اكتب ثلاث صفحات بتعبيرك تضمنها خلاصة ما فهمته من هذا المبحث .

الوحدة الرابعة

المبحث السابع :
أنواع التصنيف فى السنة

- مدخل
- 1- الكتب المصنفة على الأبواب
- 2- الكتب المرتبة على أسماء الصحابة
- 3- المعاجم
- 4- الكتب المرتبة على أوائل الحديث
- 5- المجامع
- 6- مصنفات الزوائد
- 7- كتب التخريج
- 8- الأجزاء الحديثية
- 9- المشيخات
- 10- كتب العلل

المبحث السابع
أنواع التصنيف في السنة

الأهداف الخاصة

1- معرفة الأنواع الأساسية لمصنفات المحدثين في السنة .

2- إدراك الفروق بين تلك الأنواع وآثارها في تيسير الاستفادة من السنة.

3- معرفة كيفية الاستفادة من كل نوع ، وحفظ نماذج كافية من المؤلفات فيه.

4- معرفة خصائص الكتب الستة ومسند أحمد وموطأ مالك وحكم أحاديثها ، والبدء في مباشرة التعامل معها باحثاً ومستفيداً وساعياً للتطبيق .

5- إدراك عظمة الجهود التي بذلها المحدثون في تصنيف السنة ، وما ابتكروه في ذلك من مناهج التأليف .

6- السعي لتكوين مكتبة تحتوي على أمهات كتب السنة .

المبحث السابع
أنواع التصنيف في السنة[394]

مدخل :

لقد تتابعت جهود المحدثين في جمع السنة وتكاملت لتمثل صرحاً هائلاً يعجب الناظر فيه من ثرائه وتنوعه ، فبعد عصر التدوين جاء عصر التصنيف بعد انقضاء عصر التابعين . وقد اكتملت هذه الجهود ونضجت في القرن الثالث الذي يسمى العصر الذهبي للسنة ، حيث تفنن المحدثون في طرق التصنيف ، وجردوا الأحاديث من الفتاوى وأقوال الصحابة والتابعين ، وابتكروا مناهج كثيرة في تصنيفاتهم ، فمنهم من قصد إلى تجريد الصحيح وحده ، ومنهم من صنف على أبواب الفقه ، ومنهم من صنف على مسانيد الصحابة إلى غير ذلك من أغراضهم الرامية إلى جمع سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم وتقريبها من طالبها وتيسير الاستفادة منها في معرفة صحيح الاعتقاد ، وصفة العبادة الشرعية ، وآداب الإسلام وفضائله وتوجيهاته في مجالات الحياة جميعها ، وفيما يلي ذكر أهم أنواع التصنيف في الحديث النبوي ، مع التمثيل لها ، والتعريف بالكتب الستة وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد لأهميتها :

النوع الأول: الكتب المصنفة على الأبواب :

وطريقة هذا النوع من التصنيف أن تجمع الأحاديث ذات الموضوع الواحد تحت

---

(394) راجع : الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة للكتانى ، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة ، هدية العارفين بأسماء المؤلفين لإسماعيل باشا البغدادى ، تاريخ التراث العربى لفؤاد سزكين ، الحطة فى ذكر الصحاح الستة للقنوجى ، منهج النقد فى علوم الحديث 197-209 ،أصول الحديث د. محمد عجاج الخطيب فى 181 ،312- 326، علوم الحديث ، د. صبحى الصالح 115-125 ، معالم السنة النبوية 198-221 ، الحديث النبوى للصباغ 279-336 ، بحوث فى تاريخ السنة للعمرى 241-256 ، أصول التخريج ودراسة الأسانيد للدكتور الطحان .

عنوان واحد يسمى"كتاب" ، مثل كتاب الصلاة ، وكتاب العلم ، وكتاب الإيمان ، وتحت هذا الكتاب أبواب كثيرة يعنون لها بعنوانات تسمى عند المحدثين تراجم الأبواب ، ويوجد في كل باب مجموعة من الأحاديث التي يتناولها عنوانه ، مثل باب من جلس في المسجد ، وباب فضل إخفاء الصدقة .

وهذه الطريقة تساعد على سرعة الوصول إلى الحديث بمعرفة موضوعه ، كما تساعد الباحث والمستفيد على معرفة أحاديث الموضوع الواحد . غير أن هذا النوع من البحث يحتاج إلى دربة واطلاع وخبرة بمناهج الأئمة في التصنيف.

وللتصنيف على الأبواب طرق متعددة ، أهمها: الجوامع ، والسنن ، والمصنفات ، والمستدركات ، والمستخرجات ، والموطآت .

أولا- الجوامع :

يعرّف الجامع في اصطلاح المحدثين بأنه: كتاب الحديث المرتب على الأبواب مع شموله جميع موضوعات الدين الأساسية ، وقد اصطلحوا على أنها ثمانية: العقائد ، والأحكام ، والسير ، والآداب ، والتفسير ، والفتن ، وأشراط الساعة ، والمناقب.

وأشهر الجوامع : الجامع الصحيح للبخاري ، والجامع الصحيح لمسلم ، وجامع عبد الرزاق الصنعاني ، وجامع سفيان الثوري ، وجامع سفيان بن عيينة ، وجامع معمر ابن راشد ، وغيرها . وفيما يلي تعريف مختصر بصحيحي البخاري ومسلم.

1- صحيح البخاري :

أ- عنوان الكتاب : "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه" ، وهو معروف بصحيح البخاري.

ب- مؤلفه : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (194-256هـ) ، الإمام المحدث الحافظ المتقن ، شيخ الإسلام ، عالم الحديث وعلله ورجاله ، الزاهد الورع المهذب . بدأ حفظ الحديث دون سن العاشرة ، ورحل في طلبه وهو ابن ستة عشر عاماً ، ودخل مكة والمدينة والعراق والشام ومصر ، وسمع أكثر من ألف شيخ ، وجمع نحو ستمائة ألف حديث ، وتلقى الناس عنه وهو دون الثامنة عشرة ، له مصنفات كثيرة ، منها : الجامع الصحيح ، والتاريخ الكبير والأوسط والصغير ، والضعفاء الكبير

والصغير ، والأدب المفرد .

جـ- التعريف بالجامع الصحيح :

– هو أول كتاب ألف في الصحيح المجرد ، ابتدأ البخاري تأليفه بالحرم الشريف ، ولبث في تصنيفه ستة عشر عاماً ، وما كان يضع فيه حديثاً إلا بعد استكمال سبل البحث فيه سنداً ومتناً للتأكد من صحته ، ثم يغتسل ويصلي ركعتين ، ويستخير الله في وضعه في كتابه . وبعد أن انتهى منه عرضه على علماء عصره فوافقوه على صحة أحاديثه عدا أربعة أحاديث تفاوتت وجهات نظرهم فيها . وقد قال المحققون من أهل العلم إن الصواب في ذلك إلى جانب الإمام البخاري ، فكل ما في كتابه صحيح ، وقد تلقته الأمة بالقبول جيلاً بعد جيل ، وأجمعوا عليه ، وعلى أنه أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى .

– شرط البخاري في صحيحه: قصد البخاري إلى جمع الصحيح دون غيره ، واشترط أن يكون كل راو في سند الحديث قد عاصر شيخه فيه وثبت أنه لقيه ولو مرة واحدة حتى يحكم باتصاله ، بالإضافة إلى العدالة والضبط والسلامة من الشذوذ والسلامة من العلة القادحة ، كما هو معروف في شروط الحديث الصحيح.

وقد انتقى البخاري صحيحه من عدد كبير من الأحاديث الصحيحة رامياً إلى الاختصار ، ولهذا فإنه لم يستوعب كل الحديث الصحيح لئلا يطول الكتاب ، قال البخاري : "أحفظ مائة ألف حديث صحيح ، ولم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحاً ، وما تركت من الصحيح أكثر ، وخرجته من ستمائة ألف حديث ، وصنفته في ست عشرة سنة ، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله سبحانه"[395] .

* **عدد أحاديثه :**

ثمة عدة إحصاءات لعدد أحاديث صحيح البخاري ، وهي متباينة لاختلاف المنهج الذي سار عليه كل مُحْصٍ ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن عدة أحاديثه المسندة : (7397) ، وبغير المكرر: (2602) ، وجميع ما فيه من الأحاديث المسندة مع المعلقات والمتابعات (9082) ، وهذا عدا الموقوفات على الصحابة والمقطوعات عن

(395) شرح القسطلانى 29/1 .

التابعين[396] .

أما تعداد محمد فؤاد عبد الباقي كما في الطبعة السلفية فهو: (7563) حـــديثاً مسنداً بالمكرر ، وبغير المكرر:2607 .

أما المعلقات فقد بلغت (1341) ، كثير منها موصول في موضع آخـــر مـــن الكتاب . وقد ألف الحافظ ابن حجر كتاباً في وصل الباقي وهو 159حديثاً ، وسماه: تغليق التعليق ، وأضاف إليها المتابعات والموقوفات.

وحكم معلقات البخاري أن ما كان منها بصيغة الجزم فهو صحيح عمـــن نقـــل عنه ، أما ما لم يكن فيه جزم فليس فيه حكم بصحته عن المضاف إليه ، ومعلوم أن شرط البخاري متحقق في المسند ، أما المعلقات فليست من غرض كتابه ، وإنما أوردها لفوائد إضافية أخرى .

* ترتيبه العام :

يحتوي كتاب البخاري على97 كتاباً أولها : بدء الوحي ، والإيمان ، والعلـــم ، والوضوء ، والغسل ، والحيض ، والتيمم ، والصلاة .. . ، وآخرها : أخبار الآحاد ، والاعتصام بالكتاب والسنة ، والتوحيد .

وقد قسم كل كتاب إلى جملة من الأبواب بلغت في مجموعها: 3405 ، وعنون لكل باب بترجمة دقيقة تلائم محتواه ، وتدل على غزارة فقه البخاري وقدرته العالية على الاستنباط حتى قيل: "إن فقه البخاري في تراجمه".

* ما فيه من التكرار:

كثيراً ما يكرر البخاري الحديث الواحد في عدة مواضع أو يقطعه إلى أجزاء ، إذ إن الحديث الواحد قد يتضمن أحكاماً متعددة ، فيورده في المواضع التي تناسب الأحكام التي يدل عليها ، قال ابن حجر: "تقرر أن البخاري لا يعيد الحديث إلا لفائدة ، ولكـــن تارة تكون في المتن وتارة في الإسناد ، وتارة فيهما ، فلا يوجد في كتابه حـــديث علـــى صورة واحدة في موضعين فصاعداً ، إلا نادراً"[397] .

(396) هدى السارى 469 ، وانظر : أعلام المحدثين لأبى شهبة 53 .

(397) فتح البارى 84/1 .

* متابعات البخاري :

بلغ عدد ما فيه من المتابعات والتنبيه على اختلاف الروايات: 344 حديثاً.

* خدمة الكتاب :

حظي الكتاب بعناية بالغة من علماء المسلمين على مر العصور ، فألفوا عليه شرحاً واختصاراً وتعريفاً برجاله ، وفهرسة لأحاديثه إلى غير ذلك من أغراض خدمته.وقد زادت شروحه على الثمانين[398] ، أشهرها :

–فتح الباري في شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت852).

– عمدة القاري في شرح صحيح البخاري لمحمود بن أحمد العيني (ت855).

– إرشاد الساري في صحيح البخاري لأحمد بن أبي بكر القسطلاني (ت923).

أود التنبيه في خاتمة هذا التعريف المختصر بصحيح البخاري إلى بطلان كلام بعض الجهلة والمغرضين في هذا الزمان الذين يريدون خلخلة ثوابت الأمة ، وتشكيكها في أصولها ، فيوجهون انتقادات مغرضة لصحيح البخاري مدعين أن مِن سلف الأمة مَن انتقده . وقد قال الأستاذ أحمد شاكر ، وهذا أحد كبار محدثي هذا العصر: "إنما انتقد الدارقطني وغيره من الحفاظ بعض الأحاديث على معنى أن ما انتقدوه لم يبلغ في الصحة الدرجة العليا التي التزمها كل واحد منهما في كتابه (أي البخاري ومسلم) ، فلا يهولنك إرجاف المرجفين وزعم الزاعمين أن في الصحيحين أحاديث غير صحيحة ، وتتبع الأحاديث التي تكلموا فيها ، وانقدها على القواعد الدقيقة التي سار عليها أئمة أهل العلم واحكم على بينة ، والله الهادي إلى سواء السبيل"[399] .

وقد دافع عن صحة أحاديث البخاري كثير من أهل العلم قديماً وحديثاً ، وألفوا في ذلك تبعاً واستقلالاً ، منهم: يحيى بن علي القريشي (ت662) ويحيى بن شرف النووي (ت676) ، وعبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت806) ، وأحمد بن عبد الرحيم العراقي (ت826) ، وابن حجر (ت852) في هدي الساري.

2- صحيح مسلم :

(398) انظر : كشف الظنون 555/1 .

(399) الباعث الحثيث 35 .

أ- عنوان الكتاب :

"الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم" ، وهو معروف بصحيح مسلم .

ب- مؤلفه :

أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري(204-261هـ) ، الإمام الحافظ الحجة المتقن الزاهد عالم الحديث وعلله ورجاله . بدأ سماع الحديث في الثانية عشرة من عمره ، ورحل في طلبه في الرابعة عشرة ، وسمع بمكة والمدينة وخراسان والري والعراق والشام ومصر وغيرها . وقد زاد عدد شيوخه في الصحيح على المائتين ، وجمع أكثر من ثلاثمائة ألف حديث ، وترك مؤلفات كثيرة ، منها: الجامع الصحيح ، وطبقات التابعين ، والعلل ، والتمييز ، والكنى والأسماء ، والجامع الكبير ، وأوهام المحدثين .

جـ: التعريف بالجامع الصحيح :

* هو ثاني كتاب ألف في الصحيح المجرد بعد صحيح البخاري ، ألفه في بلده وبحضور شيوخه ومصادره ،وبقي في تأليفه خمس عشرة سنة ،وانتهى منه سنة 250هـ، وكان شديد التحري في الصحة وفي الألفاظ والسياق ، إذْ قال : "ما وضعت في المسند شيئاً إلا بحجة ، ولا أسقطت شيئاً منه إلا بحجة".

وبعد أن أكمل تأليفه عرضه على أئمة الحديث في عصره مثل أبي زرعة الرازي ، وفاوضهم فيه ، وحذف كل حديث كان لهم عليه ملحظ بين ، ولم يترك فيه إلا الأحاديث التي اجتمعت كلمتهم على صحتها.

وقد أجمعت الأمة على تلقيه بالقبول ، واعتبره أهل العلم ثاني أصح كتابين بعد القرآن الكريم .

*شرط مسلم فيه: قصد مسلم إلى تخريج الصحيح دون غيره ، وشرط فيه أن يكون الحديث متصل الإسناد بنقل الثقة عن الثقة من أوله إلى منتهاه ، سالماً من

الشـــذوذ والعلة(400) . وشرط في المعنعن ثبوت المعاصرة مع ثقة الراوي وعدم تدليسه لأن الثقة غير المدلس لا يستجيز أن يقول "عن فلان" وقد لاقاه وسمع منه .

وقد انتقى مسلم أحاديث صحيحه من مسموعات كثيرة صحيحة ، قال : "ليس كل شيء صحيح عندي وضعته ههنا ، إنما وضعت ههنا ما أجمعوا عليه"(401) .

وقال: "صنفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة"(402) .

فهو مثل البخاري لم يستوعب كل الصحيح في كتابه ، ولا ادعى ذلك.

* عدد أحاديثه : نقل عن أحمد بن سلمة (ت 286) تلميذ مسلم الذي صنف له مسلم الصحيح أن عدة أحاديث صحيح مسلم اثنا عشر ألفاً ، أي بالمكررات ، وذكـــر أبو قريش القهستاني (ت313) أنها أربعة آلاف حديث أي بغير المكرر(403) .

أما تعداد المعاصرين لهذه الأحاديث فيتمثل في جهد محمد فؤاد عبد الباقي الـــذي أوصلها إلى3033 دون المكرر ، وذكر الدكتور خليل ملا خاطر أنه عـــدها فبلغـــت 4616 ، وقام المستشرق ونسنك بعدّ الأحاديث الأصول فبلغت 5781.

وهذا الاختلاف راجع إلى منهجية العد ، وعدم الاتفاق على ضـــابط للأصـــول والمكررات.

وقد أفاد السيوطي أن مسلماً وافق البخاري على تخريج ما فيه من الأحاديث إلا ثلاثمائة وعشرين حديثاً (404) .

* ترتيبه العام: يحتوي كتاب مسلم على 54 كتاباً بـــدأها بكتـــاب الإيمـــان ثم الطهارة.. . وانتهى بكتاب التفسير.

ولم يضع تراجم للأبواب داخل الكتب ، وإن كان رتـــب الأحاديـــث بحســـب

---

(400) صيانة صحيح مسلم 72 .

(401) صحيح مسلم 304/1 .

(402) شرح النووى على مسلم 15/1 .

(403) انظر : تذكرة الحفاظ 589/2 ، صيانة صحيح مسلم 101 ، منهجية فقه الحـــديث عنـــد القاضى عياض 30 .

(404) تدريب الراوى 104/1 .

موضوعاتها . وقد قام بعض العلماء بوضع تراجم لأبواب مسلم باجتهاداتهم مثل القاضي عياض (ت544) ، والحافظ المنذري (ت656) ، والإمام النووي (ت676).

قدم مسلم لكتابه بمقدمة منهجية ضافية ، ذكر فيها طريقته في تصنيف الكتاب ، وبين جملة مهمة في علوم الحديث تعتبر أول ماصنف في هذا المجال.

* المعلقات في صحيح مسلم: اتفق أهل العلم على أن المعلقات نادرة في صحيح مسلم ، واختلفوا في تحديد عددها ، فذهب الجياني إلى أنها أربعة عشر وتعقبه ابن الصلاح بأنها اثنا عشر فقط.

والأرجح ما ذهب إليه ابن حجر من أنها ستة فقط لأن الستة الباقية بصيغة الاتصال لكن أبهم في كل منها اسم من حدثه[405] .

* الموقوفات والمقاطيع في صحيح مسلم: شاع لدى الكثيرين خلو صحيح مسلم من الموقوفات على الصحابة والمقاطيع عن التابعين ، والصواب أنه فيه عدد منها وإن كان قليلا ، وقد أوصله الحافظ ابن حجر إلى 192 حديثاً ، وذلك في كتاب خصصه لهذا الغرض وسماه: "الوقوف على ما في صحيح مسلم من الموقوف".

* عوالي صحيح مسلم: اشتمل صحيح مسلم على أربعين حديثاً علا في أسانيدها على شيخه البخاري برجل في كل منها ، وقد جمعها ابن حجر في كتيب سماه: "عوالي مسلم".

* امتاز صحيح مسلم بأمور كثيرة في مجال الصناعة الحديثية منها[406] :

– إيراد أحاديث الباب كلها في موضع واحد ، ولا يكرر الحديث إلا نادراً جداً ، وإن اشتمل على أحكام متعددة.

– جمع طرق الحديث الواحد في موضع واحد.

– تمحيصه لما صح مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يدخل فيه أقوال الصحابة والتابعين إلا في مواضع قليلة.

---

(405) انظر منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض 49 ، 50 .

(406) المراجع السابقة 54-56 .

– روايته للحديث باللفظ لا بالمعنى ، وتنبيهه على ما في ألفاظ الرواة من الاختلاف في المتون والأسانيد ، ولو كان المختلف فيه حرفاً واحداً.

– عنايته بالتمييز بين "حدثنا" و"أخبرنا".

– تحريه في رواية صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة ، حتى إنه يعيد سندها مع كل حديث منها .

– تحريه في عدم الزيادة في أنساب الرواة على ما سمعه من شيخه ، فإذا أراد توضيح نسب الراوي من عنده بيّن ذلك بين هلالين.

قال الإمام النووي في سياق ترجمته للإمام مسلم: ".. . ومن أكبر الدلائل على جلالته وإمامته وورعه وحذقه وقعوده في علوم الحديث ، واضطلاعه منها وتفننه فيها: كتابه الصحيح ، الذي لم يوجد في كتاب قبله ولا بعده من حسن الترتيب ، وتلخيص طرق الحديث بغير زيادة ولا نقصان ، والاحتراز من التحويل في الأسانيد عند اتفاقها من غير زيادة ، وتنبيهه على ما في ألفاظ الرواة من اختلاف متن أو إسناد ، ولو في حرف ، واعتنائه بالتنبيه على الروايات المصرحة بسماع المدلسين ، وغير ذلك مما هو معروف في كتابه ، وعلى الجملة فلا نظير لكتابه في هذه الدقائق وصنعة الإسناد ، وهذا عندنا من المحققات التي لا شك فيها للدلائل المتظاهرة عليها.

ومع هذا فصحيح البخاري أصح وأكثر فوائد ، هذا هو مذهب جمهور العلماء ، وهو الصحيح المختار.

لكن كتاب مسلم في دقائق الأسانيد ونحوها أجود ، وينبغي لكل راغب في علم الحديث أن يعتني به ، ويتفطن في تلك الدقائق فيرى فيها العجائب من المحاسن"[407] .

* خدمة الكتاب : عني علماء الأمة بخدمة هذا الكتاب شرحاً واختصاراً واستخراجاً وعناية برجاله وتفسيراً لغريب ألفاظه وبياناً لمشكله ، وتجريداً لأحاديثه ، وجمعاً لما فيه من الموقوفات والمقاطيع والعوالي وغير ذلك .

وقد زادت شروحه على الستين ، أهمها :

---

(407) تهذيب الأسماء واللغات 2/90 ، 92 .

إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (ت544) .

المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج المعروف بشرح صحيح مسلم للإمام النووي(ت676) .

إكمال المعلم لمحمد بن خلفة الأبي (ت827) .

ثا نيًا السنن :

وهي الكتب الحديثية المرتبة على الأبواب الفقهية ولا تشتمل إلا على الأحاديث المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم غالباً ، وهي كثيرة من أشهرها:

– السنن الأربعة : سنن أبي داود ، وسنن الترمذي ، وسنن النسائي ، وسنن ابن ماجه ، وسيأتي التعريف بها قريباً.

– سنن سعيد بن منصور (ت227).

– سنن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت255).

– سنن علي بن عمر الدارقطني (ت385).

– سنن أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت458).

وجميع هذه السنن مطبوع بحمد الله تعالى ، وسأعرّف منها بالأربعة الأكثر تداولاً(408) :

1- سنن أبي داود :

أ- مؤلفها :

أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (202–273 أو 275): أحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً وحفظاً ونسكاً وورعاً وإتقاناً ، سمع ببلده ثم ارتحل إلى الآفاق طالباً للعلم ، فسمع بمكة والمدينة والعراق والشام ومصر وغيرها حتى زاد عدد شيوخه على الثلاثمائة ، وهو من تلاميذ أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، ومن أساتذة النسائي والترمذي ، وقد جمع خمسمائة ألف حديث ، وله مصنفات كثيرة ، منها : سننه ،

(408) راجع : الفكر المنهجى عند المحدثين 144 ،الحديث النبوى 315 ،معالم السنة النبوية 210 ، بحوث فى تاريخ السنة المشرفة 248 .

والمراسيل ، ومسائل الإمام أحمد .

ب- خصائص سنن أبي داود :

1- إن عدد أحاديث الكتاب بحسب ترقيم محمد محيي الدين عبد الحميد: 5274 حديثاً.

2- اشتمل الكتاب على الصحيح والحسن وهو الأكثر (وقد جرده الشيخ الألباني في كتاب صحيح سنن أبي داود) ولكنه اشتمل على الضعيف أيضاً ، ولهذا ينبغي التأكد عند العزو إليه وعند الاستفادة منه في العمل والبحث ، ولابد من عرض أحاديثه على قواعد الجرح والتعديل .

3- عني بذكر الطرق واختلاف الألفاظ وزيادات المتون .

4- ركز أبو داود عنايته على جمع الأحاديث التي استدل بها فقهاء الأمصار .

5- انتقى في كل باب مجموعة قليلة من الأحاديث خشية الإطالة .

6- لا يكرر الحديث إلا إذا اشتمل على زيادة مهمة .

7- قد يختصر أبو داود بعض الأحاديث للتركيز على موضع الاستدلال .

8- كثيراً ما يشير إلى العلل الواردة في الأحاديث .

9- قد يحكم أبو داود على الحديث ، وكثيراً ما يسكت عن ذلك ، قال في رسالته لأهل مكة في وصف سننه : "وما لم أذكر فيه شيئاً فهو صالح ، وبعضها أصح من بعض" ، ومن العلماء من قال : إن ما سكت عنه أبو داود صحيح ، ومنهم من قال: إنه حسن ، والصواب عدم القطع بحكم عام في ذلك ، وإنما يجب دراسة أسانيدها والحكم عليها في ضوء قواعد الجرح والتعديل .

10- للكتاب شروح متعددة ، منها: معالم السنن للخَطَّابي (ت388) ، وبذل المجهود في حل سنن أبي داود للشيخ خليل أحمد (ت1346) .

واختصره المنذري (ت656) في مصنف مفيد هذبه ابن القيم (ت751) ، وهذه الكتب الأربعة مطبوعة .

2- سنن الترمذي المسمى الجامع الصحيح :

أ- مؤلفه :

محمد بن عيسى الترمذي (209–279) ، الإمام الثقة الحافظ الحجة الورع الزاهد ، تتلمذ على البخاري وغيره ، وطوّف البلاد في طلب الحديث ، فسمع بالحجاز والعراق ، وخراسان ، وغيرها ، وقد كان عالماً بالحديث وفقهه ورجاله وعلله.

ب- خصائص جامع الترمذي:

1– عرض الترمذي جامعه على علماء الحجاز والعراق وخراسان فاستحسنوه .

2– اقتصر فيه على إيراد الأحاديث التي عمل بها فقهاء الأمصار .

3– إنه أول كتاب شهر الحديث الحسن ، لكثرة ذكر الترمذي لذلك عند الكلام على الأحاديث .

4– حكم الترمذي في كتابه على أكثر الأحاديث ، وتكلم عليها بما يقتضي التصحيح أو التضعيف .

5– يعنون للباب غالباً بالحكم الذي يدل عليه أصح أحاديث ذلك الباب .

6– قوله : في الباب عن فلان وفلان لا يعني أن هؤلاء الصحابة رووا ذلك الحديث المعين بلفظه ، إنما يقصد وجود أحاديث أخرى يصح إيرادها في ذلك الباب .

7– في جامع الترمذي الصحيح والحسن والضعيف ، ومناكير قليلة ، إلا أنه حكم عليها ، ولم يخرج فيه لمتهم بالكذب متفق على اتهامه ، ويجب عرض أحاديثه على قواعد الجرح والتعديل ، وقد جرد الشيخ الألباني أحاديثه المقبولة في صحيح جامع الترمذي .

8– أورد فيه كثيراً من فقه الصحابة والتابعين ومذاهب فقهاء الأمصار ، فهو من أهم مصادر دراسة فقه الخلاف المذهبي.

9– يختصر الترمذي طرق الحديث ، فيذكر أحدها ويشير إلى غيره.

10– ذيّل جامعه بكتاب العلل ، وفيه فوائد نفيسة ، أثرى فوائدها الحافظ ابن رجب الحنبلي في شرحه عليها.

11– اختص الكتاب ببعض المصطلحات ، أهمها :

– قوله "حسن صحيح" في الحكم على الحديث الواحد ، وللعلماء في ذلك أقوال منها: أن ذلك الحديث حسن عند قوم صحيح عند آخرين ، أو أنه حسن باعتبار إسناد صحيح باعتبار إسناد آخر .

– قوله : "غريب" في الحكم على الحديث فإذا أفردها فالمراد بها الحكم على الحديث بالضعف ، وإذا قرنها بغيرها مثل :"حسن غريب" فالمراد التفرد وليس الضعف .

12– أشهر شروح الكتاب :

– عارضة الأحوذي لأبي بكر محمد بن عبد الله الأشبيلي المعروف بـــابن العـــربي (ت543) .

– النفح الشذي لمحمد بن محمد اليعمري المعروف بابن سيد الناس (ت734).

– تحفة الأحوذي لعبد الرحمن المباركفوري.

وقد طبع الأول والثالث ، وطبع جزء من الثاني مع مقدمة وافية بتحقيق أســـتاذنا فضيلة الدكتور أحمد معبد عبد الكريم.

3- سنن النسائي :

أ- مؤلفه :

أحمد بن شعيب النسائي ، أبو عبد الرحمن (215-303) ، الإمام الحـــافظ المتقن ، الزاهد الورع العامل ، عالم الحديث وفقهه وعلله ورجاله ، سمع من أئمة الحديث في عصره ، ورحل إلى العراق والشام والحجاز ومصر ، وغيرها ، كان شديد التحري في الحديث والرجال ، وله شرط شديد في التوثيق ، له عدة مؤلفات منها : السنن الكبرى ، والسنن الصغرى أو المجتبى ، وعمل اليوم والليلة ، والضعفاء ، والتفسير .

ب- خصائص سنن النسائي :

1– المقصود هنا السنن الصغرى ، وهي اختصار السنن الكبرى ، ولذلك فإنـــه يسمى "المجتبى من السنن الكبري".

2– إنه أقوى السنن الأربعة حديثاً ، وأكثر أحاديثه في الصحيحين ، وقد اشتمل على الصحيح والحسن ، وقليل من الحديث الضعيف ، ولابد من عرض أحاديثه علـــى قواعد الجرح والتعديل ، وقد جرد الشيخ الألباني أحاديثه المقبولـــة في صـــحيح ســـنن

النسائي .

3– يمتاز الكتاب بتخصصه في أحاديث الأحكام وبتفريعات داخل الأبواب بما لا يعرف لغيره ، وذلك دال على فقه الإمام النسائي .

4– كثيراً ما يكرر النسائي إيراد الحديث في الموضع الواحد ، مع الإتيان بإسناد مغاير في كل مرة .

5– يعنى النسائي بذكر ما بين الروايات من الاختلاف مع بيان العلل والصحيح والأصح والضعيف والأضعف ، وبيان أحوال الرجال الذين فيهم ضعف.

6– من شروحه: زهر الربى للسيوطي(ت911) ،وشرح السندي (ت1138) ، وهو أوسع من شرح السيوطي ، وشرح ابن الملقن زوائده على الصحيحين وأبي داود والترمذي في مجلد واحد .

4- سنن ابن ماجه :

أ- مؤلفه :

أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (209–273) ، الإمام الحافظ ، عالم الحديث ورجاله ، رحل في طلب الحديث إلى الشام ومصر والحجاز والري والبصرة وبغداد ، ومن مصنفاته: السنن والتاريخ والتفسير .

ب- خصائص سنن ابن ماجه :

1– كان المتقدمون يعدون الكتب الأصول خمسة : الصحيحين وسنن أبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، ثم ألحق بها سنن ابن ماجه لما فيه من الفقه وحسن الترتيب ، ولما فيه من الزوائد على الكتب الخمسة الأصول ، واستقر الأمر على ذلك في كتب الأطراف والرجال . ومن العلماء من جعل سادس الأصول الستة: موطأ الإمام مالك لقوة أحاديثه ، بينما يرى ابن حجر أن الأولى بذلك سنن الدارمي لقلة الرجال الضعفاء فيه ولندرة الأحاديث الشاذة والمنكرة .

2– يمتاز سنن ابن ماجه بدقة الترتيب وكثرة الأبواب ، وتناسبها مع ما اشتملت عليه من الفقه ، وعدد كتبه 37 كتاباً ، وعدد أبوابه 1500 باب .

3– سنن ابن ماجه أنزل الكتب الستة مكانة لاحتوائه على نسبة كبيرة من

الأحاديث الضعيفة تقارب السبع ، بالاضافة إلى وجود بعض المنـــاكير والموضـــوعات القليلة .

4- يبلغ عدد أحاديثه 4341 حديثاً ، منها 3002 حديث وردت في الكتب الخمسة أو بعضها ، أما زياداته على الخمسة فهي 1339 حديثاً ، منها: 428 حديثاً صحيحاً ، و613 حديثاً ضعيفاً ، و99 حديثاً ما بين واهية الإســناد أو منكــرة أو موضوعة .

5- له عدة شروح أهمها : مصباح الزجاجة للسيوطي ، وما تمس إليه الحاجــه على سنن ابن ماجه لابن الملقن وقد اقتصر فيه على شرح زوائده على الخمسة ، وشرح السندي ، وإنجاح الحاجة للدهلوي .

تنبيه :

- إذا قيل الستة ، فالمقصود : الصحيحان والسنن الأربعة المتقدمة .
- إذا قيل : الأربعة فالمراد : السنن الأربعة .
- إذا قيل الثلاثة فالمراد : الأربعة عدا ابن ماجه .
- إذا قيل الخمسة فالمراد : السنن الأربعة ومسند أحمد .
- رموزها : البخاري : خ ، مسلم: م ، أبوداود: د ، الترمذي : ت ، النسائي : س ، ابن ماجه : هـــ ، الستة : ع ، الأربعة : عه .

ثالثاً المصنفات :

المصنف في اصطلاح المحدثين هو الكتاب المرتب على الأبواب الفقهيـــة ، مـــع اشتماله على المرفوع والموقوف على الصحابة والمقطوع عن التابعين من أقوال وفتاوى ، بل قد يشتمل على فتاوى أتباع التابعين أحياناً .

ومن فوائدها جمع آثار الصحابة والتابعين مسندة ، فيمكن تخريجها منها ، والحكم عليها قبولاً أو رداً .

وهي كثيرة منها :

- المصنف لأبي سلمة حماد بن سلمة البصري (ت167) .

– المصنف لأبي سفيان وكيع بن الجراح (ت196) .

– المصنف لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت211) ، وهو مطبوع .

– المصنف لبقي بن مخلد الأندلسي (ت276) .

– المصنف لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت235) ، وأكثره مطبوع .

رابعًا المستدركات :

والمستدرَك عند المحدثين هو الكتاب الذي جمع فيه مؤلفه الأحاديث التي استدركها على كتاب آخر مما فاته على شرطه ، مثل الإلزامات للدارقطني ، وأشهرها: المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت405) .

وقد ذكر الحاكم ثلاثة أنواع من هذه الأحاديث :

– الأحاديث الصحيحة التي على شرط الشيخين أو أحدهما ولم يخرجاها .

– الأحاديث الصحيحة عنده ، وهي التي يذيلها بقوله: صحيح الإسناد .

– أحاديث لم تصح عنده فنبه عليها .

والحاكم متساهل في التصحيح ، ولهذا يجب بحث ما صححه في ضوء قواعد الجرح والتعديل .

وقد ألف الذهبي على المستدرك كتاباً يسمى: تلخيص المستدرك تتبع فيه أحكام الحاكم فأقره على بعضها وخالفه في الآخر ، وسكت عن الحكم في بعض المواضع . والطبعة المتداولة للمستدرك كثيرة الأخطاء ، ويقوم شيخنا العلامة الدكتور محمود ميرة بإعداد الكتاب للطبع بعد ضبط ألفاظه ، والاستفادة من عدد كبير من النسخ الخطية.

خامسًا المستخرجات :

المستخرَج عند المحدثين هو أن يأتي المستخرِج إلى كتاب من كتب الحديث فيخرج أحاديثه بأسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب الأصل ، فيجتمع معه في شيخه أو من فوقه ولو في الصحابي .

وشرطه ألا يصل إلى شيخ أبعد إلا لمصلحة بينة مثل علو الإسناد أو زيادة لفظ.

وقد يسقط المستخرِج أحاديث من الأصل لم يكن لديه لها أسانيد يرتضيها ، وربما

يذكر بعض الأحاديث من طريق صاحب الأصل .

أحاديث الكتاب المستخرَج لها نفس حكم أحاديث الأصل ، كما أن المستخرَجات توافق أصولها في الترتيب والتبويب مما ييسر الوصول إلى الأحاديث فيها.

وأشهر المستخرَجات ما تعلق بالصحيحين أو أحدهما ، ومن ذلك :

– المستخرجات على الصحيحين : مستخرج أبي نعيم الأصبهاني (ت430) ، ومستخرج ابن الأخرم (ت344) ، ومستخرج أبي بكر البرقاني (ت425).

– المستخرجات على صحيح البخاري: مستخرج الإسماعيلي (ت371) ، ومستخرج الغطريفي (ت377) ، ومستخرج ابن أبي ذهل (ت378).

– المستخرجات على صحيح مسلم: مستخرج أبي عوانة الإسفراييني (ت310)، ومستخرج الحيري (ت311) ومستخرج أبي حامد الهروي (ت355) .

سادساً : الموطآت :

الموطأ في اصطلاح المحدثين مثل المصنف وإن اختلفت التسمية ، فهو الكتاب المصنف على الأبواب الفقهية مع اشتماله على المرفوع والموقوف والمقطوع .

سمي بذلك لأن مؤلفه وطأه للناس أي سهله وهيأه لهم .

ومن أمثلتها : موطأ الإمام مالك (ت179) وهو أشهرها ، وموطأ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب (ت158) ، وموطأ محمد بن عبد الله المروزي (ت293) .

التعريف بموطأ الإمام مالك(409) :

أ- مؤلفه :

أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الأصبحي (93-179) ، إمام دار الهجرة ، العالم العامل ، الحافظ المتقن ، الزاهد الورع ، الفقيه المستوعب ، أمير المؤمنين في الحديث ، إمام الحديث وفقهه وعلله ورجاله ، كان قوياً في الحق مع أدب جم ، سخّر حياته لخدمة العلم وبذله لطلابه.

---

(409) راجع : بحوث فى تاريخ السنة المشرفة 241 ، الحديث النبوى 327 ، الفكر المنهجى عند المحدثين 311 .

ب- خصائص الموطأ :

1- هو أول كتاب ألف في الحديث الصحيح غير المجرد ، حيث إنه أدخل فيه آثار الصحابة والتابعين وفتاواهم .

2- أبلغ الأئمة في الثناء على الموطأ لجودة تحريره وصحة أحاديثه على مذهب مؤلفه ، ولإمامة مالك في الحديث وشدة تحريه في الرجال والألفاظ ، ولهذا فإن جمهور المالكية قد قدموه على الصحيحين ، واعتبره أكثر العلماء دون مرتبة الصحيحين لاحتوائه على المرسل والمنقطع ، وعده كثير من العلماء سادس الستة الأصول .

3- انتقى الإمام مالك كتابه من أكثر من مائة ألف حديث كان يرويها ، واستغرق تصنيفه وتنقيحه أربعين عاماً.

4- للموطأ روايات كثيرة جداً تختلف فيما بينها في عدد الأحاديث ، وأشهرها رواية يحيى بن يحيى الأندلسي التي تضمنت 853 حديثاً ، وقال أبو بكر الأبهري : "جملة ما في الموطأ من الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين 1720 حديثاً ، المسند منها : 600 ، والمرسل : 222 ، والموقوف: 613 ، ومن قول التابعين : 285".

5- اشتمل الكتاب على ثروة فقهية هائلة عن الصحابة والتابعين ، واجتهادات مالك نفسه وترجيحاته حتى عده بعض الباحثين أقرب إلى كتب الفقه منه إلى كتب الحديث .

6- اشتمل الموطأ على المرفوع المسند ، كما اشتمل على المراسيل والمنقطعات والبلاغات ، وهي كلها مسندة من طرق أخرى ، حيث قام بوصلها الحافظ ابن عبد البر في كتابه "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" ، عدا أربعة أحاديث لم يجد لها سنداً ، فوصلها الحافظ ابن الصلاح في رسالة سماها: "وصل البلاغات الأربعة في الموطأ".

7- عني العلماء بخدمة الموطأ عناية فائقة رواية ودراية ، ومن أشهر شروحه :

- الاستذكار في شرح مذاهب علماء الأمصار مما رسمه الإمام مالك في الموطأ من

الرأي والآثار ، لابن عبد البر (ت463) .

– التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، لابن عبد البر .

– المنتقى شرح الموطأ ، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت474) .

– تنوير الحوالك ، شرح موطأ مالك للسيوطي (ت911) .

– شرح محمد بن عبد الباقي الزرقاني (ت1122) .

النوع الثاني: الكتب المرتبة على أسماء الصحابة[410] :

وهي الكتب التي تجمع أحاديث كل صحابي في موضع واحد يحمل اسم ذلك الصحابي.ومن فوائدها تيسير الوصول إلى موضع الحديث ، ومعرفة عدد مرويات الصحابة في تلك المصنفات .

وهذه الكتب نوعان: المسانيد وكتب الأطراف .

أولاً : المسانيد :

والمسند هو الكتاب الذي تذكر فيه الأحاديث مرتبة تحت أسماء رواتها من الصحابة ، إذْ تجمع أحاديث كل صحابي على حدة.

أما ترتيب أسماء الصحابة داخل المسانيد فقد يكون على حروف المعجم ، أو بحسب السبق إلى الإسلام أو بحسب البلدان أو القبائل ، ونحو ذلك.

والمسانيد كثيرة جداً قد تبلغ المائة ، وقد ذكر منها الكتاني في الرسالة المستطرفة 82 مسنداً .

ومن أشهر المسانيد :

– مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت241) .

– مسند عبد الله بن الزبير الحميدي (ت291) .

– مسند أبي داود سليمان بن داود الطيالسي (ت204) .

– مسند أسد بن موسى (ت212) .

(410) انظر : منهج النقد 200 ، أصول التخريج 40 ، 47 ، معالم السنة النبوية 93 ، الرسالة المستطرقة 50 ، الحديث النبوى 329 ، بحوث فى تاريخ السنة المشرفة 242 .

- مسند مُسدَّد بن مُسَرْهَد (ت228) .
- مسند أبي يعلي أحمد بن علي الموصلى (ت307) .
- مسند عبد بن حميد (ت249) .

وفيما يلي تعريف مختصر بمسند الإمام أحمد .

أ- مؤلفه :

أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (164-241) ، الإمام الحافظ المحدث ، الفقيه الجهبذ المتقن ، العالم الزاهد الورع ، إمام السنة الصابر على الابتلاء فيها ، عالم الحديث وفقهه وعلله ورجاله ، رحل في الحديث صغيراً وطوف البلاد في طلبه ، وجمع أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث ، له عدة مصنفات منها: المسند ، والسنة ، والعلل ومعرفة الرجال .

ب- خصائص المسند :

1- رتب الإمام أحمد مسنده على أسماء الصحابة مبتدئاً بالعشرة المبشرين بالجنة ، ثم بقية الصحابة بحسب الأفضلية أو البلاد التي نزلوها أو القبائل التي ينتسبون إليها. . وقد اشتمل المسند على أحاديث 904 من الصحابة ، منهم من بلغت أحاديثه عدة مئات ، ومنهم دون ذلك حتى إنه لم يخرج لبعضهم إلا حديثاً واحداً .

2- ضم المسند قرابة أربعين ألف حديث ، منها عشرة آلاف مكررة ، وقد انتقاه من سبعمائة وخمسين ألف حديث .

3- اشتمل المسند على معظم أحاديث الكتب الستة وزاد عليها الكثير .

4- توفى الإمام أحمد رحمه الله قبل أن يتمكن من تهذيب كتابه وتنقيحه ، وضم إليه ابنه عبد الله من مسموعاته من أبيه في غير المسند ، كما زاد عليه بعض مسموعاته عن غير أبيه ، وهذا الأخير هو مايعرف بزيادات عبد الله في المسند ، وهو سبب كثير من الضعف الوارد في المسند .

5- أما من حيث درجة الأحاديث فإن المسند يشتمل على كثير من الصحاح الواردة في الكتب الستة وغيرها ، وفيه الحديث الحسن وفيه الضعيف والمنكر ، بل فيه

عدة أحاديث موضوعة ، ومعظم الضعف والنكارة والوضع وقع من زيادة ابنه عبد الله في المسند ، وأيضاً لأن الإمام أحمد جمع عدداً كبيراً من الأحاديث المشهورة وكان ينقحها ويأمر بالضرب عليها ، إلا أن المنية عاجلته قبل إتمام النظر في كل الكتاب .

وقد حكم النقاد على بضعة عشر حديثاً في المسند بالوضع ، ولكن الحافظ ابن حجر دافع عنه في كتاب "القول المسدد في الذب عن المسند" ، وقرر أن ما لا أصل له من أحاديث المسند لا يزيد على ثلاثة أو أربعة أحاديث ، وأن أحاديث المسند أغلبها جياد ، والضعاف منها يوردها للمتابعات ، والقليل من الضعاف والغرائب والأفراد أخرجها ثم صار يضرب عليها شيئاً فشيئاً ، وبقي منها بعده بقية .

6- قام الشيخ أحمد بن عبد الرحمن البنا الساعاتي بترتيب المسند على الموضوعات ، فقسمه إلى كتب وأبواب واختصر أسانيده ، وسماه: "الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني" ، وشرحه في كتاب سماه : "بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني" ، وهما مطبوعان .

ثانياً : كتب الأطراف :

سميت بذلك لأنها جمعت أطراف الأحاديث ، وطرف الحديث هو الجزء الدال على بقيته أو العبارة المختصرة الدالة عليه .

وكتب الأطراف هي التي يقتصر مؤلفوها على ذكر طرف الحديث الدال عليه ، ثم ذكر أسانيده في المصادر التي ترويه بالإسناد ، فلا يلتزم في هذه الكتب بذكر كامل متن الحديث ، كما أنها لا تلتزم أن يكون المذكور من نص الحديث حرفياً .

ومن فوائدها :

- جمع أسانيد الحديث في موضع واحد ، مما يساعد على بحثه ودراسته والحكم عليه .

- معرفة مصادر الحديث الأصلية ومواضعه فيها .

- معرفة عدد أحاديث الصحابي في الكتب التي ضمنها صاحب الأطراف في كتابه . وقد اشتهر من كتب الأطراف اثنان :

1- تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف ، للحافظ أبي الحجاج يوسف بن عبد الرحمن

المزي (ت742) .

– يشتمل على أطراف الكتب الستة ، ولواحقها وهي: مقدمة صحيح مسلم ، والمراسيل لأبي داود السجستاني ، والعلل الصغير والشمائل للترمذي ، وعمل اليوم والليلة للنسائي .

– وقد رمز في المقدمة لكل من هذه الكتب وملحقاتها برموز يجب الاطلاع عليها لتيسير الاستفادة من الكتاب .

– وهو مرتب على أسماء الصحابة بحسب حروف المعجم ، وإذا كثرت مرويات الصحابي فإنه يرتبها بحسب من روى عنه من التابعين على حروف المعجم أيضاً.

– بلغت مسانيد الصحابة فيه 905 ، وبلغت المراسيل المنسوبة إلى أئمة التابعين ومن بعدهم 400 .

2– ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الحديث ، للشيخ عبد الغني النابلسي (ت1143) :

– جمع فيه أطراف الكتب الستة وموطأ مالك.

– رتبه على مسانيد الصحابة بحسب حروف المعجم .

– قسمه إلى سبعة أبواب تيسيراً للاستفادة منه ، وهي : مسانيد الرجال من الصحابة ، ومسانيد من اشتهر منهم بالكنية ، ومسانيد المبهمين من الرجال ، مسانيد الصحابيات ، من اشتهر منهن بالكنية ، المبهمات من الصحابيات ، والمراسيل .

ويوجد عدا هذين كتب أخرى للأطراف منها :

أ– أطراف الصحيحين لأبي مسعود إبراهيم بن محمد الدمشقي (ت401) .

ب– أطراف الصحيحين لأبي محمد خلف بن محمد الواسطي (ت401) .

ج– إتحاف المهرة بأطراف العشرة للحافظ ابن حجر (ت852) .

د– أطراف المسانيد العشرة لأبي العباس أحمد بن محمد البوصيري (ت840) .

النوع الثالث- المعاجم :

المعجم في اصطلاح المحدثين هو الكتاب الذي تذكر فيه الأحاديث على ترتيب

الصحابة أو الشيوخ أو البلدان أو غير ذلك ، ويغلب أن ترتب على حروف المعجم.

أشهرها: المعاجم الثلاثة للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت360) ، وهي :

1- المعجم الكبير ، وهو مرتب على مسانيد الصحابة بحسب حروف المعجم ، عدا مسند أبي هريرة فإنه أفرده في مصنف مستقل لكثرة أحاديثه . وهو أكبر معاجم الدنيا ، يقال إن فيه ستين ألف حديث.

2- المعجم الأوسط ، وهو مرتب على أسماء شيوخه ، وهم حوالي ألفين ، ويقال إن فيه ثلاثين ألف حديث.

3- المعجم الصغير ، وقد خرّج فيه عن ألف من شيوخه ، مقتصراً غالباً على حديث واحد لكل منهم.

- ومن المعاجم أيضاً :

- معجم الصحابة لأحمد بن علي الهمداني (ت398).

- معجم الصحابة لأحمد بن علي الموصلي (ت307).

النوع الرابع- الكتب المرتبة على أوائل الأحاديث:

رتبت الأحاديث في هذه الكتب على حروف المعجم بحسب أول حرف من متن الحديث ، وهي بذلك تيسر على الباحث سرعة العثور على الحديث فيها ، إذا تأكد من لفظه .

وقد استخدمت هذه الطريقة في نوعين من المصنفات :

أ- الجامع ، وسيأتي الكلام عليها في المبحث التالي .

ب- كتب الأحاديث المشتهرة علي الألسنة :

ولا يقصد بالشهرة هنا الشهرة الاصطلاحية المعروفة في علوم الحديث ، وإنما المقصود شهرة التداول بين الناس والدوران على ألسنتهم بغض النظر عن درجتها فقد تكون صحيحة أو حسنة أو ضعيفة ، بل قد تكون موضوعة .

ومن هنا عني أهل العلم بجمعها وبيان أحكامها حتى يتبينها الناس ويقتصروا على

الأخذ بالمقبول منها .

ومن هذه الكتب :

1- اللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة مما ألفه الطبع وليس له أصل في الشرع للحافظ ابن حجر (ت852) .

2- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت902) ، وهو من أحسنها.

3- الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ، للإمام السيوطي (ت911).

4- تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث ، لعبد الرحمن بن علي ابن الديبع الشيباني (ت944).

5- البدر المنير في غريب أحاديث البشير النذير لعبد الوهاب الشعراني (ت973) .

6- التذكرة في الأحاديث المشتهرة ، لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت974) .

7- إتقان ما يحسن من الأحاديث الدائرة على الألسن لنجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت985) .

8- تسهيل السبيل إلى كشف الالتباس عما دار من الأحاديث بين الناس لمحمد ابن أحمد الحنبلي (ت1057) .

9- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، لإسماعيل ابن محمد العجلوني (ت1162) ، وهو أحسنها.

10- أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب ، لمحمد بن درويش ، المعروف بالحوت البيروتي (ت1276) .

النوع الخامس- المجامع (المصنفات الجامعة) :

هي مصنفات يعنى فيها بجمع أحاديث عدة كتب من مصادر الحديث ، وهي نوعان :

أ- المجامع المرتبة على الأبواب ، وهي كثيرة ، أهمها :

1- جامع الأصول من أحاديث الرسول لابن الأثير المبارك بن محمد الجزري (ت606) ،جمع فيه أحاديث الصحيحين والموطأ ، وسنن أبي داود والترمذي والنسائي.

2- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للشيخ علي بن حسام المتقي الهندي (ت 975) ، وقد جمع أحاديث 93 من كتب السنة ولواحقها .

3- الجمع بين الأصول الستة المسمى "التجريد للصحاح والسنن" لأبي الحسن رزين بن معاوية الأندلسي (ت535) .

4- الجمع بين الصحيحين المسمى "مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية" ، للحسن بن محمد الصاغاني (ت650) .

5- جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد لمحمد بن محمد بن سليمان المغربي (ت1094) ، جمع فيه أحاديث أربعة عشر مصنفاً ، هي : الصحيحان والموطأ والسنن الأربعة ومسند الدارمي ومسند أحمد ومسند أبي يعلى ومسند البزار ومعاجم الطبراني الثلاثة .

ب- المجامع المرتبة على أوائل الحديث وفق حروف المعجم ، من أهمها :

1- الجامع الكبير أو جمع الجوامع ، للإمام السيوطي (ت911) ، وهو أصل كتاب كنز العمال المتقدم قريباً .

2- الجامع الصغير لأحاديث البشير النذير للسيوطي أيضاً ، اقتبسه من الجامع الكبير ، وضمنه 10031 حديثاً .

النوع السادس- مصنفات الزوائد :

وهي الكتب التي يجمع فيها مؤلفوها ما زاد في بعض الكتب من الأحاديث عن أحاديث كتب أخرى ، دون إيراد الأحاديث المشتركة بين المجموعتين ، وهي كثيرة ، منها :

1- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ، لأبي العباس أحمد بن محمد البوصيري

(ت840) ، ضمنه زوائد سنن ابن ماجه على الأصول الخمسة .

2- فوائد المنتقي لزوائد البيهقي ، للبوصيري ، ضمنه زوائد سنن البيهقي على الكتب الستة .

3- إتحاف السادة المهرة بزوائد المسانيد العشرة ، للبوصيري أيضاً ضمنه ما زاد على الكتب الستة ، في هذه العشرة ، وهي : مسند أبي داود الطيالسي ، ومسند الحميدي ، ومسند مسدد بن مسرهد ، ومسند محمد بن يحيى العدني ، ومسند إسحق ابن راهويه ، ومسند أبي بكر بن أبي شيبة ، ومسند أحمد بن منيع ، ومسند عبد بن حميد ، ومسند الحارث بن محمد بن أبي أسامة ومسند أبي يعلى الموصلي .

4- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ، للحافظ ابن حجر (ت852) ، ضمنه ما زاد على الكتب الستة في ثمانية مسانيد هي: العشرة السابقة عدا مسندي أبي يعلى وابن راهويه .

5- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي (ت807) ، ضمنه ما زاد على الكتب الستة في : مسند أحمد ، مسند أبي يعلى الموصلي ، مسند أبي بكر البزار ومعاجم الطبراني الكبير والأوسط والصغير.

النوع السابع- كتب التخريج :

يعنى في هذه الكتب بعزو أحاديث مصنف معين إلى مصادره الأصلية من كتب السنة مع بيان درجتها عند الحاجة .

وقد صنف أهل العلم عشرات الكتب في هذا المجال ، من أهمها :

1- تخريج أحاديث المهذب لأبي إسحق الشيرازي ، ألفه محمد بن موسى الحازمي (ت584) .

2- تخريج أحاديث المختصر الكبير لابن الحاجب ، ألفه محمد بن أحمد المقدسي (ت744) .

3- نصب الراية لأحاديث الهداية للمرغيناني ، ألفه عبد الله بن يوسف الزيلعي (ت762) .

4- تخريج أحاديث الكشاف للزمخشري ، ألفه الزيلعي أيضاً .

5- البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير للرافعي ، تأليف عمر بن علي بن الملقن (ت804) .

6- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار ، تأليف عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت806) ، وهو تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للغزالي .

7- تخريج الأحاديث التي يشير إليها الترمذي في كل باب ، للحافظ العراقي أيضاً .

8- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث شرح الوجيز الكبير للرافعي ، تأليف الحافظ ابن حجر (ت852) .

9- الدراية في تخريج أحاديث الهداية للمرغيناني ، تأليف ابن حجر أيضاً .

10- تحفة الراوي في تخريج أحاديث البيضاوي ، تأليف عبد الرؤوف بن علي المناوي (ت1031) .

النوع الثامن- الأجزاء الحديثية :

يطلق الجزء الحديثي في اصطلاح المحدثين على الكتيب الذي يشتمل على أحد أمرين :

أ- جمع الأحاديث المروية عن واحد من الصحابة أو من بعدهم ، مثل جزء حديث أبي بكر ، وجزء حديث مالك ، وجزء ما رواه أبو حنيفة عن الصحابة .

ب- جمع الأحاديث المتعلقة بموضوع واحد على سبيل البسط ، مثل جزء رفع اليدين في الدعاء وجزء القراءة خلف الإمام ، وكلاهما للبخاري .

النوع التاسع- المشيخات :

وتسمى أيضاً الأثبات ، والبرامج ، والفهارس ، وهي كتب يجمع فيها المحدثون أسماء شيوخهم وما رووه عنهم من الأحاديث أو تلقوه عنهم من الكتب ، وهي كثيرة ، منها :

1- برنامج القاسم بن يوسف التجيبي (ت730) .

2- برنامج أبي عبد الله محمد المجاري الأندلسي (ت862) .

3- برنامج محمد بن جابر الوادي آشي .

4- فهرس ابن عطية المحاربي (ت541) .

5- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، لعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني .

6- فهرسة ما رواه عن شيوخه لأبي بكر محمد بن خير الأشبيلي (ت575) .

7- الغنية ، فهرسة شيوخ القاضي عياض(ت544) .

النوع العاشر- كتب العلل :

يعنى في هذه المصنفات بجمع الأحاديث التي بها من الآفات مايقدح في قبولها ، ومع بيان عللها بالكلام على متعلقاها سنداً ومتناً . وعلم العلل من أصعب علوم الحديث وأدقها ، وهو يحتاج إلى حفظ واسع وذهن متوقد ، ودربة عالية ، وصبر طويل على تتبع الأسانيد والمتون ، ومداومة النظر فيها مع التبصر والإمعان ، ولذلك فلا يقدر عليه إلا كبار جهابذة المحدثين من أمثال البخاري ومسلم وأبي زرعة الرازي والإمام أحمد وابن أبي حاتم والدارقطني ومن شاههم .

وقد عني العلماء الأعلام بهذا الجانب ، وألفوا فيه كتباً متعددة ، منها :

1- علل الحديث ومعرفة الرجال ، لعلي بن عبد الله المديني (ت234) .

2- العلل للإمام أحمد بن حنبل (ت241) .

3- العلل لابن أبي حاتم (ت277) .

4- العلل للضبي (ت307) .

5- العلل الكبير والعلل الصغير للترمذي (ت 279) .

6- العلل الواردة في الأحاديث النبوية ، للدارقطني (ت385) ، وهو أكبرها وأكثرها فائدة .

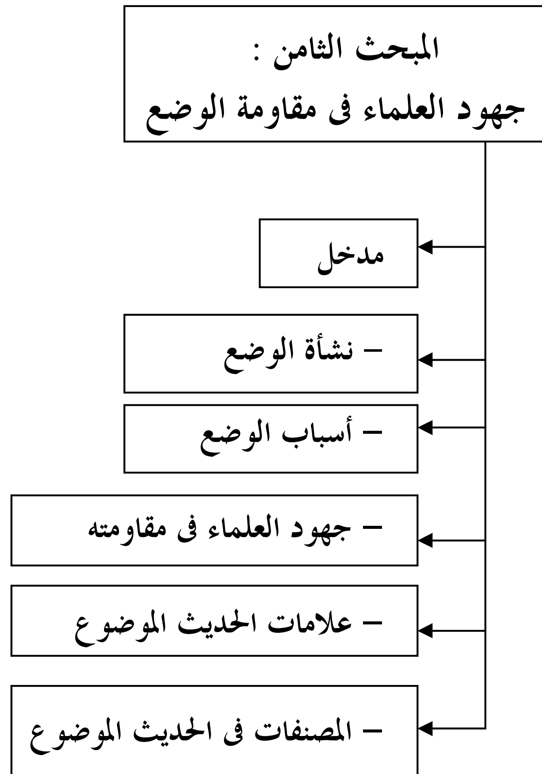
7- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية لابن الجوزي (ت597) .

المراجع المساعدة

1- الرسالة المستطرقة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة للكتاني.
2- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة.
3- هدية العارفين بأسماء المؤلفين لإسماعيل باشا البغدادي.
4- تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين.
5- منهج النقد في علوم الحديث 197- 209 .
6- أصول الحديث ، د . محمد عجاج الخطيب181 ، 312- 326 .
7- علوم الحديث ، د . صبحي الصالح 115- 125 .
8- معالم السنة النبوية 198 - 221 .
9- الحديث النبوي للصباغ 279 - 336 .
10- بحوث في تاريخ السنة للعمري 241 - 256 .
11- أصول التخريج ودراسة الأسانيد للدكتور الطحان .
12- الحطة في ذكر الصحاح الستة للقنوجي .

أسئلة التقويم الذاتي

1- عرف "التصنيف على الأبواب" ، واذكر طرقه الأساسية ، مع التمثيل لكل منها.
2- ما الفرق بين الجوامع والسنن؟
3- عرّف بصحيحي البخاري ومسلم واعقد مقارنة بينهما.
4- ما هي أوجه الاتقان والافتراق بين السنن الأربعة ، وما ترتيبها من حيث القوة ؟
5- أذكر شرحاً واحداً لكل من الكتب الستة وموطأ مالك ومسند أحمد .
6- ما الفرق بين المستدرك والمستخرج ، وما حكم أحاديث مستدرك الحاكم ؟
7- ما حكم أحاديث الموطأ ومسند أحمد ؟
8- عرف كتب الأطراف واذكر فوائدها .
9- ما الفرق بين المعاجم والمسانيد؟
10- عرف كتب الأحاديث المشتهرة ، مع ذكر أكثرها فائدة.
11- عرف المجامع ومصنفات الزوائد ، مع التمثيل لكل منها بثلاثة كتب.
12- ما فائدة كتب التخريج؟ واذكر ثلاثة منها.
13- عرف الأجزاء والمشيخات ، مع التمثيل لكل منها بكتابين.
14- بم يعنى في مصنفات العلل؟ مع ذكر ثلاثة كتب مطبوعة منها.
15- اكتب خمس صفحات تضمنها حصيلة ما خرجت به من هذا المبحث.


المبحث الثامن :
جهود العلماء فى مقاومة الوضع
مدخل
– نشأة الوضع
– أسباب الوضع
– جهود العلماء فى مقاومته
– علامات الحديث الموضوع
– المصنفات فى الحديث الموضوع

المبحث الثامن
الوضع في الحديث وجهود العلماء في مقاومتها

الأهداف الخاصة

1- معرفة معنى الوضع وخطره ، وحكم رواية الحديث الموضوع.

2- اعتقاد براءة الصحابة وعلماء التابعين من الوضع.

3- معرفة نشأة الوضع ، ومن تلبس بهذه الجريمة من الفرق والأحزاب.

4- تبيّن أسباب وضع الأحاديث ، والاطلاع على نماذج من الموضوعات لكل منها .

5- الاطلاع على جهود العلماء في مقاومة الوضع وما جعلوه من الضوابط لذلك .

6- معرفة علامات وضع الحديث في السند والمتن.

7- معرفة نماذج كافية من المؤلفات في الحديث الموضوع،والسعي للاطلاع عليها.

8- اعتقاد أن السنة لم يخالطها حديث موضوع على سبيل الاستمرار .

9- تنبيه المسلمين في محيطك على ما يتداولونه من الموضوعات ، ونشر صحيح السنة بينهم .

المبحث الثامن
الوضع في الحديث وجهود العلماء في مقاومته[411]

مدخل :

لقد تعرضت السنة المطهرة قديماً وحديثاً إلى محاولات خبيثة تهدف إلى الدس عليها وتحريفها . فقد سعى كثير من المغرضين والجهلة لاستغلال الدس على السنة والكذب على النبي صلى الله عليه وسلم في خدمة آرائهم السياسية أو اتجاهاتهم المذهبية أو مصالحهم الشخصية .

ولكن الله تعالى حمى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}[412] ، فهيأ لها جهابذة المحدثين الذين نالوا شرف صيانة السنة وحمايتها من الدخيل ، وبذلوا جهوداً جبارة في مقاومة الوضع وفضح أهله ، وتتبعوا الأسانيد والمتون بالفحص والدراسة ، وميزوا المقبول من المردود ، ووضعوا لذلك قواعد محكمة وضوابط دقيقة يستحيل معها أن يدخل في السنة ما ليس منها ، وصنفوا في الحديث الموضوع لينتبه إليه المسلمون ويحذروه ، وصنفوا في تراجم الوضاعين لتجنب الرواية عنهم ومعرفة حالهم من العداوة لدين الله .

والحديث الموضوع هو المختلق المصنوع المنسوب كذباً وزوراً إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(411) راجع : الوضع فى الحديث للدكتور عمر فلاتة ، السنة قبل التدوين 185-248 ، السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى 85-102 ، منهج النقد فى علوم الحديث 301-320 ، معالم السنة النبوية 103-133 ، بحوث فى تاريخ السنة المشرفة 19-59 ، الحديث النبوى 247-277 ، مقدمة الموضوعات لابن الجوزى ، خاتمة اللآلى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للسيوطى ، مقدمة تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة لابن عراق ، المنار المنيف لابن القيم .

(412) الحجر : (9) .

وقد أجمع العلماء على تحريم روايته إلا مقروناً ببيان وضعه ، قال صلى الله عليه وسلم : "من حدث عني بحديث يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين"[413] ،كما تواتر عنه صلى الله عليه وسلم قوله : ((من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)) [414] .

أو لًا نشأة الوضع :

ظلت السنة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وعصر الخلفاء الراشدين صافية نقية ، لا يشوبها كدر ولا يعتورها تغيير ولا كذب ، وكان أولئك الأخيار من الصحابة وكبار التابعين وعلمائهم خير حراس للوحي وأفضل حماة لهذا الدين . وقد تقدم في مبحث السنة في عصر الصحابة والتابعين ما يكفي للدلالة على شدة محبتهم للسنة واحتياطهم في تلقيها وروايتها ، وتيقظهم التام في فحصها والمحافظة على نقاوتها كما صدرت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم اندس في الأمة أهل المصالح والأهواء والزنادقة والحاقدون على الإسلام فنفثوا سمومهم بالكذب على الشريعة الغراء ليشوهوا بزعمهم حقائق الدين الناصعة وليحاربوا الإسلام من داخله بعد أن عجزوا عن مواجهته في ميادين النزال الشريفة .

وكان أول أثر لهؤلاء الأعداء في صفوف الأمة أن تسببوا في إحداث الفتنة الكبرى التي انتهت بمقتل الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه ، وما لحق ذلك من الاضطرابات الكثيرة والحروب الطاحنة المبيرة التي فرقت وحدة الأمة ، فظهرت فرقة السبئية المنسوبة إلى عبد الله بن سبأ اليهودي ، وفرقة الخوارج الذين انشقوا على عليٍّ رضي الله عنه لقبوله التحكيم في موقعة صفين ، وفرقة الشيعة التي ادعت التحزّب لعليٍّ وآل البيت...

وهكذا نشأت الفرق والتحزّبات ، واتخذت طابعاً دينياً لتتمكن من البقاء ، وسعى أهل كل فرقة جاهدين لنصرة آرائهم ودعم توجهاتهم بالنصوص الشرعية وأنّى لهم ذلك ، فراحوا يؤولون آيات الكتاب بما تمليه أهواؤهم ، ووضعوا الأحاديث وكذبوا

(413) أخرجه مسلم 7/1 .
(414) البخارى مع الفتح 272/1 ح108 .

على النبي صلى الله عليه وسلم لتأييد آرائهم ، وقام مخالفوهم بالرد عليهم بمثل ذلــك ، فنشطت جريمة الوضع ، وازداد نموها مع ظهور المزيد من الفرق ، فوضعت الأحاديــث في فضائل ومثالب الأشخاص من رؤساء الفرق وزعماء الأحزاب ، وفي فضائل البلدان ، وفي دعم الآراء والأفكار العقائدية والسياسية ، بل تعدى الأمر إلى وضع أحاديــث في كثير من أبواب الفقه من العبادات والمعاملات والأطعمة والرقائق وغيرها ، وقد تتبــع جهابذة النقاد جميع ذلك وبينوا زيفه ، وجمعوه في مصنفات كثيرة ، منها ما صنف على الأبواب الفقهية ، ومنها ما هو على أوائل الحروف ، وحافظت السنة بحفظ الله لها على نقاوتها ولم يخالطها شيء من غيرها على سبيل الاستمرار بحمد الله تعالى ، كما قرر ذلك الحافظ ابن حزم وغيره ، ولله الفضل والمنة.

ومما تجب الإشارة إليه في هذا المدخل براءة الصحابة من هذه الجريمة النكراء لأن بعض المتحذلقين من المستشرقين يحاول الضرب على هذا الوتر ليغرر بجهلــة المســلمين وليطعن على السنة بالطعن على حملتها عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد نسي هؤلاء أو تناسوا أن عدالة الصحابة نزل بها الوحي من السماء فــأنى يســتطيع أهــل الأرض التلبيس عليها ، كما أغفل هؤلاء عن جهل أو إغراض ذكر ما عرف عن الصحابة مــن محبة السنة والحرص عليها والذود عن حماها والخوف من الخطأ في الحــرف والكلمــة الصادرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فكيف يتصور بعد هذا منصف أنهم قد يتجرأون على الوضع في الحديث.

وقد ساق الخطيب البغدادي حشداً من الآيات والأحاديث الدالة علــى تعــديل الصحابة رضوان الله عليهم ثم قال: "وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة والقطع علــى تعديلهم ونزاهتهم ، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق لهم ، على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورســوله فــيهم شــيء لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة وبذل المهج والأمــوال ، وقتل الآباء والأولاد ، والمناصحة في الدين ، وقوة الإيمان واليقين: القطع على عدالتهم ، والاعتقاد لنزاهتهم ، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد

الآبدين ، هذا مذهب كافة العلماء ومن يعتد بقوله من الفقهاء"(415) .

ثا نيًا أسباب الوضع :

درس العلماء بواعث الوضع وأسبابه ، وصنفوا الوضاعين بحسب الدوافع التي أدت بهم إلى الوضع ، وذلك في إطار تحليل حركة الوضع والكشف على الأحاديث الموضوعة ، وأهم الأسباب التي ذكروها ما يلي:

1- الخلافات السياسية ونصرة الفرق والأحزاب :

كان الشيعة أسبق الفرق إلى الوضع وأكثرها جرأة عليه ، قال ابن أبي الحديد الشيعي: "إن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة ، فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم ، وحملهم على وضعها عداوة خصومهم ، فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث"(416) .

وجارى الشيعة في ذلك جهال عوام أهل السنة ، قال ابن تيمية: "أما الفضائل فلا تحصي كم وضع الرافضة في فضل أهل البيت ، وعارضهم جهلة أهل السنة بفضائل معاوية بدءاً ، وبفضائل الشيخين. . "(417) .

قال شريك بن عبد الله: "احمل عن كل من لقيت إلا الرافضة فإنهم يضعون الحديث ويتخذونه ديناً"(418) .

وقال حماد بن سلمة : "حدثني شيخ لهم– يعني الرافضة– قال: كنا إذا اجتمعنا فاستحسنا شيئاً جعلناه حديثاً(419) .

---

(415) الكفاية 96 .

(416) شرح نهج البلاغة 26/3 ، 48/11 .

(417) انظر : لسان الميزان 13/1 .

(418) ميزان الاعتدال 28/1.

(419) الموضوعات 39/1 .

ومن أمثلة[420] ما وضعه الشيعة: "علي خير البشر من شك فيه كفــر" ، وممــا وضعه جهلة أهل السنة: "أبو بكر يلي أمتي بعدي".

أما الخوارج فهم أقل الفرق كذباً لاعتقادهم بكفر مرتكب الكــبيرة ، حــتى إن بعض أهل العلم ذكروا أنهم من أصدق الناس حديثاً لهذا المعتقد[421] ، غير أنه قد يقع من بعضهم كما روي عن ابن لهيعة أنه قال: "سمعت شيخاً من الخوارج تاب ورجــع ، وهو يقول : إن هذه الأحاديث دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم ، فإنا كنا إذا هوينا أمراً صيرناه حديثاً" [422] .

ومما وضعه القدرية الذين ينفون خلق الله لأفعال العباد ، قولهم: "إذا كــان يــوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فالسعيد من وجد لقدمه موضــعاً ، فينادي مناد من تحت العرش: ألا من برأ ربه من ذنبه فليدخل الجنة".

ومما وضعه المرجئة القائلون بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، قولهم: "الإيمان مثبت في القلب كالجبال الرواسي ، وزيادته كفر ونقصانه كفر".

ومما وضعه جهلة الممالئين للعباسيين قولهم: "العباس وصيي ووارثي".

وروي أن المختار بن أبي عبيد الثقفي قال لرجل من أصحاب الحديث: "ضــع لي حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أني كائن بعده خليفة وطالب له بترة ولده ، وهذه عشرة آلاف درهم وخلعة ومركوب وخادم ، فقال الرجل: أما عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا ، ولكن اختر من شئت من الصحابة ، وأحطك من الثمن ما شئت"[423] .

ومن أكثر البلاد التي اشتهرت بالوضع في الزمن المتقدم: العراق ، لأنها مــوطن التشيع ، حتى إنها سميت "دار الضرب" ، أي تضرب فيها الأحاديث المكذوبة كضــرب

---

(420) جميع الأمثلة التى سأذكرها هنا للأحاديث الموضوعات مأخوذة مــن كتــاب الموضــوعات لابن الجوزى ، وتنــزيه الشريعة لابن عراق ، والفوائد المجموعة للشوكانى والــلآلى المصــنوعة للسيوطى ، والمنار المنيف لابن القيم .

(421) انظر : الكفاية 207 .

(422) الكفاية 198 .

(423) الموضوعات لابن الجوزى 39/1 .

الدراهم المزيفة[424] .

2- الزندقة ومعاداة الإسلام وقصد تشويهه :

الزنادقة هم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام ، وهم في الأغلب ينتمون إلى أمم زال سلطانها على يد المسلمين فحقدوا عليه إذ لم يدركوا الخيرية العظيمة الذي جاء بها هذا الدين ، وراحوا يكيدون للإسلام من الداخل ، وظنوا أن بغيتهم تتحقق بوضع الأحاديث للتلبيس على المسلمين ، لكن الله أخزاهم وأظهر باطلهم على أيدي علماء الحديث .

قال العلامة الجزائري : "إن قوماً من الفرس واليهود وغيرهم لما رأوا الإسلام قد ظهر وعم ، ودوخ وأذل جميع الأمم ، ورأوا أنه لا سبيل إلى مناصبته رجعوا إلى الحيلة والمكيدة ، فأظهروا الإسلام من غير رغبة ، وأخذوا أنفسهم بالتعبد والتقشف ، فلما حمد الناس طريقتهم ولّدوا الأحاديث والمقالات وفرقوا الناس فرقاً"[425] .

قال حماد بن سلمة : "وضعت الزنادقة على النبي صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألف حديث"[426] .

واعترف عبد الكريم بن أبي العوجاء قبيل قتله أنه وضع أربعة آلاف حديث يحرم فيها الحلال ويحل فيها الحرام .

وقد سن الوالي خالد بن عبد الله القسري في الزنادقة سنة حسنة حينما ضحّى بالجعد بن درهم الكذاب ، ثم سار خلفاء بني العباس سيرته ، فتتبعوهم ، بل إن المهدي أنشأ ديواناً خاصاً لتعقب الزنادقة وقطع دابرهم ، كما تتبع العلماء أحاديثهم وبينوا زيفها .

3- التعصب للجنس أو البلد أو المذهب :

إن التعصب داء عضال ، من مرض به تعب وأتعب ، بل قد يؤدي به ذلك إلى الغلو ، وربما إلى الخروج من الملة نسأل الله العافية ، وقد برأ الله أئمة المسلمين من

---

(424) انظر : منهاج السنة **12/1** .

(425) توجيه النظر **338** .

(426) الكفاية **80** ، **604** .

ذلك ، ولكنه وقع من بعض الجهال والعوام ، فقد حملهم التعصب لما ينتمون إليه أن يضعوا الأحاديث في فضله وفي مثالب ما يقابله .

ومن أمثلة الموضوعات تعصباً للجنس قولهم: "إن الله إذا غضب أنزل الوحي بالعربية وإذا رضي أنزل الوحي بالفارسية".والموضوعات في فضائل البلدان والقبائل كثيرة ، مثل: "إذا ذهب الإيمان من الأرض وجد ببطن الأردن" ، "الجفاء والبغي في الشام". ومن الموضوعات تعصباً للمذهب قولهم: "سيكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة النعمان هو سراج أمتي".

4- الترغيب في الخير والترهيب عن الشر:

حمل الجهل الفادح بعض أهله المنسوبين إلى الزهد والتعبد أن يضعوا جملة من الأحاديث لحث الناس على الخير ، وزجرهم عن الشر بزعمهم الفاسد ، وقد نسوا أن الله قد أكمل الدين وأتم النعمة ، وأن في مقبول السنة غناء لكل مسلم . وهذا النوع من أشد الوضاعين خطراً لأنهم يخدعون الناس بمظاهرهم فيأنسون لأقوالهم.

من هؤلاء غلام الخليل الذي سئل عما يحدّث به من الرقائق ، فقال: "وضعناها لنرقق بها قلوب العامة"(427) .

ومن هذا النوع حديث فضائل القرآن سورة سورة ، الذي وضعه نوح بن أبي مريم .

5- النفاق للحكام وطلب ودّهم وصلاتهم :

قام بعض من لاخلاق له في الدين بوضع الأحاديث تزلفاً للحكام ، من ذلك ما فعله غياث بن إبراهيم الذي دخل على المهدي فوجد عنده حماماً ، وكان المهدي يحب اللعب بالحمام ، فقال غياث حدثنا فلان عن فلان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا سبق إلا في نصل أو حافر أو جناح" ، أضاف لفظ "أو جناح" ليرضي المهدي ، فأمر له المهدي بجائزة ، ثم عاد إليه رشده فلما قام غياث قال المهدي: "أشهد أنّ قفاك قفا كذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم" ، ثم قال: "أنا حملته على ذلك" ، وأمر بذبح الحمام وترك ما كان فيه من اللهو .

---

(427) ميزان الاعتدال **141/1** .

6- رغبة القصاص في الإغراب :

كان بعض القصاص مرضى بالرغبة في جلب اهتمام الناس واستدرار أموالهم باختراع غرائب القصص والأحاديث ونسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم زوراً وبهتاناً ، ومن شأن العوام ملازمة القصاص والولع بكل غريب دون تحقيق في مصدره ، قال ابن قتيبة عن هؤلاء القصاص: "إنهم يميلون وجوه العوام إليهم ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغرائب من الأحاديث"(428) .

ومما جاء في ذلك أن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين صليا بمسجد الرصافة ، فقام بين أيديهم قاص فقال: حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا: حدثنا عبد الرزاق عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيراً منقاره من ذهب وريشه من مرجان" ، واستمر في هذا الحديث بنحو عشرين ورقة ، فجعل أحمد ويحيى ينظران إلى بعضهما مندهشين ، ثم سأله يحيى : من حدثك بهذا؟ فقال القاص: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، فقال له يحيى : أنا يحيى وهذا أحمد ، ماسمعت بهذا قط في حديث رسول الله ، فإن كان ولابد فعن غيرنا ، فقال القاص : أليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما ، لقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين(429) .

7- أسباب أخرى للوضع :

هناك أسباب أخرى متنوعة حمل أصحابَها عليها المصالحُ الشخصية طمعاً وجشعاً أو غضباً وانتقاماً ، .. . من ذلك حديث فضل الهريسة الذي وضعه بائعها لترويج بضاعته.وحديث "من قاد أعمى أربعين خطوة وجبت له الجنة" ، الذي وضعه محمد بن عبد الملك الأنصاري الأعمى .

وحديث "معلمو صبيانكم شراركم ، أقلهم رحمة لليتيم وأغلظهم على المسكين" ، وقد وضعه سعيد بن طريف عندما جاءه ابنه من الكتّاب يبكي لأن معلمه ضربه ،

(428) انظر : تأويل مختلف الحديث 357/1 ، 279 .

(429) الموضوعات لابن الجوزى 46/1 .

فغضب سعيد وقال: أما والله لأخزينهم حدثني عكرمة عن ابـــن عبـــاس مرفوعـــاً .. . وذكره .

ثالثا: جهود العلماء في مقاومة الوضع :

انبرى جهابذة المحدثين لمحاربة الوضع وتتبع أخبار الوضاعين ، وفحـــص أســـانيد الأحاديث الموضوعة ومتونها واحداً واحداً ، فكشفوا زيفها ، متتـــبعين في ذلـــك أدق الوسائل العلمية ، ومبتكرين أضبط القواعد المنهجية التي نالت إعجاب كل منصـــف ، فقد قال مرجليوث : "ليفتخر المسلمون ما شاءوا بعلم حديثهم"[430] .

وقد قيل لعبد الله بن المبارك : هذه الأحاديث المصـــنوعة ؟ قـــال: يعـــيش لهـــا الجهابذة ، ثم قرأ : {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}[431] .

وقد أمر الرشيد بقتل زنديق فقال له : "أين أنت عن أربعة آلاف حديث وضعتها فيكم أحرم فيها الحلال وأحلل فيها الحرام ، ما قال النبي منها حرفاً" ، فقال له الرشيد : "أين أنت يا زنديق من عبد الله المبارك وأبي إسحق الفزاري ينخلانها نخلاً فيخرجانها حرفاً حرفاً"[432] .

ويمكن تلخيص الأسس المنهجية التي سار عليها المحدثون في حمايـــة الســـنة مـــن الدخيل وتنقيتها من شوائب الوضع والتحريف فيما يلي :

1- اشتراط الإسناد :

إن الإسناد من خصائص هذه الأمة ، كما ذكر أهل العلـــم ، وكـــان المحـــدثون يشترطون ذكر الإسناد عند الرواية ، ولا يعيرون اهتماماً لأي حديث لم تذكر رواتـــه ، فقطع بذلك الطريق أمام الدجاجلة والوضاعين .

وقد بدأ ذلك في وقت مبكر عندما أخذت الفتن تطل برأسها ، قال التابعي ابـــن سيرين: "لم يكونوا– أي الصحابة– يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا

(430) انظر : مقدمة الجرح والتعديل ص : ب .

(431) الجرح والتعديل 3/1 ، والآية فى سورة الحجر : (9) .

(432) تذكرة الحفاظ 273/1 .

لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم"(433) .

وقال عبد الله بن المبارك: "الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء"(434) .

وقال هشام بن عروة : "إذا حدثك رجل بحديث فقل عمن هذا؟ "(435) .

وقال سفيان الثوري : "الإسناد سلاح المؤمن فإذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل؟"(436) .

2- استخدام التاريخ لفضح الكذابين :

أتقن المحدثون علم تاريخ رواة الحديث ، فحددوا مواليدهم ، ووفياتهم ، ورحلاتهم ، والبلاد التي دخلوها ، وتواريخ دخولهم لها ، وعمن أخذوا في كل بلد ، فضبطوا بذلك تحركات الرواة وتواريخها ، فكان لذلك أثر كبير في فضح الوضاعين وضبط أكاذيبهم ، قال سفيان الثوري: "لـمّا استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ"(437) .

3- تتبع الكذابين والتحذير منهم:

حرص المحدثون على فضح الكذابين والإعلان بكذبهم على رؤوس الناس ، قال يحيى بن سعيد: "سألت شعبة وسفيان الثوري ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة عن الرجل يتهم في الحديث ، قالوا: بيّنْ أمره للناس"(438) .

وكانوا يحذرون من مجالسة الكذابين ويرشدون إلى حضور مجالس الثقات ، من ذلك أن جعفر بن الزبير الكذاب كان مع عمران بن جدير المحدث الثقة يجلسان للناس في مسجد واحد ، فكان الناس يأتون إلى جعفر قبل أن يعرفوا أمره فكان شعبة بن الحجاج يمر بهم ويقول رافعاً صوته: يا عجبا للناس! اجتمعوا على أكذب الناس وتركوا

(433) مقدمة صحيح مسلم 10/1 .
(434) مقدمة صحيح مسلم 10/1 .
(435) الجرح والتعديل 34/1 .
(436) شرف أصحاب الحديث 80 .
(437) الكفاية 119 .
(438) الكفاية 43 .

أصدق الناس ، فما أتى عليه قليل حتى ترك الناس مجلس جعفر وكثر الزحام على حلقة عمران(439) .

وقال معاذ العنبري: "كتبت إلى شعبة أساله عن أبي شيبة قاضي واسط ، فكتب إليّ : لا تكتب عنه"(440) .

4- بيان أحوال الرواة:

تتبع المحدثون أحوال الرواة في جميع أحوالهم ، وجمعوا ما فيهم من التعديل أو التجريح ، وحددوا شيوخهم وتلاميذهم ، وميّزوا مروياتهم حتى عرفوا الحافظ والأحفظ والضابط والأضبط ، والمتقن والأتقن ، وعرفوا سيء الحفظ ، والمغفل والمدلس وكثير الأوهام وفاحش الغلط والمتهم بالكذب والكذاب ، عرفوا جميع ذلك بدقة ، ونشروا علمه بين طلابهم ، ودونوه في مصنفات علم الرجال ، فصنفوا في الثقات ، وصنفوا في الضعفاء ، وصنفوا في الوضاعين.. . وحددوا ألفاظاً للجرح والتعديل تعرف بها منازل الرواة .

وكانوا يخصصون أياماً لبيان أحوال الرواة في مجالسهم ، قال أبو زيد الأنصاري: "أتينا شعبة يوم مطر ، فقال: ليس هذا يوم حديث ، اليوم غيبة ، تعالوا نغتاب الكذابين"(441) .

وكانوا لا يحابون في ذلك والداً ولا ولداً ولا قريباً ، قال زيد بن أبي أنيسة: "لا تأخذوا عن أخي "(442) ، وقال علي بن المديني حين سئل عن والده: "هو الدين ، إنه ضعيف"(443) .

وكان المحدثون من الدقة في ذلك بحيث لا يفوتهم شيء من أحوال الرواة ، قال

---

(439) انظر : تهذيب التهذيب 91/2 .
(440) صحيح مسلم بشرح النووى 110/1 .
(441) الكفاية 45 ، وذكر معايب الرواة الحقيقية ليس بغية بل هو واجب لحماية الشريعة ، وقد عبر بذلك تجوزا .
(442) شرح النووى على مسلم 121/1 .
(443) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ 66 .

الشعبي: "والله لو أصبت تسعاً وتسعين مــرة وأخطــأت مــرة لعــدوا علــيّ تلــك الواحدة"[444] .

5- تقسيم الحديث إلى مراتب شرها الموضوع :

قسم المحدثون الحديث إلى مراتب بناء على قواعدهم في نقد الحديث سنداً ومتناً ، فالمتواتر أعلى أنواعه ثم الصحيح وهو مراتب ، ثم الحسن ، ثم الضعيف ، وهو أكثر من خمسين نوعاً ، ثم الموضوع ، وذلك بحسب توافر أو فقد شروط القبول الستة ، وهــي: اتصال السند ، وعدالة الرواة ، وضبط الرواة ، وعدم الشذوذ ، وعدم العلة القادحة ، ووجود العاضد عند الاحتياج إليه .

6- التصنيف في الحديث الموضوع :

خصص المحدثون للموضوع مؤلفات مستقلة ، لتسهل معرفته والاحتراز منــه ، وسيأتي ذكر نماذج لها في المبحث الخامس إن شاء الله .

7- تحديد علامات الحديث الموضوع :

وضع المحدثون قواعد دقيقة لمعرفة الوضع في الحديث سنداً ومتناً ، سيأتي ذكرها في المبحث التالي .

را بعًا علامات الحديث الموضوع :

سبر المحدثون أحوال الأحاديث الموضوعة ببحث جاد ، وتنقيب لا يكل وتتبع لا يمل ، واستقراء جامع ، فكانت نتيجة أبحاثهم استخلاص جملة من العلامات التي يعــرف بها وضع الحديث ، بعضها متصل بالسند ، وبعضها متصل بالمتن :

أ- علامات الوضع في السند :

السند هو سلسلة رواة الحديث ، فإذا كان في الحديث راو كذاب أو أكثر فهــو حديث موضوع ، ويعرف كذب الراوي بأمور أهمها :

1– إقرار الراوي نفسه بوضع الحديث ، مثلما تقدم عن غلام الخليل ، والزنديق الذي أمر الرشيد بقتله ، ومثل إقرار نوح بن أبي مريم بوضع حديث فضــائل القــرآن

(444) تذكرة الحفاظ 77/1 .

سورة سورة .

2- أن يحكم عليه علماء الجرح والتعديل بالكذب بعد تتبع أحواله وفحص أحاديثه وعرضها على أحاديث الحفاظ الأثبات.

3- أن يروي الراوي عمن لم يثبت أنه لقيه بصيغة تدل على السماع ، أو عمن ولد بعد وفاته ، أو كان في مكان آخر ولم يلتق به ، وقد كشف المحدثون عن كثير من ذلك بتتبعهم لأحوال الرواة.من ذلك تحديث عمر بن موسى عن خالد بن معدان ، فقيل له : متى لقيته؟ قال: سنة ثمان ومائة ، قيل: أين لقيته؟ قال: في غزاة أرمينية ، فقيل له: اتق الله يا شيخ ، ولا تكذب ، مات خالد بن معدان سنة أربع ومائة ، وأنت تزعم أنك لقيته بعد موته بأربع سنين ، ثم إنه لم يغز أرمينية قط ، كان يغزو الروم[445] .

ب- علامات الوضع في المتن:

عني المحدثون بنقد متون الأحاديث ، ووضعوا معايير كثيرة تساعد في معرفة الحديث الموضوع ، وهي أكثر عدداً من معايير نقد الإسناد ، وهذا كفيل بالرد على من يجهلون هذا الميدان ويدّعون أن علماء الحديث قد عنوا بنقد الإسناد دون العناية بنقد المتن . ومن أهم علامات الوضع في المتن ما يلي :

1- ركاكة لفظه وسماجة أسلوبه ، سماجةً يمجها سمع من يعرف لغة العرب ، ويدفعها الطبع السليم ، وذلك يتنافى مع ما عرف به حديث النبي صلي الله عليه وسلم من الفصاحة والبلاغة والحلاوة والطراوة ، قال الربيع بن خثيم: "إن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار نعرفه به ، وإن من الحديث حديثاً له ظلمة كظلمة الليل نعرفه بها"[446] .

وقال ابن الجوزي في كتاب الموضوعات : "الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم وينفر منه قلبه في الغالب".

ومن أمثلته قولهم : "من فارق الدنيا وهو سكران دخل القبر وهو سكران وبعث

---

(445) الكفاية 119 .

(446) معرفة علوم الحديث للحاكم 62 .

من قبره سكران ، وأمر به إلى النار سكران إلى جبل يقال له : سكران".

ومن هذا النوع أيضاً ما يشتمل على خطأ لغوي ، مثل :"لا تُسَيِّدوني في الصلاة".

2- فساد معنى الحديث ومخالفته لبدهيات العقول السليمة ، مثل: "إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً ، وصلت عند المقام ركعتين".

3- أن يعرف بالاستقراء لجميع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه ليس منها ، وهذا إنما يعرفه الحفاظ المستوعبون للسنة ، قال العلائي: "وهذا إنما يقوم به الحافظ الكبير الذي قد أحاط حفظه بجميع الحديث أو معظمه كالإمام أحمد وعلي بن المديني ويحيى بن معين ، ومن بعدهم كالبخاري وأبي حاتم وأبي زرعة ، ومن دونهم كالنسائي ثم الدارقطني.. . وأما من لم يصل إلى هذه المرتبة فكيف يقضي بعدم وجدانه للحديث أنه موضوع ، هذا مما يأباه تصرفهم" ، قال ابن عراق معلقاً: "فاستفدنا من هذا أن الحفاظ الذين ذكرهم وأضرابهم إذا قال أحدهم في حديث : لا أعرفه أو لا أصل له كفى ذلك في الحكم عليه بالوضع والله أعلم"[447] " ، ومثاله قول الإمام القاري في حديث "إن الله لا يقبل دعاء ملحوناً": "لا يعرف له أصل"[448] .

ومن هذا النوع أن يقوم الحفاظ باستقراء الأبواب والموضوعات ، ثم يجزموا بأن ما ورد فيها موضوع ، مثل قولهم: أحاديث ذم الأولاد كلها كذب ، وأحاديث مدح العزوبة كلها باطل ، وأحاديث فضائل الأزهار كلها كذب....

4- أن يخالف صريح القرآن : مثل حديث"ولد الزنى لا يدخل الجنة" ، فإنه مخالف لقوله تعالى : {ولا تزر وازرة وزر أخرى}[449] .

5- مخالفته لصحيح السنة : مثل حديث "إذا حدثتم عني بحديث يوافق الحق فخذوا به حدثت به أو لم أحدث" فهو مناقض للحديث المتواتر "من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".

6- مخالفته للإجماع : مثل حديث "أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيد علي

(447) تنـزيه الشريعة 7/1 ، 8 .
(448) المصنوع 35 .
(449) فاطر : (18) .

بن أبي طالب بمحضر من الصحابة كلهم وهم راجعون من حجة الوداع فأقامه بينهم حتى عرفه الجميع ثم قال: هذا وصيي وأخي والخليفة من بعدي فاسمعوا له وأطيعوه" ، فهذا مخالف لإجماع الصحابة رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينص على تولية أحد بعده .

7- مخالفته للمعلوم من الدين بالضرورة: مثل حديث "من قضى صلوات من الفرائض في آخر من رمضان كان ذلك جابراً لكل صلاة فاتته من عمره إلى سبعين سنة" ، فهذا مخالف للمعلوم من الدين بالضرورة من أن الفائتة من العبادات لا يقوم مقامها شيء ، بل لابد من قضاء كل صلاة منفردة ، مع التوبة والاستغفار عسى أن يقبلها الله ويعفو عن صاحبها.

8- أن يخالف حقائق التاريخ المعروفة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم: مثل حديث "إن النبي وضع الجزية عن أهل خيبر بشهادة سعد بن معاذ وكتابة معاوية" ، والثابت أن الجزية لم تكن معروفة عام خيبر ، وأن سعد بن معاذ توفي قبل عام خيبر ، ومعاوية أسلم بعد ذلك يوم الفتح.

9- الإفراط في الوعد والوعيد لأفعال لا تستوجب ذلك:مثل حديث "من صلى الضحى أعطي ثواب سبعين نبياً" ، وحديث "من صلى ركعتين فله ثواب موسى وعيسى".قال ابن القيم: "وأمثال هذه المجازفات الباردة لا يخلو حال واضعها من أحد أمرين : إما أن يكون في غاية الجهل والحمق ، وإما أن يكون زنديقاً قصد التنقيص بالرسول صلى الله عليه وسلم بإضافة مثل هذه الكلمات إليه"[450] .

10- اشتماله على سخافات وسماجات يصان عنها سائر العقلاء فكيف بنبي الهدى المسدد بالوحي صلى الله عليه وسلم: مثل حديث "لو كان الأرز رجلاً لكان حليماً ما أكله جائع إلا أشبعه" ، وحديث "خلق الورد من عرقي".

خا مسًا: المصنفات في الحديث الموضوع :

صنف المحدثون كتباً خاصة في الأحاديث الموضوعة للتنبيه عليها والتحذير منها ،

(450) المنار المنيف 51 .

من ذلك :

1- الموضوعات من الأحاديث المرفوعات ، للحسين بن إبراهيم الجوزقاني (ت543) .

2- الموضوعات ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت597) .

3- اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911) .

4- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة ، لعلي بن محمد بن عراق (ت963) .

5- تذكرة الموضوعات ، لمحمد بن طاهر الهندي (ت986) .

6- الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ، لعلي بن محمد المعروف بملا علي القاري (ت1014) .

7- المصنوع في معرفة الحديث الموضوع ، للقاري أيضاً .

8- الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة ، لمرعي بن يوسف الكرمي (ت1032) .

9- الدرر المصنوعات في الأحاديث الموضوعات لمحمد بن أحمد السفاريني (ت1188) .

10- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، لمحمد بن علي الشوكاني (ت1250) .

المراجع المساعدة

1–الوضع في الحديث للدكتور عمر فلاتة.

2–السنة قبل التدوين **185– 248** .

3–السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي **85– 102** .

4–منهج النقد في علوم الحديث **301– 320** .

5–معالم السنة النبوية **103 – 133** .

6–بحوث في تاريخ السنة المشرفة **19– 59** .

7–الحديث النبوي **247– 277** .

8–مقدمة الموضوعات لابن الجوزي .

9–خاتمة اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي .

10– مقدمة تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة لابن عراق .

11–المنار المنيف لابن القيم .

أسئلة التقويم الذاتي

1–عرف الحديث الموضوع ، وبين حكم روايته.

2–تحدث عن نشأة الوضع باختصار مبيناً براءة الصحابة وكبار التابعين من ذلك.

3–ما هي دوافع الوضع في الحديث مع التمثيل لكل منها؟

4–وضح جهود العلماء في مقاومة الوضع.

5–ما هي علامات الوضع في السند وفي المتن؟

6–كيف ترد على من ادعى أن عناية المحدثين كانت مقتصرة على الإسناد دون المتن؟

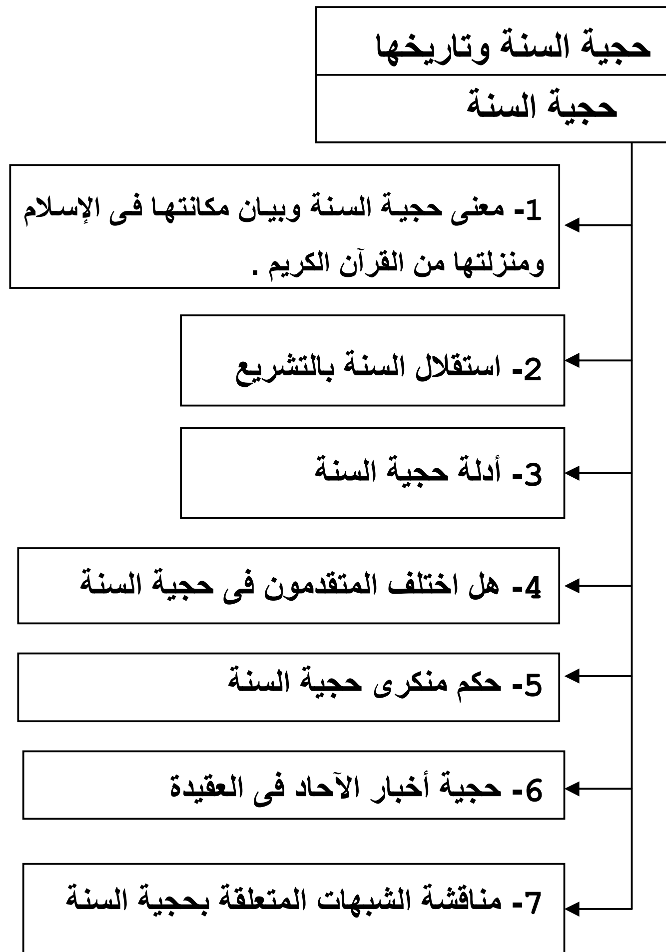
7–اذكر خمسة من كتب الموضوعات مبيناً فوائدها.

8–اكتب خمس صفحات بتعبيرك تضمنها حصيلة ما استفدته من هذا المبحث.

القسم الثانى

حجية السنة

الوحدة الخامسة



القسم الثاني :
حجية السنة

مدخل :

السّنّة المطهرة شقيقة القرآن ، ومثيلته في الحجية والاعتبار ، فهما مصدر الـــدين وأساسه المتين ، وكلاهما وحي من عند الله تعالى ، كما تقدم تقريره في مبحـــث أقســـام السنة ، حيث تظاهرت به الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وســـائر ســـلف الأمة.

ومن السنة ما جاء مؤكدا لأحكام دل عليها القرآن الكريم .

ومنها ما جاء مبينا للقرآن: تفصيلا لمجمله ، وتوضيحا لمشكله ، وتخصيصا لعامه ، وتقييدا لمطلقه ، وتبيينا لمبهمه ، ورداً لما تشابه منه إلى محكمه .

ومنها ما جاء بتشريعات مستقلة لم ينص عليها القرآن ، وهذا قسم واسع تناول كثيرا من أصول الدين وفروعه .

والسنة جميعها حجة شرعية ، يستوي في ذلك المتواتر منها والآحاد ، مـــا دام الجميع ثابتا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ العبرة في ذلك بثقه النقلة وليس بكثرة عددهم .

كما أن مجال الاحتجاج بالسنة يشمل مسائل العقيدة وفروع الشريعة من عبادات ومعاملات .

ومسألة حجية السنة من أصول الدين وأسس الاعتقاد ، وليست مـــن الفـــروع والجزئيات ، وهي مرتبطة ارتباطا مباشرا بالإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وســـلم ، ومن خالف فيها بعد تبين أدلتها فقد أنكر معلوما من الدين بالضرورة ، وخالف في أصل من الإسلام يخرج منكره من الملة.

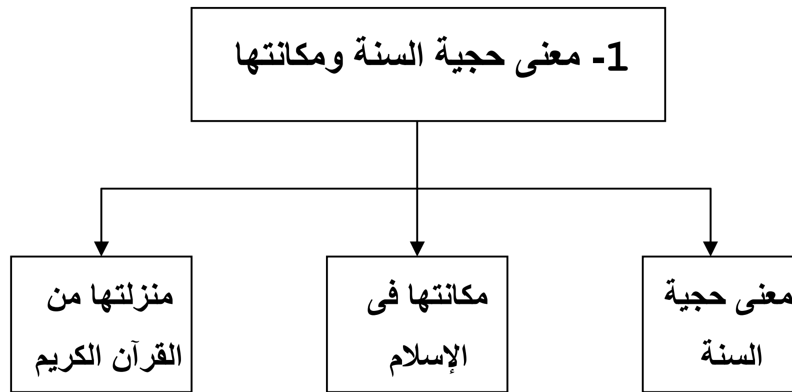
على هذه الجمل الثابتة في شأن السنة أجمعت الأمة ، وكان ذلك عند السلف ومن سار على نهجهم من قطعيات الدين ومسلماته ، لم يخالف في ذلك إلا زنديق أو متهم في دينه .

وقد حاول أعداء الإسلام من أهل الأمم المقهورة قديما وحديثا أن يشوهوا هــذه الحقيقة العظمى ، ليفتنوا المسلمين عن دينهم ، ويصدوهم عن سبيله القويم ، ولكــن الله حفظ دينه ،ورد كيد الأعداء في نحورهم فكانوا كالذي يصرخ في واد أو ينفخ في رماد ، وما كان زيفهم لينطلي على مؤمن معتز بدينه ، عارف بأسس معتقده ، آخذ بأســباب الحصانة الإيمانية والعلمية اللازمة لرد شبهات الأعداء ودحضها ، قال تعالى: {يريــدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون}[451] .

وفي عصرنا الحاضر شاع الجهل بالدين ، واختلطت الأمور على كثير من المنتسبين للإسلام ، الذين لا يملكون من قوة الإيمان ونور العلم ما يدفعون به تلــك الشــبهات وظلماتها فوجب البيان لهم ، ومساعدتهم على تصحيح معتقداتهم ، وتسليحهم بالحجج والبراهين التي تمكنهم بإذن الله تعالى من الثبات في هذا المعترك الفكري الخطــير الــذي يجتاح الأمة ، وهذه مسؤولية عامة سوف يسأل عنها بين يدي الله تعالى كل مقصــر في شأنها .

---

(451) التوبة : (32) .


1- معنى حجية السنة ومكانتها
معنى حجية السنة
مكانتها فى الإسلام
منزلتها من القرآن الكريم

المبحث الأول

معنى حجية السنة وبيان مكانتها في الإسلام ومنزلتها من القرآن

الأهداف الخاصة

1- معرفة معنى حجية السنة .

2-إدراك مكانة السنة في الإسلام .

3-الإلمام بمنزلة السنة من القرآن من حيث الدلالة على المعتقدات والأحكام .

4- معرفة أنواع بيان السنة للقرآن .

5-الإلمام بنماذج لاستقلال السنة بالتشريع .

المبحث الأول

معنى حجية السنة وبيان مكانتها في الإسلام ومنزلتها من القرآن(452)

1- معنى حجية السنة :

تطلق الحجة في لغة العرب على الدليل والبرهان القاطع ، يقال حاجه فحجه أي احتج عليه فغلبه بالحجة ، واحتج بالشيء استدل به واتخذه حجة .

أما في الاصطلاح فحجية السنة تعني أن السنة دليل شرعي يدل على حكم الله تعالى ، وأن الله عز وجل قد تعبدنا باتباع ما أمرت به السنة واجتناب ما نهت عنه ، فهي مصدر شرعي أساسي ، حيث إنها الشطر الثاني من المصدر الأول لهذا الدين ، وهو الوحي .

وبعبارة أخرى فإن معنى حجية السنة: وجوب اعتقاد مضمونها والعمل بمقتضاها في جميع جوانب الحياة مما يتعلق بمعاش الناس ومعادهم .

2- مكانة السنة في الإسلام :

من المعلوم أن أساس هذا الدين ومصدره وأصله الأول هو الوحي ، الذي احتوى جميع كليات الإسلام وفروعه ، من معتقدات وعبادات ومعاملات وأخلاق ومعارف وقيم حضارية على مختلف الأصعدة .

وينقسم هذا الأصل الأول الذي هو الوحي إلى قسمين مترابطين متكاملين لا غنى لأحدهما عن الآخر ، ولا يكفي واحد منهما في بيان جميع أمور الدين ، وهما : القرآن والسنة.

فالسنة هي القسم الثاني من الوحي ، وهي لذلك مثل القرآن في الحجية والاعتبار وفي وجوب طاعتها تبعا له ومستقلة عنه ، وبدونها يتعذر فهم القرآن ، بل

(452) راجع : حجية السنة للدكتور عبد الخالق 243 ، 485 ، دفاع عن السنة للدكتور أبو شهبة 11 ، السنة المفترى عليها للبهنساوى 301 ، السنة حجيتها ومكانتها فى الإسلام للسلفى 19 ، 93 السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى للسباعى 376 ، 386 ، الحديث النبوى للصباغ 18 ، الحديث والمحدثون لأبى زهو 20 ، 37 ، مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة للسيوطى .

تتعذر عبادة الله كما شرع وأمر.

والسنة هي شطر الدين ، وأحد الأصلين ، ومصدر الإسلام مع القرآن الكريم ، تستمد منهما العقيدة الصحيحة ، وأحكام العبادات والمعاملات ، والأخلاق والآداب والفضائل ، والمعارف والعلوم ، وتصاغ منهما أسس قوانين الأمة المسلمة في سياساتها الداخلية وعلاقاتها الدولية ، وتنبثق عنهما نظم حياتها الاجتماعية والاقتصادية وثقافتها وتربيتها وفكرها وتصوراتها وسلوكياتها حال السلم وحال الحرب ، وهما منطلق حضارتها بكل أبعادها ومنهج حياة المسلمين في مختلف نواحيها.

تلك مكانة السنة كما فهمها الأسلاف وطبقوها فسادوا بها ربوع العالم ، ونالوا العزة والسؤدد ، وسعدوا وأسعدوا غيرهم ، وقادوا البشرية نحو الخير والصلاح.

أما اليوم فإن كنوز السنة مدفونة في بطون الكتب تنتظر من يستخرجها ويطبقها ، لتستعيد الأمة مجدها وكرامتها ودورها الريادي لهداية البشرية الحائرة .

3- منزلة السنة من القرآن :

لقد نص الإمام الشافعي في كتاب الرسالة ، ووافقه جماهير أهل العلم ، على أن السنة تنقسم إلى ثلاثة أقسام من حيث دلالتها على العقائد والأحكام الواردة في القرآن الكريم ، وذلك على النحو التالي :

أ- السنة المؤكِّدة :

وهي الدالة على الحكم الشرعي كما يدل عليه القرآن من جميع الوجوه ، فهي موافقة له من حيث الإجمال والاختصار والشرح ، وذلك لتقرير تلك الأحكام وتأكيدها ، وإشاعتها ونشرها بين المسلمين ، ومن أمثلة ذلك :

– قوله صلى الله عليه وسلم: "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان"(453) ، فقد دل هذا الحديث على العقيدة والأحكام نفسها الواردة في الآيات التالية من جميع الوجوه : {آمنوا بالله ورسوله} ، {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} ، {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام} ، {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا}(454) .

– قوله صلى الله عليه وسلم : "اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم ،

(453) البخارى مع الفتح 72/1 ح8 .
(454) الآيات بالترتيب فى النساء : (136) ،البقرة :(43)، البقرة :(183) ،آل عمران : (97) .

أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله"(455) ، فقد دل هذا الحديث على الحكم الوارد في قوله تعالى : {وعاشروهن بالمعروف}(456) .

– قوله صلى الله عليه وسلم : "لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه"(457) ، فإنه موافق لما في قوله تعالى : {ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون}(458) .

ب- السنة المبيِّنة :

وهي التي توضح مراد الله فيما شرعه لعباده في القرآن ، قال تعالى : وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم}(459) ، وهذا القسم هو أغلب السنة ، ولذلك ظن الكثيرون أن وظيفة السنة قاصرة على ذلك ، وهو ظن خاطئ لمخالفته للأدلة ، ولما اتفق عليه جماهير العلماء.

وقد جاء بيان السنة للقرآن على أربعة أنواع أساسية ، هي: تفصيل المجمل ، وتوضيح المشكل ، وتقييد المطلق ، وتخصيص العام ، ومن أمثلة هذه الأنواع من البيان ما يلي :

1- تفصيل المجمل : مثل تفصيل مجملات القرآن فيما يتعلق بأحكام الصلاة والزكاة والصوم والحج ، حيث بينت السنة صفة الصلاة وأنصبة الزكاة ، وأحكام الصوم وكيفية الحج ، ولولا بيان السنة لتلك الأحكام المجملة لما استطعنا أن نعبد الله كما شرع .

2- توضيح المشكل : وذلك بتبيين مراد الله فيما يشكل فهمه بلا وحي مبين وهو السنة ، مثل حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: "لما نزلت هذه الآية : {وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر} ، عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض ، فجعلتهما تحت وسادتي ، فجعلت أنظر إليهما فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت ، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بالذي صنعت فقال: إن وسادك إذن لعريض ، إنما ذلك بياض النهار

(455) صحيح مسلم 2/886-892 ح 147 .

(456) النساء : (19) .

(457) أخرجه أحمد 5/72 .

(458) البقرة : (188) .

(459) النحل : (44) .

من سواد الليل"[460] .

3- تقييد المطلق : وذلك بتحديد المراد بمطلقات القرآن ، مثـــل قولـــه تعـــالى : {والسارقوالسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا}[461] ، فحكم القطع هنا مطلـــق ، والسنة قيدته باليد اليمنى ، وقيدت موضع القطع بأنه من مفصل الرسغ .

4- تخصيص العام : مثل قوله تعالى : {يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين} ، فإن هذه الآية دلت على توريث الأولاد عامة ، فخصصت السنة المورث بغير الأنبياء ، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : "نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنـــاه صدقة"[462] ، وخصصت السنة الوارث بغير القاتل بقوله صلى الله عليه وســـلم: "لا يرث القاتل"[463] .

جـ- السنة المستقلة بالتشريع :

وهي التي تدل على حكم شرعي جديد لم ينص عليه القرآن الكريم ، ولا غرابـــة في ذلك فهي وحي مثل القرآن ، كما تقدم في مبحث أقسام السنة من حيث الوحي بها.

والأمثلة على استقلال السنة بالتشريع لا تحصى كثرة ، وهي واضحة لمن نظر في أمهات كتب السنة ، ومن ذلك :

* إثبات حق الشفعة للجار .
* بيان ميراث الجدة.
* حكم وجوب رجم الزاني المحصن.
* وجوب الكفارة على من انتهك حرمة صوم رمضان.
* الحكم بالشاهد واليمين.
* تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في الزواج.
* تحريم أكل الحمر الأهلية وكل ذي ناب أو ظفر من السباع.
* تحريم لبس الذهب والحرير على رجال أمة محمد صلى الله عليه وسلم.
* تحريم الرضاع ما يحرم من النسب.

وسيأتي مزيد بيان لهذا القسم الثالث في المبحث التالى .

(460) الآية فى سورة البقرة : (187) ، والحديث متفق عليه .

(461) المائدة : (38) .

(462) سنن البيهقى 220/6 .

(463) أخرجه الترمذى وابن ماجه .

المراجع المساعدة

1- حجية السنة للدكتور عبد الخالق 243، 485 .

2- دفاع عن السنة للدكتور أبو شهبة 11 .

3- السنة المفترى عليها للبهنساوي 301 .

4- السنة حجيتها ومكانتها في الإسلام للسلفي 19 ، 93 .

5- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي 376 ، 386 .

6- الحديث النبوي للصباغ 18 .

7- الحديث والمحدثون لأبي زهو 20 ، 37 .

8- مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة للسيوطي .

أسئلة التقويم الذاتي

1- ما معنى حجية السنة لغة واصطلاحاً؟

2- ما هي مكانة السنة في الإسلام؟ وما الأساس التي بنيت عليه تلك المكانة؟

3- ما فوائد إدراك تلك المكانة والاستفادة منها ، وما مضار إهدار تلك المكانة للسنة؟

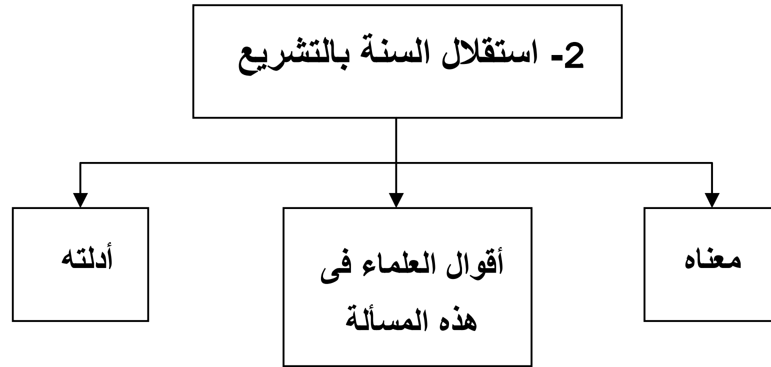
4- ما هي منزلة السنة من القرآن؟

5- ما هي أنواع بيان السنة للقرآن مع التّمثيل؟

6- ما الفرق بين السنة المؤكدة والسنة المبينة؟

7- اذكر عشرة نماذج لاستقلال السنة بالتشريع.

8- لخص هذا المبحث في ثلاث صفحات.


2- استقلال السنة بالتشريع
معناه
أقوال العلماء فى هذه المسألة
أدلته

المبحث الثاني
استقلال السنة بالتشريع

الأهداف الخاصة

1- معرفة معنى استقلال السنة بالتشريع .

2- الاطلاع على أقوال أهل العلم في هذه المسألة مع معرفة الراجح منها .

3- إدراك حقيقة الخلاف ، وهل هو حقيقي أم لفظي .

4- معرفة أدلة استقلال السنة بالتشريع بتفصيل مناسب .

المبحث الثاني
استقلال السنة بالتشريع[464]

أ- معنى استقلال السنة بالتشريع :

إن استقلال السنة بالتشريع يعني أنها قد جاءت بمعتقدات وأحكام لم ينص عليها القرآن الكريم وأنها حجة في ذلك ، أي إن الله تعبدنا بذلك وأوجب علينا اعتقاده والعمل به ، وأن وظيفة السنة لا تقتصر على تأكيد أحكام القرآن وبيانها ، بل من وظيفتها أيضا أن تضيف تشريعات أخرى بوحي من الله تعالى ، وهي تشريعات ملزمة للمسلمين كإلزام القسمين الأولين ، وكإلزام ما جاء به القرآن الكريم نفسه ، حيث إن الوحي هو مصدر جميع ذلك .

ب- أقوال أهل العلم في هذه المسألة :

أجمع العلماء على وقوع القسم الثالث من أقسام السنة ، وهو أنها تأتي بأحكام لم يثبتها القرآن ولم ينفها ، وأن ذلك كثير في السنة ، وأنه حجة شرعية ملزمة.

ثم اختلفوا بعد ذلك في طريقة ثبوت هذا القسم: هل هو عن طريق استقلال السنة بالتشريع أم عن طريق دخولها تحت نصوص القرآن ولو بتأويل.

فذهب جماهير علماء الأمة قديما وحديثا إلى أن ذلك عن طريق استقلال السنة بالتشريع ، وأن الله تعالى أوحى إليه في السنة بمعتقدات وأحكام جديدة مضافة إلى ما أوحى إليه في القرآن ، وهذا هو الصواب لتضافر الأدلة عليه ولشهادة الواقع ، ولأن السنة وحي كالقرآن ، فلا مانع من التعبد بها على سبيل الاستقلال.

وذهب الشاطبي وقلة معه إلى أن هذا القسم من الأحكام التي أضافتها السنة

(464) راجع : حجية السنة 504-540 ، الرسالة للإمام الشافعى 88 ، الحديث النبوى 19 ، دفاع عن السنة لأبى شهبة 13،السنة المفترى عليها للبهنساوى 36 ،السنة للسلفى 20 ، 17 ، السنة ومكانتها فى التشريع للسباعى 379 ، الموافقات للإمام الشاطبى 13/4 .

داخل تحت عموم القرآن وراجع إليه ، وهذا مرجوح للأدلة البينة على قول الجمهور.

وعند التأمل نجد أن الخلاف لفظي بين الفريقين ما دام الجميع معتـــرفين بوجـــود أحكام في السنة لم ينص عليها القرآن ، وأن الله قد ألزمنا بها.

جـ- أدلة استقلال السنة بالتشريع :

1- لقد دل القرآن الكريم ودلت السنة وإجماع السلف على أن السنة وحي من عند الله ، ولله تعالى أن يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بتبليغ أحكامه للناس مـــن أي طريق ، سواء كان ذلك بالكتاب أو السنة ، وذلك جائز شرعا وعقلا وواقع فعلا .

2- إن نصوص القرآن الدالة على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وســـلم وطاعته مطلقة ، ولم تفرق في إيجاب الطاعة بين السنة المؤكِّـــدة أو المبيِّنـــة أو المســـتقلة بالتشريع ، ولهذا فإن التفريق بين ذلك في الطاعة مخالفة للنص وتحكم بالجهالة .

3- إن نصوص القرآن قد دلت على وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستقلال ، مثل قوله تعالى : {يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنـــون بـــالله واليوم الآخر}[465] .

قال الإمام ابن القيم في تفسير هذه الآية: "فأمر تعالى بطاعته وطاعـــة رســـوله ، وأعاد الفعل إعلاما بأن طاعة الرسول تجب استقلالا من غير عرض ما أمـــر بـــه علـــى الكتاب ، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقا ، سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكـــن فيه ، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه ، ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالا ، بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول إيذانا بأنهم إنما يطاعون تبعا لطاعة الرسول ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمـــع ولا طاعة"[466] .

وقال التابعي ميمون بن مهران : "إن الرد إلى الله هو الرجوع إلى كتابه ، والـــرد

(465) النساء : (59) .

(466) أعلام الموقعين 39/1 .

إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الرجوع إليه في حياته وإلى سنته بعد موته".

4- إن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بدلالة المعجزة عن الخطأ في التبليغ عن ربه عز وجل بوحي متلو أو غير متلو ، مبين أو مؤكِّد أو مستقل .

5- إن القول بعدم استقلال السنة بالتشريع يقتضي القول بعدم تبيينـــها لمـــا في الكتاب أيضا لأن في التبيين نوع استقلال في تفاصيل الحكم المبيَّن ، كمـــا في تفاصـــيل أحكام الصلاة والزكاة والحج وغيرها ، فيلزم استواء الجميع في الجواز والوقوع.

وأختم هذا المبحث بقول الإمام الشافعي: "وما سن رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم فيما ليس لله فيه حكم (أي في القرآن) فبحكم الله سنه ، وكذلك أخبرنـــا الله في قوله : {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله}[467] .

(467) الرسالة 88 ، و الآية فى سورة الشورى : (52) .

المراجع المساعدة

1- حجية السنة 504 – 540 .

2- الرسالة للإمام الشافعي 88 .

3- الحديث النبوي 19 .

4- دفاع عن السنة لأبي شهبة 13 .

5- السنة المفترى عليها للبهنساوي 36 .

6- السنة للسلفي 20 ، 97 .

7- السنة ومكانتها في التشريع للسباعي 379 .

8- الموافقات للإمام الشاطبي 13/4 .

أسئلة التقويم الذاتي

1- ما معنى استقلال السنة بالتشريع؟

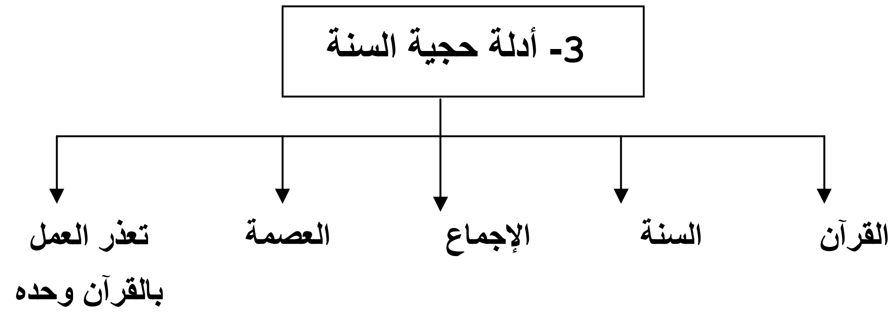
2- ما الذي يجعل استقلال السنة بالتشريع أمراً طبيعيا؟

3- ما هي أقوال العلماء في هذه المسألة مع الترجيح؟

4- هل الخلاف فيها حقيقي أم لفظي؟ ولماذا؟

5- اذكر أدلة استقلال السنة بالتشريع.

6- لخص هذا المبحث في صفحتين.


3- أدلة حجية السنة
القرآن
السنة
الإجماع
العصمة
تعذر العمل بالقرآن وحده

المبحث الثالث
أدلة حجية السنة

الأهداف الخاصة

1- معرفة أدلة حجية السنة من القرآن.

2- معرفة أدلة حجية السنة من السنة.

3- إدراك دلالة الإجماع على حجية السنة.

4- تبيّن دلالة العصمة على حجية السنة.

5- معرفة دلالة تعذر العمل بالقرآن وحدهُ على حجية السنة.

6- الإلمام الكامل بهذه الأدلة ، وحفظ قدر مناسب من كل منها ،مع الفهم .

المبحث الثالث
أدلة حجية السنة(468)

إن السنة المطهرة حجة شرعية تعبدنا الله تعالى باعتقاد مضمونها والعمل بمقتضاها، وهي شقيقة القرآن ومثيلته في الحجية والاعتبار ، وهما جميعا من عند الله تعالى .

وقد دل على حجية السنة أدلة كثيرة أهمها : القرآن ، والسنة ، والإجماع ، والعصمة ، وتعذر العمل بالقرآن وحده :

الدليل الأول : القرآن الكريم :

إن المتأمل في كتاب الله يجد آيات عديدة ومتنوعة المضامين تؤكد وتقرر وجوب طاعة النبي صلى الله عليه وسلم طاعة مستقلة وأن ما يصدر عنه من الحديث في مجال تبليغ الشريعة ملزم لكافة المسلمين . لا يسع أحداً منهم أن يخالف أمره أو أن يتجاوز نهيه . وبعد تدبر هذه الآيات نجد أنه يمكن تقسيمها إلى الأنواع التالية :

1- الآيات الدالة على وجوب اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وطاعته مع التحذير من مخالفته :

- {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين}(469) .

- {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن

(468) راجع : حجية السنة 278- 382 ، دفاع عن السنة 13 ، السنة للسلفى 30 – 90 ، الحديث النبوى للصباغ 20- 30 ، مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة للسيوطى ، الحديث والمحدثون لأبى زهو 20 .

(469) المائدة : (92) .

تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر}[470] .

قال الإمام ابن القيم في تفسير هذه الآية : "فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه فإنه أوتي الكتاب ومثله معه"[471] .

– {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}[472] .

– {يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم... }[473] .

– {فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم}[474] .

2– الآيات الدالة على وجوب الإيمان به ، والإيمان معناه الإذعان والتصديق والتسليم ، ومن لوازمه الاتباع للسنة ، والتمسك بها ، وقبول شريعته صلى الله عليه وسلم ، والوقوف عند حكمه وقضائه ، ومن هذه الآيات ما يلي :

– {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً}[475] .

قال ابن القيم : "أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يُحَكِّموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل ، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق عن قضائه وحكمه ، ولم يكتف منهم أيضاً بذلك حتى يسلموا تسليماً وينقادوا انقياداً"[476] .

– {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا

(470) النساء : (59) .
(471) أعلام الموقعين 39/1 .
(472) الحشر 7 .
(473) الأنفال 24.
(474) النور 62 .
(475) النساء 65.
(476) أعلام الموقعين 42/1 .

حتى يستأذنوه}[477] .

قال ابن القيم : "فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه ، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه"[478] .

3- الآيات الدالة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم مبين للكتاب وشارح له شرحاً معتبراً عند الله تعالى ومطابقاً لما شرعه للعباد ، وأنه صلى الله عليه وسلم يعلم أمته أمرين : الكتاب والحكمة (وهي السنة) :

- {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً}[479] .

ومعلوم أن الواو في لغة العرب تقتضي المغايرة ، فالمنزل على النبي صلى الله عليه وسلم أمران : الكتاب والحكمة (وهي السنة) .

- {لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}[480] .

قال الإمام الشافعي : "فذكر الله الكتاب وهو القرآن ، وذكر الحكمة ، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول الحكمة: سنة رسول الله ، لأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة ، وذكر الله منّه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة . فلم يجز والله أعلم أن يقال: الحكمة ههنا إلا سنةُ رسول الله . وذلك أنها مقرونة مع الكتاب ، وأن الله افترض طاعة رسوله ، وحتم على الناس اتباع أمره . فلا يجوز أن يقال لقول : فرض إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله ، لما وصفنا ، من أن الله جعل الإيمان برسوله ، مقروناً بالإيمان به"[481] .

4- الآيات الدالة على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع ما

(477) النور : (62) .
(478) أعلام الموقعين 1/ 42 ، 43 .
(479) النساء : (113) .
(480) آل عمران : (164) .
(481) الرسالة 7 .

يصدر عنه ، والاقتداء به والتأسي بسنته ، وأن اتباعه من لوازم ونتائج وثمرات محبة العبد لربه :

- {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم}(482) .

- {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً}(483) .

قال محمد بن علي الترمذي: "الأسوة في الرسول الاقتداء به ، والاتباع لسنته ، وترك مخالفته في قول أو فعل"(484) .

5- الآيات الدالة على أن الله أمره بتبليغ رسالته قرآنا وسنة وأنه عصمه من التبديل والتحريف ، مما يفيد وجوب التمسك بالسنة ، لأن الله أمره بتبليغها كالقرآن وحماها كما حمى القرآن من التبديل :

- {ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون}(485) .

- {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس}(486) .

- {اتبع ما يوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين}(487) .

الدليل الثاني : السنة المطهرة :

لقد تعددت وتنوعت الأحاديث الدالة على وجوب اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم وأنها شقيقة القرآن ومثيلته في الحجية ، ويمكن تقسيم هذه الأحاديث تقسيماً

(482) آل عمران : (31) .
(483) الأحزاب : (21) .
(484) انظر الشفا 7/2 .
(485) الجاثية : (18) .
(486) المائدة : (67) .
(487) الأنعام : (106) .

موضوعياً إلى أنواع منها :

1- الأحاديث الدالة على أن السنة أخت القرآن تماثله في الحجية والاعتبار ، وأنه لا يمكن معرفة الشرع من القرآن وحده ، بل لا بد معه من العمل بالسنة :

- عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ؛ ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن ؛ فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ؛ وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله"(488) .

- عن العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

"أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته ، يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في هذا القرآن ؟ ألا وإني قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها مثل القرآن أو أكثر . وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ؛ ولا ضرب نسائهم ، ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذي عليهم(489) .

- عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قال :

صعِد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر يوم غزوة تبوك فحمد الله وأثنى عليه؛ ثم قال: "يا أيها الناس إني ما آمركم إلا ما أمركم به الله ، ولا أنهاكم إلا عما نهاكم الله عنه ؛ فأجملوا في الطلب فوالذي نفس أبي القاسم بيده إن أحدكم ليطلبه رزقُه كما يطلبه أجلُه ؛ فإن تعسر عليكم منه شيء فاطلبوه بطاعة الله عز وجل"(490) .

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى"(491) .

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من

(488) سنن أبي داود 5/10-11 ح 4604 .
(489) سنن أبي داود 3/436 ح 3050 .
(490) رواه الطبراني في الكبير .
(491) البخارى مع الفتح 15 / 174 ح 7280 .

أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله"(492) .

– قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسده الناس من بعدي من سنتي"(493) ، وفي رواية "الـــذين يحيون سنتي من بعدي ويعلمونها الناس"(494) .

– عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يا بـــني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل ، ثم قال: يا بني وذلك مـــن سنتي ، ومن أحب سنتي فقد أحبني ، ومن أحبني كان معي في الجنة"(495) .

– عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: قال النبي صلى الله عليـــه وســـلم : "والله ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتى إن كان منهم من يأتي أمه علانية لكان من أمتي من يصنع ذلك ، وإن بني إسرائيل تفرقت علـــى اثنتين وسبعين ملة ؛ وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين كلهم في النار إلا ملة واحـــدة ، قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي"(496) .

– قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تركت فيكم أمرين لن تضلوا مـــا تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتي"(497) ، وفي رواية البيهقي :".. . إني قد خلفت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما أبداً كتاب الله وسنتي ، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض".

– عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"(498) .

– قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من اقتدى بي فهو مني ؛ ومن رغب عن

---

(492) البخارى مع الفتح 174/15 ح 7281 .
(493) سنن الترمذى 19/5 ح 2629 .
(494) أخرجه المقدسى فى كتاب الحجة على تارك المحجة ، انظر : مفتاح الجنة 73 .
(495) سنن الترمذى 45/5 ح 2678 .
(496) سنن الترمذى 25/5 ح 2640 .
(497) الحاكم فى المستدرك 93/1 .
(498) أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد 369/4 والبغوى فى شرح السنة 212/1 – 213 .

سنتي فليس مني"(499) .

2- الأحاديث التي يأمر فيها النبي صلى الله عليه وسلم بالتمسك بسنته ويحـذر من اتباع الهوى والاستقلال بالرأي :

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"دعوني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم"(500) .

- عن عائشة رضي الله عنها قالت : "صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ترخص فيه فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : "ما بال قوم يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية"(501) .

- عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: "صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، ثم أقبل علينا بوجهه ، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب . فقال رجل: يا رسول الله،كأن هذه موعظة مودع ، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً ؛ فإنه من يعش منكم سيرى اختلافاً كثيراً . فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين: تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ . وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار"(502) .

3- الأحاديث التي فيها الأمر بسماع السنة وحفظها وتبليغها ونشرها بين الناس، مما يدل على حجيتها :

- قال الإمام الشافعي : "فلما ندب رسول الله إلى استماع مقالته وحفظها

(499) البخارى مع الفتح 10/ 130 ح 5063 .
(500) البخارى مع الفتح 176/15 ح 7288 .
(501) البخارى مع الفتح 15/ 206 ح 7301 .
(502) سنن أبي داوود 13/5- 14 ح 4607 .

وأدائها دل على أنه لا يأمر أن يؤدى عنه ، إلا ما تقوم به الحجة على من أُدِّي إليه ، لأنه إنما يؤدّى عنه حلال يُؤتى ، وحرام يجتنب ، وحد يقام ، ومال يؤخذ ويعطى ، ونصيحة في دين ودنيا"[503] ، ومن الأحاديث في هذا الخصوص :

– قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : "ألا فليبلغ الشاهدُ الغائب"[504] ، قال البيهقي : "لولا ثبوت الحجة بالسنة ، لما قال صلى الله عليه وسلم في خطبته بعد تعليم من شهده أمر دينهم: ألا فليبلغ ؛ الخ".

– قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نضر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها ؛ فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه"[505] .

– عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"اللهم ارحم خلفائي . قلنا: يا رسول الله ، ومن خلفاؤك ؟ قال: الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي ، ويعلمونها الناس"[506] .

– عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ، "بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عني ولا تكذبوا ، فمن كذب عليّ متعمداً ؛ فليتبوأ مقعده من النار"[507] .

الدليل الثالث : الإجماع :

إن حجية السنة أحد أصول الإسلام العظمى ودعائمه الكبرى ، وهي من أسس العقيدة وليست من الفروع ، وهذا من البدهيات الأولى في دين الإسلام ، ومن المسلمات الأساسية التي تظاهرت بها الأدلة .

ولهذا فقد أجمع المسلمون سلفا وخلفا ، منذ عهد الصحابة الكرام على أن السنة

(503) الرسالة ص402 .
(504) البخارى مع الفتح 1/ 213 ح 67 .
(505) سنن ابن ماجه 1/ 86 ح 2306 .
(506) الخطيب البغدادى ص30 – 31 ح 58 .
(507) البخارى مع الفتح 7/ 174 ح 3461 .

الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم حجة شرعية موجبة لاعتقاد مضمونها والعمل بمقتضاها ، ولم ينازع في ذلك أحد من أهل الإسلام ، بل لا نجد منهم إلا متمسكا بها ، محذّرا من مخالفتها ، ذابا عنها ، عاملا لإحياء ما أمات الناس منها ، ناشرا لعلمها ، مذكرا بمكانتها ، راجعا عن رأيه إليها ، وقد تواتر عن الأئمة الأربعة وغيرهم نحو هذه العبارة :

"إذا صح الحديث فهو مذهبي ، واضربوا بقولي عرض الحائط"[508] .

فهذا الأصل أعظم من أن يناقش وأبين من أن يختلف عليه ، وقد نقل الإجماع عليه كثير من العلماء منهم : الشافعي وابن عبد البر وابن حزم وابن تيمية وابن القيم .

– قال الإمام الشافعي : "لم أسمع أحدا نسبه الناس أو نسب نفسه إلى علم يخالف في أن فرض الله عز وجل اتباع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والتسليم لحكمه ، بأن الله لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه ، وأنه لا يلزم قول بحال إلا بكتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن ما سواهما تبع لهما ، وأن فرض الله علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واحد"[509] .

– وقال أيضا : "أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس"[510] .

– وقال الإمام ابن حزم: "ولو أن امرأ قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن ، لكان كافرا بإجماع الأمة"[511] .

– وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولا عاما يتعمد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من سنته دقيق ولا جليل ، فإنهم متفقون اتفاقا يقينيا على وجوب اتباع الرسول ، وعلى أن كل أحد من

(508) انظر : مجموعة الرسائل المنيرية 98/3 .
(509) الأم 250/7 .
(510) انظر : أعلام الموقعين 361/2 .
(511) الإحكام فى أصول الأحكام 2/ 80 .

الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله"(512) .

– وقال الإمام الشوكاني : "إن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بالتشـــريع ضرورة دينية ، ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في دين الإسلام"(513) .

الدليل الرابع : عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من جميع ما يخل بتبليغ الرسالة :

لقد دل الشرع وانعقد الإجماع على أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وســـائر الأنبياء معصومون من أي شيء يخل بتبليغ ما أرسلهم الله به إلى أممهم ، بحيث يـــؤدون الأمانة على وجهها ويبلغون رسالات ربهم كما أوحيت إليهم دون أدنى خلل.

فقد عصم الله رسوله صلى الله عليه وسلم وحماه من أي شيء يمكن أن يخل بتبليغ رسالته ،فهو معصوم من كتمان الرسالة أو شيء منها ،ومعصوم من الكذب في دعواها ، ومعصوم من الشك في أي جزئية منها ، ومعصوم من التقصير في تبليغها ، ومعصـــوم من تصور الشيطان له ، ومعصوم من تلبيس الشيطان عليه ومن تسلطه على خواطره . كما أنه صلى الله عليه وسلم معصوم من السهو والخطأ في أقواله وأفعاله البلاغية أي التي يقصد من خلالها إلى تبليغ الشرع للأمة .

ومن الأدلة على مبحث العصمة ما يلي :

1– دلالة المعجزة: فإن الله أعطاه معجزة القرآن التي تحدى به فصحاء العـــرب وبلغاءهم فعجزوا عن المعارضة ، وخضعت رقابهم للمعجزة ، فثبتت بذلك رسالته وأنه مبلغ عن ربه ، وحينئذ تقوم المعجزة مقام قول من أرسله بها: "صدق رسولي في جميع ما يبلغ عني من أمور الشرع" ، فهو بالتالي معصوم من الخطأ في التبليغ عن الله تعالى ، ولو جاز عليه شيء من السهو أو الخطأ في البلاغ لأدى ذلك إلى إبطال دلالة المعجزة وهـــو محال .

2– إن الله قد شهد له بالبلاغ والصدق وأنه مستمسك بالذي أوحى إليه وأنـــه

(512) رفع الملام عن الأئمة الأعلام 22 ، 23 .

(513) إرشاد الفحول 32 .

يهدي إلى صراط مستقيم ، قال تعالى : {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله}[514] ، وقال : {والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى}[515] ، وقال : {يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث}[516] .

3- أخبرت المعجزة نفسها أنه يستحيل عليه يزيد أو ينقص أي شيء في الشرع ، قال تعالى: {ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ..}[517]، فكل ما يصدر عنه في مجال التشريع هو من عند الله قرآناً كان أو سنة .

4- قوله تعالى : {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلَّغت رسالته والله يعصمك من الناس}[518] ، واضح هنا أن العصمة تتعلق بكل ما يمكن أن يخل بتبليغ الرسالة صَغُر أو كَبُر ، فهو محمي من جميع ذلك .

5- إن الله قد حمى رسوله من إضلال أعداء الإسلام وقد زكى الله استمساكه بالشرع ، قال تعالى : {ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء}[519] ، فلا يستطيعون التأثير على دينه أو تغيير حرف مما أوحى إليه .

6- إنه صلى الله عليه وسلم معصوم من كيد الشيطان ووسوسته وإغوائه ، قال صلى الله عليه وسلم : "إن لكل منكم قريناً . فقالت عائشة: حتى أنت يا رسول الله . قال : حتى أنا ولكن الله أعانني عليه فأسلمَ " وفي رواية "فأسلمُ"[520] .

---

(514) الشورى : (52 ، 53) .
(515) النجم : (1-4) .
(516) الأعراف : (157) .
(517) الحاقة : (43- 47) .
(518) المائدة : (67) .
(519) النساء : (113) .
(520) صحيح مسلم 2167/4- 2168 ح 69 .

تدل الرواية الأولى على أن قرين النبي صلى الله عليه وسلم قد دخل الإسلام ، فلا يأمره إلا بخير ، وتدل الرواية الثانية على أن الله قد نجاه وسلمه من كيد قرينه وإغوائه فلا يؤثر عليه في شيء .

7- شهد الله له في آخر زمنه بإكمال الرسالة وإتمام الدين دون تقصير ولا قصور : {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا}[521] .

الدليل الخامس : تعذر العمل بالقرآن وحده :

إن ما يدعيه بعض الناس من أنه يمكن الاقتصار على القرآن الكريم في عبادة الله تعالى فلا يحتاج حينئذ إلى السنة هو عين الضلال ومحض الزندقة ، وهو واحد من طرق الأعداء لنسف الدين من أساسه لأنهم يعرفون أن القرآن لا يكفي وحده لعبادة الله كما أمر وشرع ، وأنه لا غنى عن السنة في الفهم عن الله تعالى ، ومعرفة صفة العبادة الشرعية .

وقد ثبت عن السلف أن القرآن محتاج للسنة لبيان أحكامه ، كما دل عليه القرآن نفسه ، قال مكحول: "إن القرآن أحوج إلى السنة من حاجة السنة إلى القرآن"[522] وقال يحيى بن كثير: "السنة قاضية على الكتاب ، وليس الكتاب قاضيا على السنة".

قال السيوطي : "معنى احتياج القرآن إلى السنة أنها مبينة له ، ومفصلة لمجملاته ؛ لأن فيه لوجازته كنوزاً تحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها فيبرزها ، وذلك هو المنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، وهو معنى كون السنة قاضية عليه ، وليس القرآن مبيناً للسنة ولا قاضيا عليها؛ لأنها بينة بنفسها؛ إذ لم تصل إلى حد الإعجاز والإيجاز؛ لأنها شرح له ، وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشروح"[523] .

فالقرآن والسنة شقيقان لا يفترقان ، ولا يغني واحد منهما عن الآخر ، ويستحيل

(521) المائدة : (3) .
(522) أخرجه سعيد بن منصور فى سننه .
(523) سنن الدارمى 1/ 153 ح 587 .

أن نطبق أوامر الله ونتبع شرعه دون العودة إلى السنة ، وقد تقدم نقل الإجماع عن ابن حزم وغيره أن من قال نأخذ بالقرآن وحده وندع السنة أنه كافر بإجماع المسلمين .

وتتبين الحاجة الماسة للسنة في فهم مراد الله في القرآن وبيان العقيدة الصحيحة وصفة العبادة الشرعية بتوضيح أن القرآن الكريم قد اشتمل على آيات محكمات وأخر متشابهات ، وتضمن أحكاما وعبادات مجملة وأخرى عامة وأخرى مطلقة ، وأخرى مشكلة ومبهمة ، وهذه كلها لا يمكن فهمها إلا بالسنة المطهرة ، ولا يمكن تطبيقها وترجمتها إلى عمل إلا بالرجوع إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله فيها .

ومن الأمثلة على ذلك ما يلي :

– قوله تعالى : {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة}[524] . هذا دليل على وجوب كل من الصلاة والزكاة . لكننا لا نجد في القرآن البيان التفصيلي عن صفة الصلاة الواجبة وكيفيتها ووقتها وعدد ركعاتها وصفتها وعلى من تجب ، وكذلك الزكاة: ما هي وعلى من تجب وفي أي مال تجب وما مقدارها وما شروطها ووجوبها ؟

كل ذلك بينته السنة ، ولولاها ما عرفناه ، حيث بين النبي ذلك بقوله وفعله ، وقال: "صلوا كما رأيتموني أصلي"[525] ، وبين أنصبة الزكاة وجميع متعلقاتها .

– قوله تعالى : {ولله على الناس حج البيت... . }[526] وقوله : {وأتموا الحج والعمرة لله}[527] .

فما المراد بالحج والعمرة ؟ أهما مثل ما كان يفعله أهل الجاهلية أم شيء آخر جديد ؟ وما صفة كل منهما وما شروطه ؟

الجواب في صفة حج النبي صلى الله عليه وسلم وعمرته ، التي وردت بها السنة ، وفي قوله صلى الله عليه وسلم : "خذوا عني مناسككم"[528] .

---

(524) البقرة : (43) .

(525) مفتاح الجنة : (47) .

(526) آل عمران : (97) .

(527) البقرة : (196) .

(528) صحيح مسلم 943/2 ح310 .

– قوله تعالى : {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله.. .}[529] . فما هي السرقة الموجبة للقطع وما شروطها وما نصاب المال الذي يجب القطع وما هو موضع القطع من اليد ؟ كل ذلك جاء بيانه في السنة المطهرة .

هذه الآيات ومثلها كثير لا يمكن إدراك مقصد الشارع منها ، ومعرفة أحكامها على التفصيل ، وفهم مراد الله منها إلا بالعودة إلى السنة ، فإن الله لم يكلفنا بهذه التكاليف التي أجملها في القرآن إلا وقد نصّب لها شارحاً ومبيناً وهو الرسول صلى الله عليه وسلم بسنته ، وفي هذا المعنى يقول ابن حزم: "في أي قرآن وجد: أن الظهر أربع ركعات ، وأن المغرب ثلاث ركعات ، وأن الركوع على صفة كذا ، والسجود على صفة كذا ؛ وصفة القراءة فيها والسلام ؛ وبيان ما يتجنب في الصوم ؛ وبيان كيفية زكاة الذهب والفضة ، والغنم والإبل والبقر ، ومقدار الأعداد المأخوذ منها الزكاة ، ومقدار الزكاة المأخوذة ؛ وبيان الحج... . ثم قال: وإنما في القرآن جمل لو تُركنا وإياها ، لم ندر كيف نعمل بها ، وإنما المرجوع إليه في كل ذلك النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ... فلا بد من الرجوع إلى الحديث ضرورة"[530] .

---

(529) المائدة : (38) .

(530) الإحكام فى أصول الأحكام .

المراجع المساعدة

1- حجية السنة 278 – 382 .

2- دفاع عن السنة 13 .

3- السنة للسلفي 30 – 90 .

4- مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة للسيوطي .

5- الحديث والمحدثون لأبي زهو 20 .

6- الحديث النبوي للصباغ 20– 30 .

أسئلة التقويم الذاتي

1- ما هي الأدلة العامة على حجية السنة؟

2- ما هو موضوع كل نوع من الآيات الدالة على حجية السنة ، مع التمثيل بآيتين لكل منها ، وبيان وجه الدلالة على الحجية.

3- وضح دلالة قوله تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون ...} على حجية السنة.

4- ما هو موضوع كل نوع من الأحاديث على حجية السنة ، مع التمثيل بحديثين لكل منها، وبيان وجه الدلالة على الحجية .

5- بيّن دلالة الإجماع على حجية السنة ، مع الاستدلال بالقرآن والسنة .

6- بين أن حجية السنة ضرورة دينية لتعذر العمل بالقرآن وحده ، مع الاستدلال والتمثيل .

7- لخص هذا المبحث في أربع صفحات من تعبيرك .

(4) هل اختلف المتقدمون فى حجية السنة ؟

المبحث الرابع
هل اختلف المتقدمون في حجية السنة؟

الأهداف الخاصة

1– إدراك أن سلف الأمة من أهل القرون المفضلة ومن سار على نهجهم من العلماء أطبقوا على حجية السنة وأنها أعظم من أن تطرح للبحث .

2– معرفة أنه لم يخالف في حجية السنة إلا زنديق أو منتسب إلى إحدى الفرق الخارجة عن الملة .

3– الوقوف على كلام علماء الأمة بهذا الخصوص ،وفهم الأدلة التي استندوا إليها .

المبحث الرابع
هل اختلف المتقدمون في حجية السنة؟[531]

إن حجية السنة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم مما عُلم من الدين بالضرورة ، لتظاهر الأدلة على ذلك ، وهي مرتبطة ارتباطا مباشرا بأصول العقيدة ، فإنها الترجمة الحقيقية للإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك فإنه لم يقع نزاع حولها بين المسلمين قاطبة ممن يعتد به في الخلاف والوفاق ، وهي مسألة أعظم وأجل من أن يتنازع عليها أو يختلف حولها ، بل إنها لم تكن مجال بحث ودرس باعتبارها من قطعيات الدين ومسلماته الأساسية وبدهياته الأولى ، ولهذا فإن المصنفين لم يجعلوا من أغراضهم أن يتناولوها بالتقرير والبيان والاستدلال ، جاء في كتاب مسلم الثبوت وشرحه فواتح الرحموت : "إن حجية الكتاب والسنة والإجماع والقياس من علم الكلام ، لكن تعرض الأصولي لحجية الإجماع والقياس؛ لأنهما كثر فيهما الشغب من الحمقى من الخوارج والروافض ، خذلهم الله تعالى ، وأما حجية الكتاب والسنة فمتفق عليها عند الأمة ممن يدعي التدين كافة ، فلا حاجة إلى الذكر"[532] .

وقال السعد التفتازاني : "فإن قلت فما بالهم يجعلون من مسائل الأصول إثبات الإجماع والقياس ولا يجعلون منها إثبات الكتاب والسنة كذلك؟ قلت: لأن المقصود بالنظر في هذا الفن هي الكسبيات المفتقرة إلى الدليل ، وكون الكتاب والسنة حجة بمنزلة البديهي؛ لتقرره في الكلام وشهرته بين الأنام ، بخلاف الإجماع والقياس"[533] ، ونصَّ أهل العلم على أنها ضرورة دينية[534] .

---

(531) راجع : حجية السنة 245- 277 ، السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى 127 ، 143 ، مفتاح الجنة للسيوطى 6 ، دفاع عن السنة 13 ، السنة المفترى عليها 18 ، 19 ، الحديث والمحدثون 20 – 21 السنة للسلفى 47 ، 87 .

(532) مسلم الثبوت وشرحه 17/1 .

(533) التلويح 138/1.

(534) انظر : التحرير 305 ، التقرير 225/2 .

وقد قرر هذه المسألة المؤلفون في أصول الفقه من أمثال ابن حزم والباجي والغزالي والآمدي والبزدوي وغيرهم ، ونصوا على إجماع أمة الإسلام عليها ، ولم يذكروا في كتبهم تصريحا ولا تلميحا وجود خلاف في حجية السنة ، وهم الذين استقصوا كتب السابقين ومذاهبهم ، وتتبعوا الاختلافات المعتبرة والشاذة ، واعتنوا بالرد عليها.

وكيف يتصور أن يكون نزاع بين المسلمين في مسألة هي من أصول الدين ، ومما علم من دين الإسلام بالضرورة ، والمنازع فيها مرتد خارج عن الملة .

وقد تقدم معنا قول الإمام الشافعي في جماع العلم من كتاب الأم : "لم أسمع أحداً نسبه الناس أو نسب نفسه إلى علم يخالف في أن فرض الله عز وجل اتباع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتسليم لحكمه ، بأن الله عز وجل لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه ، وأنه لا يلزم قول بكل حال إلا بكتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن ما سواهما تبع لهما ، وأن فرض الله علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واحد".

أما مناظر الإمام الشافعي في أمر السنة فإنّ الشافعي لم يبين لنا نحلته فيما ساقه من المناظرة في كتاب جماع العلم من الأم[535] ، وقد حقق الدكتور عبد الغني عبد الخالق المسألة وبين أنّ مناظر الإمام الشافعي لم ينكر أصل حجية السنة ، وإنما كان يناظر في إمكان ثبوتها عن النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل الإنكار ، وهذا أيضاً جرم عظيم وقول باطل مردود بقطعيات الدين ودلالات الكتاب والسنة ، غير أنه يختلف عن قول من أنكر أصل الاحتجاج بالسنة .

وعلى فرض التسليم بأن مناظر الشافعي ينكر أصل الحجية فإنه يكون حينئذ زنديقاً ينتمي لأحد الفرق الخارجة عن الملة .

أما الفرق المنسوبة إلى الملة فإنها وإن انحرفت عن الحق وضلت في هذه المسألة إلا أنها لم تتجرأ على رفض حجية السنة من حيث المبدأ لعلمها بأن ذلك مخرج عن الملة ، فإن الخوارج مثلا لا يرفضون أصل السنة ، ولكنهم لا يقبلون الأحاديث إلا عمن يتولونه من الصحابة .

(535) الأم 7/ 250 .

وكذا الشيعة غير الغلاة فإنهم قبلوا الأحاديث الواردة من طريق أئمتهم عمـــن لم يكفروه من الصحابة وردوا ما عداها .

وقد ضل الفريقان في هذا الباب ، ونتج عن ذلك ضلالهم معتقدا وسلوكا.

أما غلاة الشيعة من الرافضة فإنهم كفار خارجون عن الملة لاعتقادهم أن النبـــوة لعلي وأن جبريل أخطأ في نزوله إلى محمد صلى الله عليه وسلم(536) ، تعـــالى الله عمـــا يقولون علوا كبيرا.

وأختم هذا المبحث بقول الحافظ ابن حزم: "لما بينا أن القـــرآن هـــو الأصـــل المرجوع إليه في الشرائع نظرنا فوجدنا فيه إيجاب طاعة ما أمرنا به رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ، ووجدناه عز وجل يقول فيه واصفا لرسوله صـــلى الله عليـــه وســـلم : {وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي}(537) ، فصح لنا بذلك أن الوحي ينقسم من الله عز وجل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على قسمين :

أحدهما: وحي متلو مؤلف تأليفا معجز النظام ، وهو القرآن .

والثاني: وحي مروي منقول غير مؤلف ولا معجز النظام ولا متلو ، لكنه مقروء ، وهو الخبر الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المبين عن الله عـــز وجـــل مراده منا ، قال تعالى: {لتبين للناس ما نزل إليهم}(538) ، ووجدناه تعالى قد أوجـــب طاعة هذا القسم الثاني كما أوجب طاعة القسم الأول الذي هو القرآن ولا فرق ، فقال تعالى : {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول}(539) ، فكانت الأخبار التي ذكرنا أحد الأصول الثلاثة التي ألزمنا طاعتها في الآية الجامعة لجميع الشرائع أولها عن آخرها ، وهي قولـــه تعالى :

- {ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله} ، فهذا أصل وهو القرآن.

---

(536) انظر : مفتاح الجنة 3 .
(537) النجم : (3، 4) .
(538) النحل : (44) .
(539) المائدة : (92) .

- {وأطيعوا الرسول} ، فهذا أصل ثان ، وهو الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

- {وأولي الأمر منكم}[540] ، فهذا ثالث ، وهو الإجماع المنقول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمه .

فلم يسع مسلما يقر بالتوحيد أن يرجع عند التنازع إلى غير القرآن والخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يأبى عما وجد فيهما ، فإن فعل ذلك بعد قيام الحجة عليه فهو فاسق ، وأما من فعله مستحلا للخروج عن أمرهما وموجبا لطاعة أحد دونهما فهو كافر لا شك عندنا في ذلك"[541] .

(540) النساء : (59) .

(541) الإحكام فى أصول الأحكام 96/1 .

المراجع المساعدة

1- حجية السنة 245- 277 .

2- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 127 ، 143.

3- مفتاح الجنة للسيوطي 6 .

4- دفاع عن السنة 13 .

5- السنة المفترى عليها 18 ، 19 .

6- الحديث والمحدثون 20 _21 .

7- السنة للسلفي 47 ، 87 .

أسئلة التقويم الذاتي

1- بيّن اتفاق المسلمين قاطبة على حجية السنة ؟

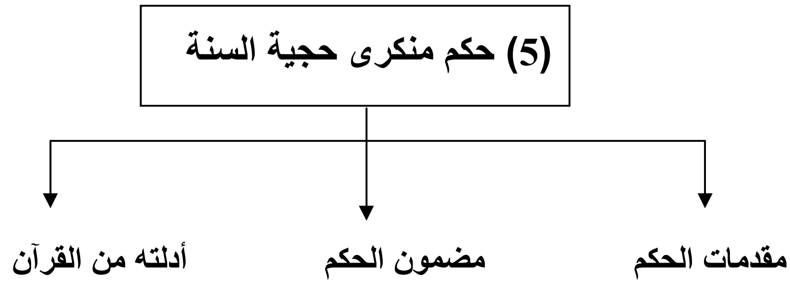
2- استشهد لذلك بكلام الأصوليين وواقع مصنفاقم .

3- حقق القول في هوية مناظر الإمام الشافعي في موضوع السنة ، وما حقيقة محل النـــزاع معه؟

4- لخص كلام ابن حزم في هذا الموضوع .

5- اكتب صفحتين بتعبيرك تلخص فيها ما استفدته من هذا المبحث.

الوحدة السادسة



المبحث الخامس
حكم منكري حجية السنة

الأهداف الخاصة

1- إدراك عظمة أمر السنة المطهرة وأن حجيتها مرتبطة بأصول الاعتقاد.

2- تبين خطورة إنكار حجية السنة وأن ذلك مخرج من الملة.

3- معرفة حيثيات الحكم على منكري السنة.

4- الاعتقاد بأن منكر حجية السنة كافر ، لا تنفعه عبادة مطلقا.

5- معرفة أدلة الحكم بالكفر على منكري حجية السنة .

المبحث الخامس
حكم منكري حجية السنة(542)

أ- مقدمات الحكم :

هذه المقدمات مستفادة من المباحث السابقة ، وهي:

1- إن السنة وحي من الله تعالى ، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بتبليغها للناس كما أمره بتبليغ القرآن ، وألزم بها عباده كما ألزمهم بالقرآن.

2- إن السنة شقيقة القرآن ومثيلته في الحجية والاعتبار.

3- إن القرآن والسنة متلازمان لا يغني أحدهما عن الآخر ، وهما معا مصدر الدين ومرجع المسلمين.

4- دل القرآن والسنة والإجماع والعصمة على وجوب اعتقاد مضمون السنة والعمل بمقتضاها ، وأنها حجة شرعية ملزمة ، لا يسع أحداً تركها.

5- يستحيل عبادة الله كما أمر وشرع بغير العودة إلى السنة.

6- إن من ترك السنة وادعى الاقتصار على القرآن قد كذّب القرآن نفسه لأن القرآن دل على وجوب اتباع السنة.

7- إن من ترك السنة وادعى الاقتصار على القرآن يلزمه أن يترك القرآن أيضا لأنه إنما جاء عن طريق الرسول صلى الله عليه وسلم.

8- إن من ترك السنة وادعى الاقتصار على القرآن كاذب في شهادته لمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة.

ب- الحكم على منكري حجية السنة :

يتبين لك من الحيثيات السابقة أن من أنكر حجية السنة فقد كفر وخرج من

(542) راجع : الإحكام لابن حزم 96/1 ، 80/2 ، حجية السنة 252 ، السنة للسلفى 47 ، مفتاح الجنة للسيوطى 6 ، الموافقات للشاطبى 4 ، 17 ، إرشاد الفحول للشوكانى 32 .

الملة ، لا تنفعه صلاة ولا صوم ولا زكاة ، ولا غيرها من القربات ، بل كيف يصوم ويصلي ويزكي وإنما ثبتت تفاصيل أحكام الصلاة والصوم والزكاة في السنة المطهرة؟

بهذا حكم أهل العلم على منكر حجية السنة وأنه كافر خارج من الملة ، وذلك يتناول من أنكر أصل الاحتجاج بها ، كما يتناول من رد حديثا صحيحا بغير تأويل بعدما بلغه وعرف صحته بتقرير أهل الاختصاص لهذه الصحة ، وإليك بعض أقوال أهل العلم بهذا الخصوص :

1- قال الحافظ ابن حزم : "فلم يسع مسلما يقر بالتوحيد أن يرجع عند التنازع إلى غير القرآن والخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يأبى عما وجد فيهما . فإن فعل ذلك بعد قيام الحجة عليه فهو فاسق .

وأما من فعله مستحلا للخروج عن أمرهما وموجبا لطاعة أحد دونهما فهو كافر ، لا شك عندنا في ذلك .

وقد ذكر محمد بن نصر المروزي أن إسحق بن راهويه كان يقول : من بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر يقر بصحته ثم رده بغير تقية فهو كافر .

ولم نحتج في هذا بإسحق ، وإنما أوردناه لئلا يظن جاهل أننا منفردون بهذا القول.

وإنما احتججنا في تكفيرنا من استحل خلاف ما صح عنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} ، هذه الآية كافية لمن عقل وحذر ، وآمن بالله واليوم الآخر ، وأيقن أن هذا العهد عهد ربه تعالى إليه ، ووصيته عز وجل الواردة عليه"[543] .

وقال: "ولو أن امرأ قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافرا بإجماع الأمة ، ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل ، وأخرى عند الفجر ، لأن ذلك هو أقل ما يقع عليه اسم صلاة ، ولا حد للأكثر في ذلك.

وقائل هذا كافر مشرك حلال الدم والمال ، وإنما ذهبت إلى هذا بعض غالية

(543) الإحكام فى أصول الأحكام 99/1 .

الرافضة ، ممن قد اجتمعت الأمة على كفرهم ، وبالله التوفيق .

ولو أن امرأ لا يأخذ إلا بما اجتمعت عليه الأمة فقط ، ويترك كل ما اختلفوا فيه مما جاءت فيه النصوص لكان فاسقا بإجماع الأمة .

فهاتان المقدمتان توجبان بالضرورة الأخذ بالنقل"[544] .

2- وقال أيوب السختياني : "إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هـذا ، وأنبئنا عن القرآن فاعلم أنه ضال مضل"[545] .

3- وقال الإمام الشاطبي : "إن الاقتصار على الكتاب رأي قوم لا خلاق لهم خارجين عن السنة .."[546] .

4- وقال الإمام السيوطي : "إن من أنكر كون حديث النبي صلى الله عليه وسلم قولا كان أو فعلا بشرطه المعروف في الأصول حجةً كَفَرَ ، وخرج عن دائرة الإسلام ، وحُشر مع اليهود والنصارى أو من شاء من فرق الكفرة"[547] .

5- وقال الإمام الشوكاني: "إن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ، ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في دين الإسلام"[548] .

جـ- بعض الآيات الدالة على كفر منكري حجية السنة :

1- قال تعالى : {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما}[549] .

قال ابن القيم : "أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل ، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق عن قضائه وحكمه ، ولم يكتف منهم

(544) الإحكام 80/2 .
(545) أخرجه البيهقى فى المدخل . وانظر : مفتاح الجنة 39 ، حجية السنة 332 .
(546) الموافقات 17/4.
(547) مفتاح الجنة 6.
(548) إرشاد الفحول 32.
(549) النساء : (65) .

أيضا بذلك حتى يسلموا تسليما وينقادوا انقيادا"[550] .

2- وقال تعالى : {وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنـزل الله وإلى الرسـول رأيـت المنافقين يصدون عنك صدودا}[551] .

قال ابن حزم : "فليتق الله الذي إليه المعاد امرؤ على نفسه ، ولتوجـل نفسـه عند قراءة هذه الآية ، وليشتد إشفاقه من أن يكون مختارا للدخول تحت هـذه الصـفة المذكورة ، المذمومة الموبقة ، الموجبة للنار . فإن من ناظر خصمه في مسألة من مسـائل الديانة وأحكامها التي أمرنا بالتفقه فيها ، فدعاه خصمه إلى ما أنزل الله تعالى ، وإلى كلام الرسول ، فصده عنهما ، ودعاه إلى قياس أو إلى قول فلان وفلان: فليعلم أن الله عـز وجل قد سماه منافقا"[552] .

3- وقال تعالى : {قل أطيعوا الله والرسـول فـإن تولـوا فـإن الله لايحـب الكافرين}[553] .

فمن تولى عن طاعة سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كافر بصـريح نـص الآية .

4- قال تعالى : {ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا}[554] ، فمعصية سنة النبي صلى الله عليه وسلم هي عين الضلال البين .

5- وقال تعالى : {وماآتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقـوا الله إن الله شديد العقاب}[555] ، دلت الآية على أن من لم يأتمر بأمر السنة ولم ينته عما نهت عنه فإنه يعذب أشد العذاب ، ولا يكون هذا العقاب الشديد إلا في حق الكافرين .

هذه الأدلة كافية لمن آمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسـلم

---

(550) أعلام الموقعين 42/1 .

(551) النساء : (61) .

(552) الإحكام 101/1 .

(553) آل عمران : (33) .

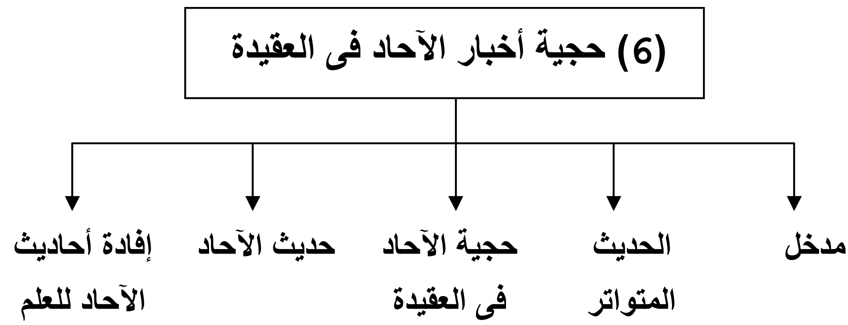
(554) الأحزاب : (36) .

(555) الحشر : (7) .

نبيا ورسولا أن يتمسك بالسنة ، ويعض عليها بالنواجذ رغبة في طاعة الله ومـــا أعـــده لعباده الصالحين من جزيل الثواب ، ورهبة من معصية الله ومخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المؤدية إلى دخول النار ، ويقينا بأن القرآن والسنة معا هما مصـــدر الـــدين وأساسه المتين ، وأنه لا خير ولا فلاح ولا نجاح ولا نصر ولا سعادة ولا تحضر ولا عزة ولا كرامة إلا باتباعهما والتفقه فيهما والاجتهاد في استخراج كنوزهما.

كما أن هذه الأدلة كافية في ردع المرجفين وإقامة الحجة عليهم ، وزجر المبطلين الذين أدى بهم الجهل بحقيقة الدين ، واتباع الهوى ، وتقليد الأعداء إلى تـــرك الســـنة وبالتالي الانسلاخ من الإسلام ، فبم سيلقون ربهم؟ وكيف سيواجهون مصيرهم المحتوم: نارا وقودها الناس والحجارة أعدت للمجرمين؟

فالسعيد من ارعوى قبل تحقق الردى ، وباب التوبة مفتوح أمام هؤلاء ، فهل من توبة نصوح تجب ما قبلها؟ وهل من عودة إلى رحاب الإيمان ومجتمع الإسلام؟


(6) حجية أخبار الآحاد فى العقيدة
مدخل
الحديث المتواتر
حجية الآحاد فى العقيدة
حديث الآحاد
إفادة أحاديث الآحاد للعلم

المبحث السادس
حجية أخبار الآحاد في العقيدة

الأهداف الخاصة

1- معرفة الحديث المتواتر ، وحديث الآحاد ، وإدراك الفـــروق بينـــهما ، وحكم كل منهما .

2- إدراك تأخر هذا الاصطلاح ، وأنه لم يكن معروفا في عهـــد الصـــحابة والتابعين .

3- تيقن أن حديث الآحاد الذي تلقته الأمة بالقبول يفيد القطع والـــيقين ، وأن هذا هو مذهب الصحابة وسائر السلف ،ومن يُعتد به من علماء المذاهب الأربعة وغيرهم .

4- اعتقاد أن خبر الواحد إذا صح عن النبي صلى الله عليه وسلم كان حجة شرعية في العقائد والأحكام على السواء ، وأنه لا دليل على التفريـــق بـــين الأمرين .

5- فهم أدلة حجية خبر الواحد في العقيدة .

6- معرفة شبهات المخالفين في هذه المسألة والتمكن من الرد عليها .

المبحث السادس
حجية أخبار الآحاد في العقيدة [556]

مدخل :

لم يكن الصحابة والتابعون يفرقون في الاحتجاج بالسنة بين ما رواه جماعة كثيرة ، وبين ما رواه واحد أو اثنان أو ثلاثة ما دام الضبط والعدالة متوافرين ، وما دامت ثقة الرواة معلومة ، إذ الجميع دين نحن ملزمون به ، والعبرة بثقة الناقل لا بكثرة عدد النقلة ، فكم من خبر ينقله ثقة واحد يكون في منتهى الصحة والدقة ، وكم من خبر مكذوب يرويه عدد كبير لا تزيده الكثرة إلا ظلمة كما قرر أهل الحديث.

كما أنهم لم يكونوا يفرقون في الاحتجاج بين ما مضمونه عقائد وبين ما مضمونه أحكام فالكل إذا صح عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو ملزم للمسلمين.

واستمر الأمر على ذلك إلى زمن أتباع التابعين حيث ظهر تقسيم الحديث باعتبار طرق وصوله إلينا وعدد أسانيده إلى متواتر وآحاد ، وكان لأهل الفرق المبتدعة والمناظرة معهم أثر كبير في ظهور هذا التقسيم ، ثم استقر الأمر عليه في القرون التالية.

أولا- الحديث المتواتر:

1- المتواتر لغة :

اسم فاعل مشتق من التواتر ، بمعنى التتابع ، يقال: تواتر المطر إذا تتابع نزوله.

---

(556) راجع الرسالة للإمام الشافعى **370** ، الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم **107/1** ، التمهيد لابن عبد البر **8/1** ، مختصر الصواعق المرسلة **332/2** ، **360** ، **412** ، **421** ، **432** ، أصل الاعتقاد للأشقر **57** ، الأدلة والشواهد على وجوب الأخذ بخبر الواحد فى الأحكام والعقائد للهلالى ، الحديث حجة بنفسه فى العقائد والأحكام للألبانى ، أخبار الآحاد لابن جبرين **95 –101** ، إحكام الفصول للباجى **339** ، المحصول للرازى **558/1/2** ، مجموع الفتاوى **260/20** ، أصول الفقه وابن تيمية **249/1 – 252** ، السنة المفترى عليها **133** ، الحديث والمحدثون **24** ، السنة للسلفى **135** ، الحديث النبوى **226** .

2- المتواتر اصطلاحا :

"ما رواه جمع كثير تحيل العادة تواطؤهم على الكذب عن مثلهم من أول السند إلى منتهاه ، ويكون مستند خبرهم الحس".

3- شروطه :

أ- كثرة العدد : وقد اختلفوا في تحديد العدد المفيد للتواتر ، فقيل : 5 ، وقيل :7 ، وقيل :10 ، وقيل :20 ، وقيل غير ذلك ، والذي اختاره السيوطي وبعض العلماء أن أقل الكثرة في إفادة التواتر عشرة .

والتحقيق في هذه المسألة ما ذكره الحافظ ابن حجر وشيخ الإسلام ابن تيمية من أنه لا معنى لتحديد العدد على الصحيح ، وأن العبرة بحصول العلم اليقيني الذي قد يكون تارة بكثرة المخبرين ، وتارة بصفاقم ، وتارة بقرائن أخرى تحتف بالخبر.

قال ابن تيمية في الفتاوى: "إن الخبر المفيد للعلم يفيده من كثرة المخبرين تارة ، ومن صفات المخبرين أخرى ، ومن نفس الإخبار به أخرى ، ومن نفس أحوال المخبر به أخرى ، ومن الأمر المخبر به أخرى ، فرب عدد قليل أفاد خبرهم العلم ، لما هم عليه من الديانة والحفظ الذي يؤمن معه كذبهم أو خطؤهم ، وأضعاف ذلك العدد من غيرهم قد لايفيد العلم ، هذا هو الحق الذي لا ريب فيه ، وهو قول جمهور الفقهاء والمحدثين وطوائف المتكلمين".

ب- أن تتوافر الكثرة التي يحصل بها العلم اليقيني في جميع طبقات السند ، لأن كل طبقة تمثل عصرا معينا ، وخبر أهل كل عصر مستقل بنفسه ، فلابد من تحقق الشروط فيه .

جـ- أن تحيل العادة اتفاقهم على الكذب ، وذلك بانتفاء كل غرض أو شبهة تحملهم على ذلك ، كأن يتفق أهل بلدة موبؤة على كتم خبرها عن غيرهم حتى لا يتركوا التعامل معهم فيختل العيش بها ، وكذلك الشائعات التي تصاحب أحداثا سياسية معينة ، وإن ظهرت في معظم وسائل الإعلام.

ولهذا الشرط وللشرطين قبله لم يقبل خبر اليهود بتكذيب نسخ شريعة موسى عليه السلام ، ولا خبر النصارى بدعوى صلب المسيح عليه السلام ، ولا خبر الشيعة

بالنص على إمامة علي رضي الله عنه .

د- أن يكون مستند خبرهم الحس من مشاهدة أو سماع أو إخبار ، لأن ما لايكون كذلك يحتمل دخول الغلط فيه ، وكذلك تتفاوت الأنظار في فهمه والتعبير عنه.

هـ- لا يشترط في الأخبار العامة أن يكون المخبرون مسلمين ولا عدولا ، أما في أخبار الديانة ورواية أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فالصحيح اشتراط الإسلام للإجماع على عدم جواز رواية الكافر .

4- حكمه :

إن الحديث المتواتر إذا توافرت شروطه فإنه يفيد العلم اليقيني القطعي ، الذي يضطر سامعه إلى التصديق به ، وهو أعلى درجات الحديث الصحيح ، ولا يحتاج إلى دراسة إسناده ولا إلى البحث عن أحوال رواته ، لأن جميعه صحيح.

5- عدده :

الحديث المتواتر قليل بالنسبة إلى عموم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو في حدود ثلاثمائة حديث .

ثانيا- حديث الآحاد :

1- تعريفه لغة : الآحاد جمع أحد بمعنى الواحد ، وهو الفرد.

2- تعريفه اصطلاحا : "هو ما لم يجمع شروط المتواتر ، بفقد واحد منها أو أكثر" ، وليس المقصود ما يرويه شخص واحد فقط ، كما قد يتوهم ، بل قد يرويه الواحد ، والاثنين ، والثلاثة ، ومازاد على ذلك ، ما لم يصل إلى حد المتواتر ، ويجمع شروطه .

3- أقسامه : ينقسم خبر الآحاد بالنسبة إلى عدد طرقه إلى ثلاثة أقسام ، هي:

أ- المشهور : "وهو ما رواه ثلاثة فأكثر في كل طبقة ما لم يبلغ حد التواتر".

ب- العزيز : "وهو ما رواه اثنان في طبقة أو أكثر من طبقات السند".

جـ- الغريب : "وهو ما رواه واحد في طبقة أو أكثر من طبقات السند".

4- حكمه : يخضع خبر الآحاد إلى قواعد الجرح والتعديل ، لأن منه المقبول

ومنه المردود ، والمقبول منه حجة شرعية موجبة لاعتقاد مضمونها والعمل بمقتضاها ، في أصول الشريعة وفروعها ، لا فرق في ذلك بين العقائد والأحكام .

ثالثا- إفادة أحاديث الآحاد للعلم :

إن خبر الواحد الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والذي تلقته الأمة بالقبول تصديقا له وعملا به أفاد العلم والقطع واليقين ، هذا ما كان عليه عامة السلف ، وجماهير من يعتد به من الخلف من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم ، وهو ماقرره المحققون من العلماء مثل ابن حزم ، والخطيب البغدادي ، وابن الصلاح ، وابن كثير ، وابن تيمية ، وابن القيم ، وغيرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بهذا الخصوص: "فهذا– أي ما حكم عليه المحدثون بالصحة ، وتلقته الأمة بالقبول– يفيد العلم اليقيني عند جماهير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أما السلف فلم يكن بينهم في ذلك نزاع ، وأما الخلف فهذا مذهب الفقهاء الكبار من أصحاب الأئمة الأربعة ، والمسألة منقولة في كتب الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، مثل السرخسي وأبي بكر الرازي من الحنفية ، والشيخ أبي حامد الأسفراييني وأبي الطيب الطبري والشيخ أبي إسحق الشيرازي من الشافعية ، وابن خويز منداد وغيره من المالكية ، ومثل القاضي أبي يعلى وابن أبي موسى وأبي الخطاب وغيرهم من الحنبلية ، ومثل أبي إسحق الإسفراييني وابن فورك وأبي إسحق النظام من المتكلمين ، وذكره ابن الصلاح وصححه واختاره ، ولكنه لم يعلم كثرة القائلين به ليتقوى بهم ، وإنما قاله بموجب الحجة الصحيحة ، وظن من اعترض عليه من المشايخ الذين لهم علم ودين ، وليس لهم بهذا الباب خبرة تامة أن هذا الذي قاله أبو عمرو بن الصلاح انفرد به عن الجمهور! وعذرهم أنهم يرجعون في هذه المسائل إلى ما يجدونه من كلام ابن الحاجب ، وإن ارتفعوا درجة صعدوا إلى السيف الآمدي ، وإلى ابن الخطيب ، فإن علا سندهم صعدوا إلى الغزالي والجويني والباقلاني.

وجميع أهل الحديث على ما ذكره الشيخ أبو عمرو ، والحجة على قول الجمهور: أن تلقي الأمة للخبر تصديقا وعملا إجماع منهم ، والأمة لا تجتمع على ضلالة.

واعلم أن جمهور أحاديث البخاري ومسلم من هذا الباب ، كما ذكر الشيخ

أبو عمرو ، ومن قبله من العلماء ، كالحافظ أبي طاهر السلفي وغيره ، فإن ما تلقاه أهل الحديث وعلماؤه بالقبول والتصديق فهو محصل للعلم ، مفيد لليقين ، ولا عبرة بمن عداهم من المتكلمين والأصوليين ، فإن الاعتبار في الإجماع على كل أمر من الأمور الدينية بأهل العلم به دون غيرهم ، كما لم يعتبر في الإجماع على الأحكام الشرعية إلا العلماء بها ، دون المتكلمين والنحاة ، وكذلك لا يعتبر في الإجماع على صدق الحديث وعدم صدقه إلا أهل العلم بالحديث وطرقه وعلله ، وهم علماء الحديث العالمون بأحوال نبيهم ، الضابطون لأقواله وأفعاله ، المعتنون بها أشد من عناية المقلدين بأقوال متبوعيهم ، فكما أن العلم بالتواتر ينقسم إلى عام وخاص ، فيتواتر عند الخاصة ما لا يكون معلوما لغيرهم ، فضلا أن يتواتر عندهم ، فأهل الحديث لشدة عنايتهم بسنة نبيهم ، وضبطهم لأقواله وأفعاله وأحواله يعلمون من ذلك علما لا يشكون فيه مما لا شعور لغيرهم به"[557] .

وبهذا يعلم أن ما شاع لدى المتأخرين من الجزم بأن خبر الآحاد لا يفيد إلا الظن مطلقا قول مستحدث مرجوح مخالف لما أجمع عليه السلف ، ومخالف لما قرره المحققون من العلماء الحفاظ وأهل الاختصاص ، وأنه قول يرتكز على التقليد لا على التحقيق ، كما هو واضح من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

ونبه ابن القيم على فساد قياس الخبر الشرعي على الأخبار الأخرى في إفادة العلم فقال : "وإنما أتي منكر إفادة خبر الواحد العلم من جهة القياس الفاسد ، فإنه قاس المخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرع عام للأمة ، أو بصفة من صفات الرب تعالى على خبر الشاهد على قضية معينة ، ويا بعد ما بينهما! فإن المخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قدر أنه كذب عمداً أو خطأً ، ولم يظهر مايدل على كذبه لزم من ذلك إضلال الخلق ، إذ الكلام في الخبر الذي تلقته الأمة بالقبول ، وعملت بموجبه ، وأثبتت به صفات الرب وأفعاله ، فإن ما يجب قبوله شرعاً من الأخبار لا يكون باطلاً في نفس الأمر ، لاسيما إذا قبلته الأمة كلها ، وهكذا يجب أن يقال في كل دليل يجب اتباعه شرعاً ، لا يكون إلا حقاً ، فيكون مدلوله ثابتاً في نفس الأمر ، هذا فيما نُخْبَر به عن

(557) مختصر الصواعق المرسلة 373/2 .

شرع الرب تعالى وأسمائه وصفاته ، بخلاف الشهادة المعينة على مشهود عليه معين ، فهذه قد لا يكون مقتضاها ثابتاً في نفس الأمر .

وسر المسألة أنه لا يجوز أن يكون الخبر الذي تعبد الله به الأمة ، وتعرف به إليهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في إثبات أسمائه وصفاته كذباً وباطلاً في نفس الأمر ، فإنه من حجج الله على عباده ، وحجج الله لا تكون كذباً وباطلاً ، بل لا تكون إلا حقاً في نفس الأمر ، ولا يجوز أن تتكافأ أدلة الحق والباطل ، ولا يجوز أن يكون الكذب على الله وشرعه ودينه مشتبهاً بالوحي الذي أنزله على رسوله ، وتعبد به خلقه ، بحيث لا يتميز هذا عن هذا ، فإن الفرق بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، ووحي الشيطان ، ووحي الملك عن الله؛ أظهر من أن يشتبه أحدهما بالآخر ، ألا وقد جعل الله على الحق نوراً كنور الشمس يظهر للبصائر المستنيرة ، وألبس الباطل ظلمة كظلمة الليل .

وليس بمستنكر أن يشتبه الليل بالنهار على أعمى البصر ، كما يشتبه الحق بالباطل على أعمى البصيرة ، قال معاذ بن جبل قضيته: "تلقَّ الحق ممن قاله ، فإن على الحق نوراً" ، ولكن لما أظلمت القلوب ، وعميت البصائر بالإعراض عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وازدادت الظلمة باكتفائها بآراء الرجال التبس عليها بالباطل ، فجوزت على أحاديثه صلى الله عليه وسلم الصحيحة التي رواها أعدل الأمة وأصدقها أن تكون كذباً ، وجوزت على الأحاديث الباطلة المكذوبة المختلقة التي توافق أهواءها أن تكون صدقاً فاحتجت بها!

وإنما المتكلمون أهل ظلم وجهل ، يقيسون خبر الصديق والفاروق وأبي بن كعب بأخبار آحاد الناس ، مع ظهور الفرق المبين بين المخبِرَيْن ، فمن أظلم ممن سوى بين خبر الواحد من الصحابة وخبر الواحد من الناس في عدم إفادة العلم؟ وهذا بمنزلة من سوى بينهم في العلم والدين والفضل(558) .

رابعا- حجية أحاديث الآحاد في العقيدة :

إن صحة الاحتجاج بأحاديث الآحاد في أبواب العقائد أمر مقرر مفروغ منه لدى

(558) مختصر الصواعق المرسلة 368/2 ، 379 .

السلف من الصحابة فمن بعدهم ، ولم يكن ذلك مثار شك ولا جدل ، فكل حديث صح عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو عندهم حجة في الأحكام والعقائد على حد سواء ، ولم تكن المسألة بحاجة إلى تقرير خاص في كتب المتقدمين؛ لوضوحها لديهم ، وإنما توجد في معرض ردودهم على المخالفين من أهل البدع ، وممن نقل إجماع الصحابة فمن بعدهم على هذه المسألة: ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة ، وابن عبد البر في التمهيد ، وسيأتي نقل ذلك عنهما قريباً عند سياق دليل الإجماع .

ثم ظهر أهل البدع ، وشاع علم الكلام ، وأثار المبتدعة جملة من القضايا الأصولية دفاعاً عن بدعهم ، وكان موضوع حجية خبر الآحاد مما بالغوا في إنكاره حتى يردوا تلك الأحاديث التي تبطل معتقداهم الفاسدة ، وقد رد عليهم علماء السنة بالحجج الدامغة ، والبراهين الساطعة ، غير أن بعض أهل الكلام والأصول من المتأخرين قد تأثروا ببعض تلك القضايا المثارة ، ومن ذلك القول بعدم حجية خبر الواحد في باب العقائد؛ لأن المطلوب فيها القطع ، وأخبار الآحاد لا تفيد عندهم إلا الظن ، وهذا مذهب المعتزلة ، واشتهر عند متأخري الأشاعرة .

والمذهب الحق أن أخبار الآحاد حجة في باب العقائد ، كما هي حجة في باب الأحكام والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع والمعقول .

وقبل سياق جانب من أدلة هذه المسألة باختصار أذكّر بما تقدم تقريره قريبا من أن أحاديث الآحاد إذا توافرت فيها شروط الصحة أفادت العلم على التحقيق ، وهذا من أعظم ما ينقض به مذهب المخالفين؛ لأن قولهم مبني على أنها لا تفيد إلا الظن ، وباب العقائد القطع ، وحتى لو قلنا إنها لا تفيد إلا الظن الغالب- كما هو مذهب المخالفين فلا يمتنع إثبات الأسماء والصفات وسائر أمور العقائد بها ، إذ الجميع متفقون على أن الأحكام تثبت بها ، ولا دليل على التفريق بين الأمرين .

* أما الأدلة من الكتاب العزيز ، فمنها :

1- قوله تعالى : {وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون}[559] .

(559) التوبة : (122) .

ولا خلاف أن الطائفة تطلق في لغة العرب على الواحد فصاعداً ، والإنذار هو الإعلام بما يفيد العلم ، وهو يتعلق بتبليغ العقيدة وغيرها مما جاء به الشرع .

2- قال تعالى : {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}[560] ، وهذا أمر لمن لم يعرف دعوة الرسل- وهي أصول وفروع- أن يسأل العلماء عن ذلك ، ويكفيه تعليم واحد وبلاغه ، ويكون جوابه ملزماً للسائل في العقيدة والأحكام جميعاً .

3- قال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا}[561] ، فدلت الآية بمفهوم الخطاب على أن خبر الواحد العدل حجة شرعية ملزمة ، ولا دليل على التفريق في ذلك بين العقائد وغيرها .

* ومن أدلة السنة المطهرة ما تواترت به الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم في بعث الرسل وإرسال الكتب مع الآحاد إلى المشركين وإلى المسلمين ، وعهده إليهم أن يبلغوا عنه جميع أمور الدين أصولاً وفروعاً ، ولو كان خبر الواحد لا يقبل في العقائد لبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى كل قطر جماعة يصلون إلى حد التواتر ، لتبليغ أمور العقيدة ، وذلك ما لم يحصل .

* دليل الإجماع : لم ينقل عن السلف من الصحابة فمن بعدهم التفريق بين الأحكام والعقائد في طريق إثباتها ، ولم ينقل عنهم خلاف في كون خبر الواحد حجة في الأمرين معاً ، بل العكس هو الثابت عنهم ، فكانوا يكتفون في قبول الخبر بعدالة الرواة وضبطهم مهما كان موضوعه ومضمونه ، ولم يكونوا يطلبون التواتر للإقرار والتصديق بما جاء في الأحاديث من العقائد ، وقد تناقلوا أحاديث الآحاد الواردة في العقائد وحرصوا على تلقيها والاشتغال بفهمها وحفظها واعتقاد مضمونها والعمل بمقتضاها ، وطفحت المصنفات بالاحتجاج بصحيحها ، قال ابن عبد البر عن السلف: "وكلهم يدين بخبر الواحد العدل في الاعتقادات ، ويعادي ويوالي عليها ، ويجعلها شرعا ودينا في معتقده ، على ذلك جماعة أهل السنة ، ولهم في الأحكام ما ذكرنا".

(560) النحل : (43) .

(561) الحجرات : (6) .

وذكر ابن القيم في كلام طويل أن الاجماع المعلوم المتيقن قد انعقد على قبول أحاديث الآحاد في العقائد ، وإثبات صفات الرب تعالى بها ، وأن الصحابة فمن بعدهم قد تناقلوا ذلك جيلاً عن جيل .

* ومن الأدلة العقلية ونحوها :

1- إن إنكار حجية خبر الآحاد في باب العقائد مخالف لأدلة الكتاب والسنة التي يحتج بها المخالفون أيضاً على وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في الأحكام ، وتلك الأدلة عامة ، فمن أين لهم التفريق؟ .

2- إن التفريق بين العقائد والأحكام في حجية خبر الواحد مبني على أساس أن العقيدة لا يقترن معها عمل ، وأن الأحكام الفقهية لا تقترن معها عقيدة ، وكلاهما باطل ، فإن عمل القلب هو الأصل الذي تبنى عليه كل عبادة ، وهو من العقيدة ، كما أن تطبيق الأحكام لابد أن يقترن باعتقاد أن الله أوجب ذلك أو نهى عنه ، وإلا لم تكن هناك عبادة .

3- إن القول برد أحاديث الآحاد في العقائد يلزم منه إنكار جملة كبيرة من المعتقدات الثابتة لدى المسلمين ، مثل بدء الخلق ، وسؤال الملكين ، والشفاعة العظمى ، ونحوها.

4- كما يلزم منه رد مئات الأحاديث الصحيحة لمجرد كونها في باب العقائد ، وهذا ما لا يوافقهم عليه أحد من أهل الصنعة الذين هم الحجة في هذا الباب ، ويلزم من هذا رد كثير من الأحكام التي وردت في تلك الأحاديث أيضا.

5- ويلزم منه أيضا تفاوت المسلمين فيما يجب عليهم اعتقاده بحسب طريق وصول أحاديث العقائد إلى كل منهم بعد عهد الصحابة ، وهذا ظاهر البطلان والفساد ، فإن الله قد تعبد جميع المسلمين بالشريعة نفسها من حيث المعتقدات والأحكام وسائر أمور الديانة .

وبالجملة فإن القول بعدم حجية أخبار الآحاد في العقائد قول مبتدع لا أصل له في الشرع ، وهو غريب عن هدي الكتاب والسنة ، ومنهج السلف وصنيعهم ، فعلى القائلين بذلك أن يتوبوا إلى الله عز وجل ، ويلتزموا الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة

وإجماع السلف ، ويتركوا الانشغال بالتقليد وآراء الرجال .

وأختم هذا المبحث بالرد على الشبهة التي عرضت للمخالفين في هذه المسألة ، ثم صارت عقيدة لهم يوالون ويعادون عليها ، ويتعبدون الله بها ، وهي قولهم: "إن حديث الآحاد لا تفيد إلا الظن ، والظن يعمل به في الأحكام اتفاقا ، ولا يجوز الأخذ به في العقيدة".

وقد تقدم بيان إفادة خبر الآحاد الذي تلقته الأمة بالقبول العلم والقطع واليقين .

ولو سلمنا جدلا بأن حديث الآحاد لا يفيد إلا الظن ، فإنا نقول لهم: من أين لكم التفريق بين الأحكام والعقائد في الاستدلال بأحاديث الآحاد عليها ، وما الدليل على أن لا يجوز الأخذ بها في العقيدة؟

وقد تقدم بيان بطلان هذا التفريق ، ونجد أن دليلهم الوحيد في هذا لا يصلح للاستدلال به في هذا الموضع ، مما يدل على جهلهم بفهم كتاب الله ويؤكد بطلان ما صاروا إليه .

فقد استدلوا بقوله تعالى في المشركين : {إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس}[562] ، وقوله : {إن الظن لا يغني من الحق شيئاً}[563] .

وفات هؤلاء أن الظن المذكور هنا والذي ذمه الله تعالى ، والذي هو صنيع المشركين ليس هو الظن الغالب الذي يفيده خبر الآحاد- على قولهم- وإنما هو الشك والخرص والحزر والتخمين ، كما جاء في كتب اللغة ، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى : {إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون}[564] .

ولوكان الظن المنعي على المشركين في هذه الآيات هو الظن الذي يفيده خبر الآحاد كما زعم أولئك لم يجز الأخذ به في الأحكام أيضا ، وذلك لسببين:

أولهما : إن الله تعالى قد أنكره على المشركين إنكارا مطلقا ، دون تخصيص له بالعقيدة أو الأحكام .

---

(562) النجم : (23) .
(563) النجم : (28) .
(564) الأنعام : (116) .

الثاني : إن الله تعالى قد نص على أن الظن الذي أنكره على المشركين يشمل العقيدة والأحكام جميعا ، ذلكم قوله سبحانه[565] : {سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا (فهذا عقيدة) ولا حرمنا من شيء (وهذا من الأحكام) كذلك كذب الذين من قبلكم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون} .

وبهذا يتأكد أن الظن الذي لا يجوز الأخذ به مطلقا هو الظن اللغوي المرادف للشك والتخمين والتخرص والقول بغير علم ، وأنه يحرم اعتباره في العقائد والأحكام جميعا.

كل هذا على سبيل التنزل مع الخصم ، وإلا فالصحيح الذي عليه إجماع السلف ومن يعتد به من العلماء أن أحاديث الآحاد التي تلقتها الأمة بالقبول تفيد العلم واليقين ، وأنها حجة شرعية في العقائد والأحكام جميعا ، فعلى كل مسلم أن يتقي الله ، ويقلع عن التقليد ويسلم للدليل الشرعي ، حتى يعبد الله كما أمر وشرع في هذه الدنيا ، وكي يسلم وينجو عند الوقوف بين يدي الله تعالى يوم القيامة .

---

(565) الأنعام : (148) .

المراجع المساعدة

1- الرسالة للإمام الشافعي 370 .
2- الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم 1/ 107 .
3- التمهيد لابن عبد البر 8/1 .
4- مختصر الصواعق المرسلة 332/2 ، 360 ، 412 ، 421 ، 432 .
5- أصل الاعتقاد للأشقر 57 .
6- الأدلة والشواهد على وجوب الأخذ بخبر الواحد في الأحكام والعقائد للهلالي .
7- الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام للألباني .
8- أخبار الآحاد لابن جبرين 95 - 101 .
9- إحكام الفصول للباجي 339 .
10- المحصول للرازي 558/1/2 .
11- مجموع الفتاوى 260/20 .
12- أصول الفقه وابن تيمية 249/1 - 252 .
13- السنة المفترى عليها 133 .
14- الحديث والمحدثون 24 .
15- السنة للسلفي 135 .
16- الحديث النبوي 226 .

أسئلة التقويم الذاتي

1- عرف المتواتر ، واذكر شروطه وحكمه .
2- عرف حديث الآحاد ، واذكر شروطه وحكمه .
3- متى ظهر هذا التقسيم ، وما هي أسبابه؟
4- هل يفيد خبر الآحاد العلم أو الظن الغالب ؟ ناقش المسألة مع الاستدلال والترجيح.
5- ما هي شبهة المخالفين في هذه المسألة مع الرد عليهم .
6- هل قول المخالفين أصيل أو مبتدع في الدين ، مع الاستدلال.
7- ما الواجب على المسلم في هذه المسألة عقيدة وعملا ودعوة؟
8- لخص هذا المبحث في ثلاث صفحات من تعبيرك .


(7) مناقشة الشبهات المتعلقة بحجية السنة
مدخل
المخالفون قديمًا
1- الشيعة
2- الخوارج
3- المعتزلة
المخالفون حديثًا
1- المستشرقون
2- بعض المنتسبين للإسلام

المبحث السابع
مناقشة الشبهات المتعلقة بحجية السنة

الأهداف الخاصة

1- تيقن عظمة دين الإسلام واعتقاد حفظ الله تعالى له إلى قيام الساعة ، وأنه لا يغير من حقيقته الربانية شيء من جهود أعداء الإسلام وإن كثرت وتعددت وسائلها.

2- إدراك خطورة توهم إمكان التحريف في دين الله على عقيدة المسلم.

3- معرفة أن أعداء الإسلام لا يزالون يكيدون للنيل منه قديما وحديثا ، وأن جهودهم باءت وتبوء بالفشل والخسران إذ لا طاقة للمخلوق الضعيف بمعارضة إرادة الله التي لا تقهر.

4- القناعة بضرورة التسلح بالعلم الشرعي وفق منهج صحيح لرد شبهات الأعداء وفضح مخططاتهم وإحباط مكايدهم.

5- معرفة الهدف العقائدي العدواني للاستشراق ، وعدم تحلي أكثر المستشرقين بالموضوعية والأمانة في النقل لخدمة أهدافهم.

6- إدراك أن من أعداء الإسلام من ينتسبون إليه ويتسمون بأسماء أهله ، كما وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح بأنهم ((من أبناء جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا)) ومع ذلك سماهم ((دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها)) .

7- اعتقاد أن شبهات الأعداء متهافتة واهية ، لا تقف أبداً أمام حجة الله البالغة ، وبراهين الإسلام الساطعة متى وجد حملة العلم الشرعي .

8- نشر هذا العلم لدى من يجهله من أبناء المسلمين .

المبحث السابع
مناقشة الشبهات المتعلقة بحجية السنة(566)

مدخل :

إن دين الإسلام العظيم يحمل في ذاته خصائص القوة والبقاء ، كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وذلك لأنه من عند الله الواحد القهار ، الذي بيده الخلق والأمر ، وهو سبحانه قد جعل هذا الدين رسالته الخاتمة إلى البشرية ، وتكفل بحفظه إلى يوم الدين فقال: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}(567) .

إن دينا قد تكفل الخالق القدير ، القوي ، الحكيم بحفظه ، وارتضاه رسالة خاتمة لهداية البشرية لا يمكن للمخلوق العاجز الضعيف أن يحرف فيه أو يبدل ، ولو تظاهر على ذلك الجن والإنس .

وإنما يتوهم إمكان التحريف في دين الله من ضل سواء السبيل ، وكفر بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، فتجد أعداء الله يكيدون الليل والنهار ، ويمكرون مكر السوء ، ولكن الله غالب على أمره ولو كره الكافرون ، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله .

وقد سعى أعداء الرسالة الخاتمة منذ عهد النبوة جاهدين بكل صنوف الكيد والإرجاف لتشكيك المسلمين في دينهم ، فكانت خيوط مكايدهم ولا تزال أوهن من خيوط بيت العنكبوت ، فظهر زيف مقولاتهم المتهافتة أمام قوة الحق ، وتبددت ظلمات أراجيفهم بنور الإسلام ، وتحطمت أصنامهم على يد جحافل الإيمان ، وهوت رموزهم

---

(566) حجية السنة 383 ، السنة المفترى عليها 295 ، الحديث والمحدثون 21 ، 86 ، 90 ، 162 ، 198 ، السنة قبل التدوين 347 ، 502 ، السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى 143 ، 153 ، 187 ، 236 ، منهج النقد فى علوم الحديث 413 ، 460 ، دفاع عن السنة وردّ شبهات المستشرقين والكتّاب والمعارضين د . أبو شهبة .

(567) الحجر : (9) .

وطواغيتهم بقدرة الله الغالبة وإرادته التي لا تقهر.

واستمر خلفهم الحاقدون في مخطط الكيد الذي سرعان ما تحبط أراجيفه أمام حجج ورثة علم النبوة في كل جيل ، ذلك أن الله قد تكفل بإتمام النور ، وإظهار دين الإسلام على ما سواه ، وحفظ مصدره: القرآن والسنة ، مهما بذل أعداؤه من الجهود {يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون}[568] .

وسوف أتعرض باختصار لبعض شبهات المخالفين في هذا المجال قديماً وحديثاً مع الأجوبة عليها بإذن الله تعالى ، علما بأن ما سأورده هنا هو من باب التمثيل وليس الحصر ، ومن أراد التوسع فعليه بمراجعة المصادر المحال عليها في أول المبحث .

أو لًا المخالفون قديماً :

1- الشيعة :

لغة : شايعه بمعنى اتبعه ووالاه على وجه التدين . وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة .

اصطلاحاً: هم فرقة اعتقادية مخالفة لأصول أهل السنة والجماعة بدأ ظهورها بعد مقتل عثمان رضي الله عنه يزعمون مناصرة علي رضي الله عنه في مسألة الخلافة.

ثم وضعوا لذلك أصولاً كلامية بوجوب إمامته بالنص والوصية ، واعتقدوا أن الخلافة لا تخرج عن أولاده إلا بظلم من غيرهم أو تقية منهم ، وكفَّروا من خالفهم واستحلوا دماءهم وأموالهم ، ويعتقد بعضهم في ألوهية علي ، وجميعهم يعتقدون العصمة فيه وفي أولاده ويضللون معظم الصحابة ، وهم فرق كثيرة تزيد على العشرين ، إلا أن رؤوسهم خمس فرق كبرى هي: الكيسانية والزيدية والإمامية والغلاة والإسماعيلية.

وليس الشيعة هم أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وإن ادعوا محبتهم لكسب تعاطف الناس ، وإنما مبدأ التشيع من جماعة يعادون الإسلام ويبغضونه ، وتبعهم في ذلك جهلة عوام المسلمين ، وأهل البيت برآء من هؤلاء وهؤلاء ، وكان علي رضي الله عنه

(568) الصف : (8 ، 9) .

أول من جاهدهم وسعى لاستئصال فكرهم وردهم عن معتقداتهم الباطلة.

ويتلخص موقفهم الباطل من السنة فيما يلي :

1- إنهم يحكمون بالضلال على أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص ، وجمهور الصحابة الذي رضوا بالخلافة لأبي بكر وعمر وعثمان . حتى إنهم لم يستثنوا إلا عدداً قليلاً من الصحابة أوصله بعضهم إلى خمسة عشر من مجموع الصحابة الذي يبلغ حوالي مائة وعشرين ألف صحابي.

2- إنهم ردوا أحاديث معظم الصحابة حيث حكموا بضلالهم كما تقدم ، ولم يقبلوا إلا أحاديث القلة التي استثنوها ، وهم يتفقون على استثناء خمسة من الصحابة: هم سلمان ، والمقداد ، وعمار ، وحذيفة ، وعلي.

وبهذا ردوا معظم السنة ، وخالفوا نصوص القرآن والأحاديث التي تثبت عدالة الصحابة.

3- إنهم يشترطون في قبول أحاديث الصحابة الذين استثنوهم من الضلال أن تكون من طريق رجالهم وأئمتهم المعصومين.

4- لا يعترفون بصحيح البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة المشهورة ، بل وضعوا كتباً في الحديث جلها أكاذيب مثل كتاب الكافي للكليني الذي يعتبرونه مثل البخاري عند أهل السنة ، وفيه أحاديث كثيرة جداً موضوعة ورواته غير معروفين ، ومع ذلك يعتبرونه أصح الكتب.

5- ليس عندهم أسانيد متصلة للأحاديث التي يروونها ، ومعظم أحاديثهم ليست مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

6- ليس عندهم كتب موثقة تترجم إلى رجالهم بالأسانيد المتصلة . فجل رجالهم مجاهيل عند التحقيق العلمي.

7- يتفق العلماء وأهل التاريخ على أن أصل الكذب في الحديث بدأ من قبل الشيعة الرافضة ، فإنهم انغمسوا في هذه الرذيلة بكل قوة ، فوضعوا أحاديث في فضل علي وأهل البيت . ووضعوا أحاديث أخرى تحط من شأن بقية الصحابة .

قال ابن أبي الحديد الشيعي في نهج البلاغة: "إن أصل الأكاذيب في الفضائل كان من جهة الشيعة".

وقال ابن الجوزي: "فضائل علي الصحيحة كثيرة غير أن الرافضة لا تقتنع فوضعت له ما يضع لا ما يرفع".

وقال ابن المبارك: "الدين لأهل الحديث والكلام والحيل لأهل الرأي والكذب للرافضة (غلاة الشيعة) ".

وسئل مالك عنهم فقال: "لا تكلمهم ولا ترو عنهم الأحاديث فإنهم يكذبون".

وقال الشافعي : "لم أر أحداً أشهد بالزور من الرافضة".

وقال ابن تيمية : "وكذب الرافضة يضرب به المثل".

8- لقد واجه بعض جهلة عوام المسلمين جريمة الشيعة ضد السنة بجريمة مشابهة ، فإنهم عندما سمعوا الأحاديث التي وضعها الشيعة ينتقصون فيها من قدر أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية وضعوا أحاديث في مقابلها لرد الاعتبار لأولئك الصحابة ، وهذا أمر محرم ، فإن الباطل يرد بالحق لا بالباطل .

ويمكن الرد الإجمالي على الشيعة في هذا المجال بما يلي :

1- إن موقفهم من الصحابة يناقض ما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة من عدالتهم . مثل قوله تعالى : {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً}(569) .

ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : "لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه"(570) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : "أصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون"(571) .

(569) الفتح : (29) .
(570) البخارى مع الفتح 7/370 ح 3673 .
(571) صحيح مسلم 4/1961 ح 2075 .

ومثل قوله صلى الله عليه وسلم: "الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم ، فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه"[(572)] .

2- إنهم خالفوا إجماع الأمة على تعديل الصحابة وتوثيقهم.

قال أبو زرعة الرازي : "إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول حق ، والقرآن حق ، وما جاء به حق ، وإنما أدى ذلك كله إلينا الصحابة وهؤلاء الزنادقة يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة ، فالجرح بهم أولى"[(573)] .

وقال الخطيب البغدادي بعد أن ذكر آيات وأحاديث تعديل الصحابة: " وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة والقطع بتعديلهم ، فلا يحتاج منهم أحد مع تعديل الله لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق لهم"[(574)] .

3- إنهم لما ردوا الأحاديث الواردة عن جمهور الصحابة لم يبق لهم من السنة ما يكفي للعبادة وفهم القرآن فانغمسوا في رذيلة الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم لتعويض ذلك النقص ، وعبدوا الله بغير ما شرع وأمر.

4- لا نكاد نجد لهم أحاديث متصلة الإسناد صحيحة مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

5- إن علياً وأئمة البيت الحقيقيّين قد تبرؤا ممن تشيع لهم بالباطل وادعى محبة أهل البيت وأساء لهم بادعاء عصمتهم .

6- أما قوله صلى الله عليه وسلم : "إني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ، فحث على الكتاب ورغب فيه ثم قال: "وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي" ، فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الزيادة

---

(572) أخرجه أحمد فى المسند 54/5 ، 55 .
(573) انظر الحديث والمحدثون 131.
(574) الكفاية فى علم الرواية .

الأخيرة تكلم فيها الإمام أحمد وغير واحد من أهل العلم ، وأن اللفظ الصحيح بـــدون هذه الزيادة رواه مسلم عن جابر ، وإنما ذكر مسلم الحديث الأول بهذه الزيادة لأن من منهجه أن يذكر الألفاظ المتفاوتة للأحاديث .

قال ابن تيمية في منهاج السنة: "وعلى فرض ثبوت هذه الزيادة فــإن المقصـــود التذكير بإعطائهم حقوقهم ، والامتناع عن ظلمهم ، وعدم المغالاة فيهم ، إذ لـــيس في لفظ الحديث مايدل على وجوب اتباعهم أو التمسك بهم إنما هو من باب الوصية بهـــم خيراً".

7- إن المحبة الحقيقية لأهل البيت تقتضي عدم المغالاة فيهم وعدم الكذب عليهم على عكس ما يفعله الشيعة .

2- الخوارج :

هم فرقة اعتقادية بدأها قوم عرفوا بالبداوة والغلظة وكثرة التعبد ، مع الجهـــل الشديد وقلة العلم والعقل ، وقد خرجوا على علي رضي الله عنه في موقعة صفين عندما رفعت المصاحف ثم بعد التحكيم . وهم فرق متعددة يجمعهم القول بتكفير عثمان وعلي رضي الله عنهما ، ومنهم من كفر أصحاب الجمل والأمويين والحكمين وكل من رضـــي بالتحكيم ، أي إنهم كفّروا كافة المسلمين في ذلك الوقت ما عدا أنفسهم ، كمـــا أنهـــم يكفرون مرتكب الكبيرة ويرون وجوب الخروج على الإمام الجـــائر ، وقـــد نـــاظرهم ابن عباس رضي الله عنه فرجع بعضهم واستمر الباقون على ذلك.

ومنشأ ضلالهم في السنة أنهم أسقطوا مرويات من حكموا بكفرهم وهم جمهـــور الصحابة ، ففقدوا بذلك مرجعية السنة في معظم مسائل الدين.

وهم يمتازون عن غيرهم من الفرق بأنهم لا يستحلون الكـــذب بـــل يكفـــرون الكاذب ، وقد ورد ما يفيد وقوع بعضهم في الكذب ، فيكون ذلك من عمـــل آحـــاد منهم ، وليس منهجاً عاماً لهم.

ويرى كثير من العلماء أن على هؤلاء ينصب قول النبي صلى الله عليه وسلم : "سيخرج من ضئضئي (صلب) هذا الرجل قوم يحقر أحدكم صلاته في جنب صلاتهم وصومه في جنـــب صيـــامهم ، ولـــــكن لا يجـــاوز إيمانـــهم تراقيـــهم ، يمرقون من

الديـــن كما يمــرق السهـــم مـــن الرمـــية"(575) .

ويقال في الرد على هؤلاء ما قيل في الرد على الشيعة بخصوص تعديل الله ورسوله للصحابة ، فلا يحتاجون مع ذلك إلى تعديل أحد ، ومن جرحهم فقد كـــذب بـــالقرآن والسنة وخرج بذلك من الملة .

3- المعتزلة :

المعتزلة فرقة اعتقادية بدأت على يد واصل بن عطاء حين خالف شيخه الحســـن البصري في حكم مرتكب الكبيرة ، ثم كثرت فرقهم وتنوعت ، ويكادون يجتمعون على الأصول الخمسة وهي: التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين والوعد والوعيـــد والأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وينبغي عدم الاغترار بما في ظاهر ألفاظ هذه الأصول؛ لأنهم لا يعنون بها ما يفهم من ظاهرها ، فهي تعني عندهم مبادئ اعتقادية مخالفة للقرآن والسنة وإجماع الســـلف الصالح .

فالتوحيد عندهم : هو نفي الصفات والقول بخلق القرآن ونفي رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة .

والعدل عندهم : هو نفي القضاء والقدر وإيجاب فعل الأصلح على الله تعالى وأن الحسن ما حسنه العقل والقبيح ما قبحه العقل .

والمنزلة بين المنزلتين : يعنون بها أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر ، بل هو في منزلة بينهما في الدنيا وأنه مخلد في النار في الآخرة .

والوعد والوعيد : يقصدون به حمل أحاديث الوعيد على ظاهرها وحمل أحاديث الوعد على ظاهرها ، فيوجبون دخول النار على أهل الكبائر .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هو وجوب الخروج على الحكام دون النظر إلى الضوابط الشرعية في ذلك .

ويرجع منشأ ضلالهم في باب السنة إلى أمور منها :

1- ينكر المعتزلة العدالة العامة للصحابة ويسيئون الأدب معهم ، وبالتالي يردون

(575) البخارى مع الفتح 10/ 122 ح 5057 .

أحاديث كثير منهم مثل طلحة والزبير وعائشة ومعاوية وسائر من قاتل علياً .

2- يجوزون وقوع الكذب في الخبر المتواتر إلا إذا كان أحد رواته من أهل الجنة بزعمهم .

3- ينكرون حجية أخبار الآحاد إلا إذا رواها أربعة عن أربعة ، أو إذا وافقت ظاهر القرآن ، وأضاف بعضهم ضوابط أخرى ، على خلاف بينهم في ذلك .

4- يُحَكِّمون العقل على الحديث: فيقبلون ما وافق العقل وإن كان ضعيفاً ، ويردون ما خالف العقل وإن كان صحيحاً .

5- يردون جميع الأحاديث التي تخالف أصولهم الخمسة ، فيجعلونها بالتالي حَكَماً على الشرع .

6- ثبت كذبهم في الحديث : كاختلاق عمرو بن عبيد حديث "إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه".

كما أن النظام والعلاف- وهما من مشاهير المعتزلة- يُجَوّزان الكذب وينصّان على ذلك ، وقد رد عليهم الإمام الشافعي في بداية كتاب الأم وفي مواضع من الرسالة . كما رد عليهم محمد بن نصر المروزي في كتاب السنة ، وغيرهما من المتقدمين.

وقد تقدم في أدلة حجية السنة ما يكفي للرد عليهم ، ونضيف إلى ذلك ما يلي:

أ- إنهم خالفوا القرآن والسنة والإجماع في موضوع عدالة الصحابة كما تقدم بيانه في الرد على الشيعة .

ب- إنهم خالفوا ما اتفق عليه العقلاء من أن الخبر المتواتر إذا توافرت شروطه أفاد العلم القطعي .

ج- إنهم وضعوا ضوابط يصعب تحقيقها لقبول أخبار الآحاد فردوا بذلك معظم السنة .

د- إنهم يقدمون العقل على النص ، ويجعلون أصولهم الخمسة حَكَماً على الحديث . وهذا مناقض للدلالة الصريحة من الكتاب والسنة على وجوب التسليم لما صح من الحديث .

هـ- إنهم وقعوا في جريمة الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم فخرمت بذلك عدالتهم واستحقوا الوعيد الوارد في قول النبي: "من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"(576) .

ثانيا: المخالفون حديثاً :

وهما فريقان من حيث الإجمال :

1- المستشرقون :

جمع مستشرق وهو الباحث الغربي المهتم بالدراسات الشرقية ، ويعنون بها غالباً العلوم الإسلامية ، حيث ركزوا جهودهم لدراسة الإسلام بغية تشويهه والسيطرة على أهله وتطويعهم لخدمة الغرب واعتناق فكره وثقافته والسير في ركابه واتباعه تبعية مطلقة . ويمكن تلخيص أشهر شبهاتهم والرد عليها فيما يلي:

الشبهة الأولى : قالوا إن الأحاديث جاءت نتيجة للتطور السياسي والاجتماعي وليست من محمد فقط .

الجواب : هذه الدعوى يكذبها القرآن والسنة والإجماع وواقع المسلمين.فقد نص القرآن على اكتمال الدين وتمامه قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً}(577) .

وقال صلى الله عليه وسلم: "تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك"(578) . وحث على سماع السنة وحفظها وتبليغها والتمسك بها.

ثم إن تمحيص السنة خاضع لضوابط مثل وجوب سياق الإسناد وضرورة تحقق العدالة والضبط في الرواة وغير ذلك من معايير نقد السند والمتن ، فليست المسألة مهملة حتى يقول من شاء ما شاء كما قال عبد الله بن المبارك وغيره .

وأجمع أهل الإسلام إجماعاً قاطعاً على أن ما صح من السنة صادر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه مصدر للدين مع القرآن الكريم ، وقد كان الصحابة حماة

(576) رواه مسلم 66/1 .
(577) المائدة : (3) .
(578) أخرجه ابن ماجه 4/1 ، 16.

حقيقيين للسنة لا يستجيزون تغيير حرف منها وينكرون أشد النكير على من خالف في التقديم والتأخير في لفظ أو حرف في حديث معين فضلاً عن التحريف فيه .

ومن حيث واقع المسلمين نجد أن الصحابة قد انتشروا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم شرقاً وغرباً ينشرون الإسلام قرآناً وسنة ، ولم يوجد في تلك العقائد والشعائر والشرائع التي نشروها أي فرق ، لذلك نجد عبادة المسلم في الحجاز هي نفسها عبادة المسلم في الشام وإفريقية ، ومعلوم أن معظم ذلك موجود في السنة.

الشبهة الثانية : قالوا : إن الأحاديث الموضوعة ليست من صنع المتأخرين بل شارك في الوضع الصحابة وأتباعهم.

الجواب :

هذه شبهة تافهة ، يسعى هؤلاء الأعداء من خلالها إلى تشكيك جهلة المسلمين وعوامهم في الصحابة ، الذين نقلوا إلينا الدين حتى يشككونا في الدين نفسه قرآناً وسنة ، وقد تقدم التأكيد على تعديل الله ورسوله صلى الله عليه وسلم للصحابة وإجماع أهل السنة على ذلك ؛ فلا يحتاجون إلى تعديل غير تعديل الله ورسوله ، ومن نظر في سيرهم أدرك فضلهم وبذلهم وتضحياتهم بالنفس والمال والولد وخوفهم الشديد من الوقوع في الخطأ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى إن الواحد منهم إذا سئل عن حديث يتمنى أن يكفيه أخوه مؤونة التحديث به ، وكان عبد الله بن مسعود مثلاً إذا حدث اضطرب وعلته صفرة فما أن ينهي الحديث حتى يقول: "أو نحو ذا أو شبه ذا" إبراء لذمته أن يقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل ، وكان هذا نهج باقي الصحابة ، فنجد عبد الله ابن الزبير مثلاً يقول لوالده الزبير: ما لي لا أراك تحدث عن رسول الله كما يحدث فلان وفلان؟ فقال: أما إني لم أفارقه في سفر أو حضر ، ولكني سمعته يقول : "من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"[579] ، وكان بعض الصحابة يقولون : "لولا آيات وأحاديث الوعيد على كتم العلم ما حدثناكم" ، وكان بعض الصحابة يحدث بالحديث وهو على فراش الموت خروجاً من إثم كتم العلم .

الشبهة الثالثة : قالوا : إن نظرية النقد عند المحدثين تختص بالسند فقط دون المتن ،

---

(579) البخارى مع الفتح 272/1 ح 108 .

لذلك نجد أحاديث كثيرة صحيحة الإسناد ومتونها باطلة .

الجواب :

هذا كلام جاهل ومغرض ، وذلك أن المحدثين وضعوا معايير لنقد السند ومعايير أخرى لنقد المتن ، بل إن معايير نقد المتن تتجاوز في العدد معايير نقد السند ، فإن معايير نقد السند ستة إجمالاً ؛ وهي : اتصال السند ، وعدالة الرواة ، وضبط الرواة ، والسلامة من الشذوذ ، والسلامة من العلة القادحة ، ووجود العاضد عند الاحتياج إليه . أما معايير نقد المتن فهي أكثر من خمسة عشر منها:

عدم مخالفة القرآن ، عدم مخالفة محكم السنة ، عدم مخالفة الإجماع المستقر ، عدم مخالفة المعلوم من الدين بالضرورة ، عدم مخالفة العقل الصريح ، عدم مخالفة الحس الصحيح ، عدم مخالفة حقائق التاريخ الثابتة ، أن لا يكون الحديث ركيك اللفظ ، أن لا يخالف القواعد العامة في الحكم والأخلاق ، أن لا يخالف البدهي في الطب والحكمة ، أن لا يكون داعية إلى رذيلة تتبرأ منها الشرائع ، أن لا يشتمل على سخافات يتنزه عنها العقلاء فضلاً عن الأنبياء ، أن لا يوافق مذهب الراوي الداعي إلى بدعته ، أن لا يخبر عن أمر في حضور عدد عظيم من الناس ثم ينفرد به واحد ، أن لا يشتمل على إفراط في الثواب العظيم على الفعل الصغير ، أن لا يبالغ في الوعيد الشديد على الخطأ الحقير.

الشبهة الرابعة : قالوا : إن الأمويين استغلوا الإمام الزهري بدهائهم لوضع الأحاديث ، وقد اعترف الزهري بذلك فقال: "إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة أحاديث".

الجواب :

هذا القول فيه مغالطة كبيرة وعدم أمانة في النقل ، فهم يعرفون إمامة الزهري في الحديث ، وهو الذي كلفه عمر بن عبد العزيز في عملية تدوين السنة ، ومن هنا حرص المستشرقون على الطعن في الزهري ليشككوا في عملية التدوين التي قام بها .

أما من حيث هذه الشبهة ، فإن الإمام محمد بن شهاب الزهري كان يمنع طلابه في البداية من كتابة الحديث ليحثهم على حفظه حفظاً قلبياً ، خشية أن يتكلوا على الكتابة ويتركوا الحفظ ، فأصر عليه الأمير هشام بن عبد الملك أن يملي الحديث على ابنه

ليستطيع حفظه ، فأملى له الزهري بعض أحاديثه بسندها ثم خرج من عند هشام ونادى في الناس بأعلى صوته: "أيها الناس إنا كنا منعناكم أمراً قد بـذلناه الآن لهـؤلاء ، وإن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث فتعالوا أحدثكم بها" أي لتكتبوها.

هذا هو النص الصحيح لكلام الزهري ، فانظر كيف حرفوا الكلم عن مواضعه ، وحذفوا الألف واللام من كلمة" الأحاديث" لتصبح" أحاديث" فتغير المعنى من رواية الحديث إلى وضع الحديث ، وهذا يدلك على عدم أمانتهم

هذه بعض شبهات المستشرقين ، الثلاث الأولى تمثيل لشبهاتهم الإجمالية ، والشبهة الأخيرة أنموذج لشبهاتهم التفصيلية . ومن علم أدلة الحجية من الكتاب والسنة وغيرها ، وأيقن بعدالة الصحابة ووثق في مناهج المحدثين في النقد أمكنه بكل يسر أن يـدحض أي شبهة من شبهاتهم ، ولا يخفى أن دحض بعض تلك الشبهات يحتاج إلى دعوة إلى المصادر التي أخذوا منها ليتأكد من مدى أمانتهم وصدقهم في النقل ، حيث إن معظم مصادرهم هي كتب الأدب والتاريخ العام التي لا يوثق بكثير مما فيها ، كما أنهم كثيرا ما يتعمدون التزييف وتغيير الحقائق لتأييد مقولاتهم ، بالإضافة إلى أن عدم تبحرهم في اللغة العربية وأسرار بلاغتها يوقعهم أحيانا في الخطأ .

2- بعض المعاصرين من المنتسبين للإسلام :

لقد تولى كبر الطعن على السنة في العصر الحديث جماعة ممن انتسبوا إلى الإسلام ، تابعوا في ذلك أسيادهم من المستشرقين ، وكانوا وسيلة قذرة لخدمة أهداف ومخططات أعداء الإسلام في غزو الأمة فكرياً وثقافياً ، فإن معظمهم قد درسوا في ديار الغرب وعادوا بشهادات عالية وتولوا مناصب تعليمية وتوجيهية مؤثرة ، ولم يكتف بعضهم بالشبهات التي تعلمها عن أساتذته بل أضاف إلى ذلك دساً وشبهات أخرى وقلة أدب لم يقع فيها حتى بعض الأعداء الأصليين ، ومن هؤلاء :

– طه حسين في كتبه المختلفة ، ومن خلال البرامج التي أقرها عندما كان عميداً لكلية الآداب .

– محمود أبو رية في كتابه" أضواء على السنة المحمدية" .

– الدكتور علي حسن عبد القادر في كتابه "نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي" .

– الدكتور محمد توفيق صدقي في سلسلة نشرها في مجلة المنار تحت عنوان "الإسلام هو القرآن وحده" .

– محمد كمال المهدوي في كتابه : "البيان في القرآن" .

وقد أفاد بعض من حاورهم وناظرهم أن منهم مرتدين عن الإسلام مغرضين في موقفهم من السنة ، ومنهم جهلة لا يدركون خطورة ما يقولون ، ولا علم لهم بهذا المجال .

ومن أشهر شبهاتهم ما يلي :

الشبهة الأولى: قالوا: لو كانت السنة حجة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم بكتابتها ، ولذلك فإنها لم تدون إلا في القرن الثاني وما بعده مما يجعلها عرضة للضياع والتحريف ، ثم إنه قد ورد أحاديث في النهي عن كتابتها .

الجواب :

لقد تقدم الجواب على هذه الشبهة في مبحث تدوين السنة ، ومبحث كتابة السنة[580] ، وذلك ببيان أن السنة قد حفظت في الصدور والسطور جميعا ، منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وبالجمع بين أحاديث كراهة كتابة السنة وأحاديث الأمر بذلك ، وبيان استقرار الإجماع على الكتابة ، كما ينبغي أن نستحضر باستمرار أدلة حجية السنة ، وأنها من أصول العقيدة وليست من المسائل الفرعية .

الشبهة الثانية : قالوا : إن الله يقول {ما فرطنا في الكتاب من شيء} ويقول : {نزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء}[581] ، وهذا يدل على أن القرآن قد حوى جميع أمور الدين ، فلا حاجة بنا إلى السنة .

الجواب :

ليس المراد في الآية الأولى القرآن كما قال أهل التفسير ، وإنما يراد به اللوح المحفوظ على الصحيح ، والمعنى أن اللوح المحفوظ قد احتوى على كل شيء واشتمل على أمور الخلق كبيرها وصغيرها ، وماضيها وحاضرها ومستقبلها ، أزلاً وأبداً على

---

(580) راجع ص134 ، 166 .

(581) الأنعام : (38) ، النحل : (89) .

التفصيل التام كما قال صلى الله عليه وسلم : "جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة"[582] .

ولو تنزلنا مع الخصم وسلمنا أن المراد بالكتاب هو القرآن كما هو في الآية الثانية ، فإن للعلماء على ذلك أجوبة منها :

1- إن الكتاب لم يفرط في شيء من أمور الدين على سبيل الإجمال ، وأنه بين جميع أساسيات الشرع دون جزئياتها وفروعها وتفصيلاتها التي ترك مجالها للسنة المطهرة ، التي هي شقيقة القرآن ومثيلته في الحجية ، قال تعالى :

{وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم}[583] .

2- إنه لم يفرط في شيء من أمور الدين وأحكامه إلا أن هذا البيان على نوعين:

أ- بيان بطريق النص المباشر ، مثل بيان أصول الدين وعقائده ووجوب الصلاة والزكاة وغيرهما من الأحكام الكلية ، وبعض الأحكام التفصيلية .

ب- بيان بطريق الإحالة على السنة المطهرة التي هي بيان للقرآن .

قال الإمام الخطابي في معالم السنن تعليقاً على الآية الأولى :

"أخبر سبحانه أنه لم يغادر شيئاً من أمور الدين لم يتضمن بيانه الكتاب ، إلا أن البيان على ضربين : بيان جلي تناوله الذكر نصاً ، وبيان خفي اشتمل عليه معنى التلاوة ضمناً ، فما كان من هذا الضرب كان تفصيل بيانه موكولاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو معنى قوله سبحانه {لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون} ، فمن جمع بين الكتاب والسنة فقد استوفى وجهي البيان".

3- ويقال لهم أيضا: أين أنتم من الآيات الأخرى الآمرة باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ووجوب طاعته ، والآيات التي تحذر من مغبة مخالفة أمره ، ثم أنى لكم أن تصلوا أو تزكوا أو تحجوا أو تطبقوا الحدود دون العودة إلى السنة .

الشبهة الثالثة : قالوا : إن الله قد تكفل بحفظ القرآن دون السنة حيث قال: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}[584] .

---

(582) البخارى فى كتاب القدر / الباب الثانى – وأحمد فى المسند **197/2** .

(583) النحل : (**44**) .

(584) الحجر : (**9**) .

الجواب :

ذكر العلماء أن المراد بالذكر هنا الشرع كله من كتاب وسنة فلا يصح استدلالهم ، وهذا المعنى كان واضحاً لدى السلف ، ولذلك عندما ذكر لعبد الله ابن المبارك وضع الزنادقة للأحاديث قال: "تعيش لها الجهابذة" ثم قرأ: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} حيث فهم أن السنة جزء من الذكر المحفوظ .

وإذا قيل إن الذكر هنا هو القرآن فقط وذلك من باب التنزل مع الخصم ، فالجواب حينئذ أن الآية ليس فيها حصر بأن الله لم يحفظ إلا القرآن فقد حفظ أشياء أخرى مثل حفظ النبي صلى الله عليه وسلم من الكيد وعصمته وحفظ العرش وحفظ السموات والأرض ، ومن ذلك حفظ السنة.

ثم إنه قد ورد في القرآن نفسه ما يدل على حفظ الشريعة كلها من كتاب و سنة تأكيداً للمعنى الأول ، قال تعالى: {يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون}[585] ، ونور الله هنا هو شرعه ودينه الذي ارتضاه لعباده ، بل ورد في القرآن ما يدل على حفظ السنة بصفة أخص ذلكم قوله تعالى : {إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه}[586] ، فقد تكفل الله بحفظ بيان القرآن وما هو إلا السنة المطهرة .

الشبهة الرابعة: قالوا: لقد وردت أحاديث كثيرة تدل على وجوب عرض الأحاديث على القرآن والعرف ، فإذا وافق ذلك قبلناه وإذا لم يوافق نرده . ومن هذه الأحاديث المزعومة :

– "إن الحديث سيفشو عني ، فما أتاكم يوافق القرآن فهو عني ، وما أتاكم يخالف القرآن فليس عني".

– "إذا حدثتم عني حديثاً تعرفونه ولا تنكرونه قلته أم لم أقله فصدقوا به فإني أقول ما يعرف ولا ينكر".

(585) الصف : (8) .

(586) القيامة : (17– 19) .

الجواب :

قال العلماء : إن الأحاديث الواردة في عرض السنة على القرآن أو على العقل أو العرف أحاديث واهية لا يصح الاستدلال بها ولا يجوز التمسك بها ، ذكر ذلك العلامة ابن حزم في كتاب "الإحكام في أصول الأحكام" والإمام السيوطي في كتاب "مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة " ، وقال الإمام الشافعي في "الرسالة": "لم يرو هذه الأحاديث أحد يصح حديثه في شيء صغر ولا كبر" . وقال الحافظ ابن عبد البر: قال عبد الرحمن ابن مهدي : "إن الزنادقة والخوارج وضعوا هذه الأحاديث" ثم قال ابن عبد البر: "إن هذه الألفاظ لم يصح منها شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم".

وهكذا يتبين لنا أن الشبهات التي أوردها أعداء الإسلام على السنة قديماً وحديثاً هي شبهات واهية لا تقف أمام الحقائق العلمية ، ولا تروج على من عنده علم من الكتاب والسنة ، وإنما قد تنطلي على جهلة المسلمين وعوامهم وما أكثرهم في هذا الزمان . وإن العصمة من الزلل والانحراف العقائدي الفكري والسلوكي إنما تكون بطلب العلم الشرعي من مصادره الصافية ، ومن هنا وجب على كل منا أن يسعى للتفقه في الدين ، ويُكَوِّن نفسَه فيه تكويناً علمياً عميقاً ، ويدعو غيره إلى ذلك ويترجم العلم إلى عمل ، لعل الله ييسر لهذه الأمة عودة مظفرة إلى ريادة البشرية وقيادتها نحو الخير والصلاح .

وبالله التوفيق وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المراجع المساعدة

1- حجية السنة 383 .

2- السنة المفترى عليها 295 .

3- الحديث والمحدثون 21 ، 86 ، 90 ، 162 ، 198 .

4- السنة قبل التدوين 347 ، 502 .

5- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 143 ، 153 ، 187 ، 236 .

6- منهج النقد في علوم الحديث 413 ، 460 .

7- دفاع عن السنة وردّ شبهات المستشرقين والكتّاب والمعارضين ، د . أبو شهبة .

أسئلة التقويم الذاتي

1- هل يمكن لأعداء الإسلام أن يحرفوا في مصدره ؟ بين ذلك .

2- اذكر أنواع المخالفين في حجية السنة عموماً .

3- ما موقف الشيعة من السنة؟ وكيف ترد عليهم؟

4- ما منشأ ضلال الخوارج والمعتزلة في باب السنة؟ وكيف ترد عليهم؟

5- من هم المستشرقون؟ وما أهدافهم الأساسية من دراسة الإسلام؟

6- مثل لعدم الموضوعية والأمانة العلمية لدى بعض المستشرقين.

7- اذكر ثلاثة شبهات للمستشرقين ورد عليها.

8- ما الذي يجعل بعض المنتسبين للإسلام يعادونه في موضوع السنة؟ وما أثر ذلك على حقيقة انتسابهم للإسلام ما دامت حجية السنة من أصول العقيدة؟

9- اذكر خمسة من هؤلاء وكتبهم التي أوردوا فيها شبهاتهم حول السنة.

10- كيف ترد على من قال بأن القرآن حوى كل شيء فلا حاجة بنا إلى السنة.

11- هل حفظ الله السنة كما حفظ القرآن ؟ وما حكم أحاديث عرض السنة على القرآن أو العقل أو العرف .

12- لخص هذا المبحث في خمس صفحات من تعبيرك .

البحوث المقترحة

لمادة "حجية السنة وتاريخها"

أ- الموضوعات :

1- الرد على المستشرقين في موضوع تدوين السنة .

2- الرد على المعاصرين من المنتسبين للإسلام في موضوع تدوين السنة .

3- الرد على المستشرقين والمعاصرين في موضوع حجية السنة .

4- أبو هريرة رضي الله عنه: جهوده في حفظ السنة والشبهات المثارة حوله .

5- دراسة تحليلية لمقدمة صحيح مسلم .

6- رد الشبهات التي أثيرت حول الإمام الزهري .

7- الرد على أحمد أمين في موقفه من السنة .

8- الرد على الشيعة في موقفهم من السنة .

9- تلخيص القسم الأول : تاريخ السنة (في حدود 25 صفحة) .

10- تلخيص القسم الثاني : حجية السنة (في حدود 25 صفحة) .

ب - ضوابط الكتابة :

1- يختار الطالب واحداً من الموضوعات المقترحة ، ويكتب فيه بحثاً علمياً مختصراً .

2- يجب مراعاة ضوابط البحث العلمي من حيث توثيق المادة العلمية ، ودقة العزو إلى المصادر ، وإثبات أرقام الآيات في سورها ، وعزو الأحاديث إلى كتب السنة الأصلية ووضع علامات الترقيم .

3- العناية بتناسق خطة البحث ، من حيث تقسيمها إلى أبواب وفصول ومباحث بحسب حاجة كل موضوع .

4- يجب الاهتمام بالمقدمة والتمهيد والخاتمة .

5- إتقان عمل الفهارس التي يجب أن لا تقل عن أربعة : فهرس الآيات ، فهرس الأحاديث ، فهرس المصادر ، فهرس المحتويات .

فهرس المحتويات

الجامعة الأمريكية العالمية

كلية الحديث الشريف

حُجيَّةُ السُّنَّة وتَاريخُهَا

الأستاذ الدكتور/الحسين شواط

رئيس الجامعة الأمريكية العالمية